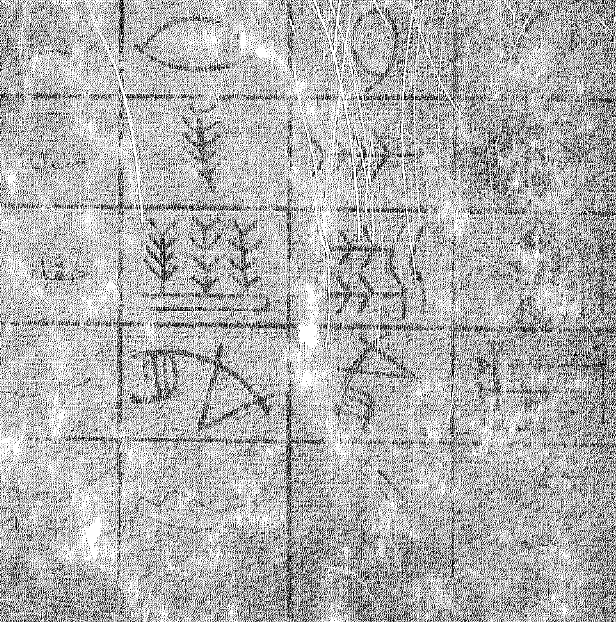
محمد حرب فرزات
عيد مرعي

دول وحضارات في الشرق العربي القديم



سومر وأكاد
بابل وآشور
أمورو وآرام

دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١
تلكس : ٤١٢٠٥٠
ص.ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

دول وحضـــارات
في
الشرق العربي القديم

الطبعة الثانية
١٩٩٤

محمد حرب فرزات

دكتور في تاريخ الشرق الأدنى القديم
دبلوم في الدراسات الآرامية

عيد مرعي

دكتور فلسفة في تاريخ الشرق الأدنى القديم
والدراسات الأكادية

دول وحضارات

الشرق العربي القديم

سومر وأكاد
بابل وأشور
أمورو و آرام

هذا الكتاب

أعد هذا الكتاب تلبية لحاجة ملحة للقارئ المثقف المهتم بتاريخ الوطن العربي وبدراسة حضارته القديمة.

وقد قام المؤلفان بإعداد مواد الكتاب، وقام كل منهما بمراجعة ما كتبه الآخر وناقشا معاً جملة من المسائل والمشكلات التي ما تزال مطروحة على بساط البحث لتوحيد وجهات النظر والمصطلحات والمفردات المعرّبة والمتداولة في ميدان تاريخ الشرق الأدنى القديم بالروح العلمية الموضوعية وضمن المعايير الأكاديمية المرعية وضمن هذا المنظور بذل ما أمكن من الجهد لتحقيق الأهداف التالية:

١ ـــ أن يوضح للقارئ موضوع دراسة (تاريخ بلاد الرافدين القديم) وميادينه وأبعاده وأدوات هذه الدراسة وبخاصة دراسة الآثار واللغات القديمة، وذلك لتعزيز الفكرة العلمية وروح النقد والمحاكمة. وقد طرحت دون إفراط أو تفريط جملة من المسائل التي ما تزال محل دراسة في المسائل العلمية المختصة، وهي مسائل تتصل بالناس الذين عاشوا على هذه الأرض وأقاموا فيها وشقوا ترابها بأذرعهم وبذروا فيه الحب وجبلوه بالدم وبنسغ الحياة، وكذلك بلغات هؤلاء الناس وبآثارهم المكتوبة وثقافاتهم وعقائدهم.

٢ ــ حاول الكتاب أن يقدّم عن (الماضي الحضاري) لبلاد الرافدين صورة اجتماعية ــ تاريخية تسهم في تبديد أشباح الصور الأسطورية الزائفة عن هذا الماضي لتجعله حلقة في مسيرة التاريخ العربي الطويلة، متصلة بمراحلها اللاحقة.

٣ ــ قدّم الكتاب عرضاً لتاريخ (الدولة) في بلاد الرافدين وقدّم أمثلة من التجربة السياسية لتلك الأجيال القديمة من سكان الوطن العربي القديم الذين كانوا أقدم من تصوّر المجتمع السياسي وأسّسه بالفعل على قواعد من القانون والنظام العام، وانتقل عبر تجارب طويلة متواصلة من دولة ــ المدينة إلى الدولة الشاملة (الامبراطورية) قبل أثينة والإسكندر وقيصر بقرون عديدة.

٤ ــ سلّط الكتاب الأضواء على تكوين تاريخ بلاد الرافدين وعلى العناصر المكوِّنة لهذا التاريخ، من العوامل البشرية الثابتة الدائمة، التي تمثلت بالأقوام العربية القديمة التي منحت البلاد هويتها الحضارية والثقافية وهم: الأكديون والأموريون والآراميون وفروعهم، وكذا العوامل البشرية الطارئة المتمثلة بتلك الشعوب التي كانت تعيش على الهامش والتي كانت تتدخل من خارج الحدود عندما تتاح لها الفرص السانحة وهذه الشعوب هي: الكوتيون والعيلاميون والكاشيون والحثيون والسكيثيون. إن المتتبع لمراحل هذا التاريخ المتشابك والمتداخل يتبين له كيف استطاعت هذه البلاد بقوة حضارتها وديناميتها احتواء المتناقضات خلال أكثر من أربعة آلاف عام فاحتفظت دول بلاد الرافدين بتفوقها السياسي والعسكري والثقافي ــ اللغوي إلى أن أخذت تتراجع أمام القوى الجديدة منذ دخول قوروش مؤسس الدولة الفارسية الأخمينية إلى بابل (٥٣٩ ق.م) وحتى دخول الإسكندر المقدوني إلى بلاد الشرق الأدنى القديم في ٣٣٢ ق.م.

٥ ــ وعلى الرغم من اتساع الموضوع، فقد عُني الكتاب بتقديم صورة شاملة لتاريخ بلاد الرافدين تناولت هذا التاريخ منذ بداياته

في الألف الرابع ق . م وحتى سقوط آخر الدول الرافدية القديمة المستقلة وهي الدولة البابلية الثانية (الكلدانية) في القرن السادس ق . م . ووجه الاهتمام إلى الجوانب الاجتماعية ــ الاقتصادية والثقافية إلى جانب التطورات السياسية بشكل يساعد على تفهم حركة التاريخ ومسيرته في تلك المرحلة ودور بلاد الرافدين فيها إلى جانب سائر أقطار الوطن العربي وبخاصة في سورية ومصر .

وقد تعاون المؤلفان على إعداد هذا الكتاب على النحو التالي :

الدكتور عيد مرعي : أعد بحوث (التجارة في بلاد الرافدين حتى عصر حمورابي) من الفصل الثامن و (الحوريون ودولة ميتاني) من الفصل التاسع و (التجارة في الألف الأول ق . م في بلاد الرافدين) من الفصل الحادي عشر .

الدكتور محمد حرب فرزات كتب مقدمة الكتاب وسائر فصوله وخاتمته .

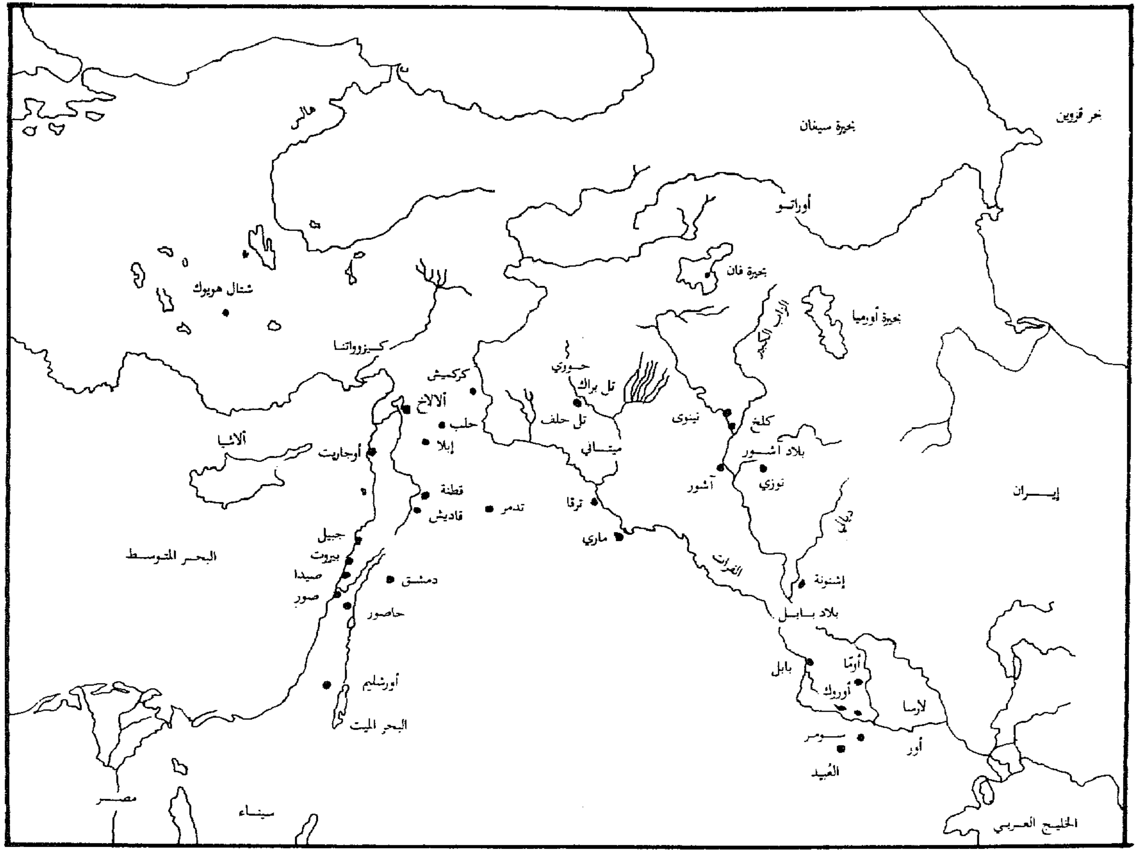
إن هذا الكتاب الذي لايرى فيه المؤلفان سوى مدخل إلى تاريخ بلاد الرافدين ، لايمكن أن يحيط بكل موضوع تاريخ وحضارة بلاد الرافدين القديم ، ولابد أن يستكمل في المستقبل بسلسلة من الدراسات والبحوث .

وإن لنا وطيد الأمل بأن تتسع الصدور لما قد يكون في هذا العمل من قصور راجين الله أن نتمكن من متابعة الجهود في هذا المضمار لخدمة التاريخ ودارسيه .

دمشق ــ الأول من ذو الحجة ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٣ حزيران ١٩٩٠ م

المؤلفان

محمد حرب فرزات ‏ ‏ ‏ ‏ عيد مرعي



مصور بلاد الرافدين وسورية في العصور القديمة

مقدمة : في منهجية البحث التاريخي

١ ــ معنى تاريخ بلاد الرافدين القديم

يمكن أن يكون موضوع التاريخ دراسة قصة تحرك الإنسان على الأرض التي يعيش عليها منذ عشرات آلاف السنين. ويستعين علم التاريخ بعلوم إنسانية مساعدة لدراسة بدايات وجود الانسان على الأرض كعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الأقوام، (الإثنولوجيا) . ولا ترقى أقدم المجتمعات المستوطنة المستقرة إلى أبعد من عشرة آلاف سنة، أي إلى أدوار لم يكن يعرف فيها الإنسان الكتابة . ولذا فإن دراستها تدخل في نطاق البحث في ما قبل التاريخ وهي تعتمد على المخلّفات المادية .

أما التاريخ الفعلي للمجتمعات الإنسانية فيبدأ بالتسجيل والكتابة والتوثيق . وهي مرحلة بدأت في المشرق العربي في وادي الرافدين ووادي النيل، ويمكن أن تعود إلى أواخر الألف الرابع أو أوائل الألف الثالث ق . م . فبدءاً من هذا الاختراع الفاصل في تاريخ الإنسانية يبدأ التاريخ القديم الذي نتتبع مراحله في بلاد الرافدين من تشكل أقدم النظم السياسية ــ الاقتصادية في العصر السومري إلى انهيار العصر البابلي الثاني بدخول الملك الفارسي قوروش مدينة بابل عام ٥٣٩ ق . م . وتبقى بابل قروناً بعد هذا التاريخ ولكن في ظل القوى الأجنبية التي بسطت سيطرتها على البلاد في العصرين الفارسي والهلنستي . . .

إن تاريخ بلاد الرافدين القديم هو جزء من تاريخ الوطن العربي ويشكل مرحلة هامة من تاريخ الإنسانية كلها . وهذه الدراسة ضرورية لتكوين النظرة الكلية عن حياة البشر ولتفهم حركة التاريخ والتطور الحضاري في الشرق العربي . إلّا أن هذه الدراسة ليست عملاً مسلّياً

دائماً ، وهي ليست من قبيل الهواية التي يمكن أن يقبل عليها أي إنسان دون أن يستعد للقيام بها بتملك الأدوات العلمية اللازمة لها . إن هذه الدراسة للحضارات القديمة ولتاريخ بلاد الرافدين وحضارتها هي ككل بحث علمي آخر تتطلب قدراً كبيراً من المسؤولية العلمية . وعلى المؤرخ أن يتحاشى كل الاغراءات التي قد تدفعه إلى التخلي عن مهمته الرفيعة في الدقة والتحفظ الشديد ، أو التي قد تعترض سبيله لتحوّله عن الهدف العلمي بجعل التاريخ نوعاً من الرواية الأدبية أو الشعر أو مجموعات من المواعظ والحكم الاخلاقية أو نوعاً من التفسير الذاتي للتاريخ . إن المؤرخ الذي لا يتخذ الحيطة لدفع ذلك كله يخطئ في حق عمله ، ويدفع به إلى السقوط ليضحي ضرباً من الأساطير والألغاز .

إن حضارة بلاد الرافدين هي أكثر الحضارات تأثيراً في تاريخ الشرق، العربي وفي تاريخ كل الحوض الشرقي للبحر المتوسط قبل العصر الهلنستي وقد امتد تأثيرها إلى ما بعد ذلك وإلى أيامنا هذه ، في بعض المعتقدات والتقاليد وفي التراث الأدبي وفي الحساب والتنجيم .

فدراسة هذه المرحلة لا تعرّفنا على الماضي كيف كان وحسب ، وإنّما تعرفنا على أنفسنا وتعلمنا كيف تمت عملية التطور الاجتماعي ـــ السياسي والنمو العقلي . إلّا أن هذه الدراسة ينبغي أن تتم في حدود الموضوعية دون المبالغة في تقدير قيمة الأشياء ودون الحط من قدرها تعصباً أو استخفافاً كما كان يفعل بعض الدارسين الأوربيين الذين يميلون إلى الرفع من مستوى الاغريق دون غيرهم ، أو أولئك الذين يستهينون بدور الهلينيين واللاتين ليسبوا كل خير إلى الشرق الذي يحبون .

إن دراسة التاريخ هي دراسة للإنسان ـــ المجتمع على امتداد الزمن . وإذا كانت دراسة الجغرافية تهتم أكثر بعلاقة الإنسان بالمكان ، وهي تدرس انتشاره أفقياً على الأرض ، فإن الباحث في التاريخ في حدود اطلاعه على ماضيه يغوصُ في أعماق الزمن . وكما أن الانسان المعاصر تمكن من كشف الأرض كلها إلى أن خرج من المكان إلى الفضاء ، فإن البحث في التاريخ القديم والغوص إلى أعماق ما قبل التاريخ أدّيا إلى تعميق مفهوم الزمن وإلى توسيع مدلول الماضي .

إن المقايسة بين مقدار اطلاع المؤرخين في العصور الوسطى على الماضي ومقدار ما بلغه العلم من معرفة في أيامنا هذه توضح لنا مبلغ ما حققه البحث العلمي من تقدم في هذا المضمار ، وذلك كله بتطور طرق البحث وأدواته وبخاصة نتيجة للتقدم في تقنيات التنقيب الأثري وفي مناهج البحوث اللغوية وقراءة النصوص وفي الأساليب الحديثة في نقل

المعلومات وتوثيقها. وهكذا يتعزز بناء العقل العلمي بنتائج البحث في التاريخ القديم وحضاراته.

إلّا أن الباحث يواجه مع ذلك جملة من المصاعب تتلخص في أن معلوماتنا عن الألوف الأولى من مراحل التطور قليلة إلى حد يجعل الدراسات التي يمكن أن تظهر عن تلك المرحلة ناقصة إلى حد كبير ومؤقتة وقابلة للتعديل والتصحيح في أي وقت، وذلك للنقص الفاضح في الوثائق المكتوبة المنقولة إلينا. ولا شك بأن الوثائق المادية تتدخل هنا لتسد هذا النقص. ونحن ندين لجيلٍ من الباحثين الآثاريين الذين فتحوا بجهودهم وبحوثهم مغاليق مشكلات كثيرة عن طريق إدخال طرق جديدة في البحث تحتل فيها الوثائق المادية دوراً هاماً، مما أدى إلى تقديم وجهات نظر جديدة للمسائل المطروحة. ولكن مما لا شك فيه أن هناك حقيقة لا يمكن تجاوزها هي أن الصورة التي نرسمها عن عصر معين بالاستناد إلى الوثائق المادية وحدها ودون توافر الوثائق المكتوبة تبقى دائماً صورة مجزوءة وذات وجه واحد.

لقد حقق الباحثون في تاريخ الشرق الأدنى القديم: بلاد العرب وآسية الصغرى وإيران وأورارتو، خلال القرن الأخير من أبحاثهم اللغوية والتاريخية وتنقيباتهم الأثرية، صورة جديدة للماضي البعيد لم يكن يعرفها أبناء القرن الماضي.. فلقد أدّت الجهود التي تُوجت بالكشف عن الحضارة المصرية وآثارها إلى تفسير الكتابة المصرية القديمة واللغة المصرية وإلى تأسيس علم الدراسات المصرية (Egyptologie). كما أدّت الجهود التي بذلت في بلاد الرافدين للتعرف على آثار حضارتها، إلى التعرف على الحضارات القديمة فيها: السومرية والأشورية والبابلية، بعد قراءة الخطوط المسمارية التي كتبت بها هذه اللغات، إلى تأسيس علم الدراسات الأشورية (Assyriologie) الذي كان موضوعه الحضارة الأشورية ووثائقها ثم وسع مفهومه ليشمل دراسة كل الحضارات التي كتبت وثائقها وسجلاتها بخطوط مسمارية ويتجه الميل إلى تسمية هذه الدراسات باسم الدراسات الأكادية. ولم تنحصر هذه الحضارات في بلاد الرافدين وحدها بل اتسع تأثيرها وشمل إشعاعها المناطق المجاورة في سورية (إبلا وألالاخ وأجاريت) وفي الأناضول وآسية الصغرى (الحوريون والحثيون)، وفي فارس وأورارتو...

لقد قلبت الدراسات الأثرية واللغوية والتاريخية الجديدة كل المفهومات والمصطلحات القديمة التي صاغها اللاهوتيون التوراتيون. فعالم الشرق الأدنى القديم، وفيه عالم الرافدين، كما نعرفه اليوم في ضوء المكتشفات الجديدة، وآخرها في إبلا وأبو صلابيخ وتل ليلان، لم يعد فردوس التوراة كما تحدث عنه ديليتش في مطلع هذا القرن، ولا جنات عدن كما تصوّرها الأقدمون، إنما عالم الشرق القديم هو أقدم ميدان للجهد البشري الاجتماعي ـــ السياسي،

حيث زرع الإنسان الأرض لأول مرة في التاريخ ودجّن الحيوان وبنى القرى وشاد المدن وسجّل بالكتابة والنحت والعمارة نتاج عقله ومشاعره وعلمه وفنه. لقد كان الشرق العربي القديم موطن الحضارات الأولى التي انتقلت إلى أرجاء حوض البحر المتوسط ثم نمت بذرة الحضارة وانتشر عطاؤها في ربوعه وتطورت وكبرت إلى أن بلغت المرحلة التي نعيشها اليوم.

لقد كان طريق الحضارة طويلاً وشاقاً. وفي القرون الأخيرة فقط من المرحلة الزمنية التي نتناولها بالبحث أخذ البحر المتوسط يعج بالفعّالية والنشاط الملاحي والتجاري للمجتمعات المقيمة على شواطئه قبل أن يصبح في أوائل الألف الأول للميلاد وحدة سياسية وثقافية، ليبدو بعد ذلك بحراً متوسطاً يتوسط المعمورة المعروفة وقد غدا عالماً متكاملاً. ولكن في العصور المترامية التي شملت الهلينية والامبراطورية الرومانية نلمح آثار تلك القوى التي كانت تؤثر في كل مجالات حوض البحر المتوسط وترفده بالحيوية الدائمة كما نلمح العوامل الجغرافية التي أدّت إلى توزع الأقوام والشعوب فيه. ولكن تنقصنا الإمكانات لشرح هذا التطور بدقة وتصويره بموضوعية. فالتأريخ المطلق وهو الأساس الذي يعتمد عليه، يبقى برغم معطيات البحث والتنقيب عبر أزمان تاريخ الشرق القديم ليس موضع إشكال وحسب، بل إن التأريخ النسبي أيضاً لا يمكن الاعتماد عليه دائماً تماماً. ويبقى الأمر معقداً والإشكال قائماً إلى أن تحل العقدة مصادفة سعيدة أو تفسير لإحدى المشكلات يقدمه فريق من الباحثين بالاعتماد على مجموعة مركبة من البحوث المتخصصة في كل جانب من جوانب المسألة. إن تأريخ أحداث ساعة واحدة من الزمن لتتطلب من المؤرخ الحصيف الروح الجدية نفسها في العمل والوعي العميق نفسه الذي يتطلبه تأريخ عصر كامل.

٢ ـــ علم التاريخ ودراسة تاريخ بلاد الرافدين

تنطلق دراستنا لتاريخ الشرق الأدنى القديم بعامة، ودراسة تاريخ بلاد الرافدين بخاصة من بعض المقدمات التي يمكن أن نصوغ بعضاً منها بصورة مجملة فيما يلي:

١ ـــ التاريخ علم لأنه يستهدف التعرف على حقائق وله في سبيل ذلك طرقه ووسائله التي تتطور بتطور العلم وطرقه ووسائله، وإذا كان لا يجوز الادعاء بأن التاريخ هو الحقيقة، فإنه مهما اختلفت الآراء هو طريق من الطرق الممكنة للنظر في هذا العالم. وهنالك ولا شك طرق أخرى تمكّن من النظر من زوايا أخرى كعلوم الطبيعة والاقتصاد والجمال... إلّا أن علم التاريخ يتميز عن سائر العلوم بكونه عالمياً وشاملاً وبصلته المباشرة بمعرفة ماضي البشرية وحاضرها وربما مستقبلها على هذه الأرض. ولعلّه يمكن القول إن التاريخ مهما اختلفت الآراء

في تعريفه يمكن أن يكون علم تحليل أسباب الوقائع في زمان ومكان محددين لاستخلاص نتائجها . وربما كان المؤرخ العربي ابن خلدون أسبق من فطن إلى مضمون هذا التعريف الذي ينادي به مؤرخون معاصرون . فالتاريخ يمكنه إذن بهذا المعنى أن يحتل مكانه الممتاز بين العلوم الإنسانية التي تهدف إلى البحث في الأسباب والوقائع ونتائجها .

وفي الواقع إن المشكلات المتصلة بتعريف التاريخ وبتعيين الأسباب الدافعة إلى كتابة التاريخ والبحث في فلسفته وطرق تسجيله أدت إلى الاهتمام بالبحوث والدراسات التي تعنى بكتابة التاريخ Historiographie . فعملية التأريخ لم تعد مجرّد تسجيل للأحداث وترتيبها زمنياً كما كان يفعل كتاب التاريخ في بلاد الرافدين مثلاً بل أضحت تحليلاً شاملاً دائماً مستمراً للماضي وصياغة متجددة لهذا الماضي . وهي تقتضي لذلك إحاطة الباحث بالماضي إحاطة واسعة ومعرفة راسخة بالعوامل والظروف المادية الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية التي رافقت عملية التطور .

وتتطلب هذه الدراسة من جهة أخرى معرفة بالعوامل المحركة للمجتمعات والتيارات الفكرية السائدة في كل مرحلة من مراحل التاريخ وأثر هذه التيارات في تحريك الدوافع الإنسانية . ولا شك بأن تحصيل هذا كله يتطلب من الباحث الجهد الذي لا يمكن التنصل من بذله لامتلاك أدوات البحث والطرق العلمية اللازمة لفهم الماضي .

٢ — إن مهمة الباحث في التاريخ بصورة عامة وتاريخ الحضارات بصورة خاصة هي التوصل إلى إدراك مراحل التغيير المادي والروحي في حياة المجتمعات وما طرأ على وجهات النظر أي العقائد والفلسفات من تأثيرات وما أدّى إليه ذلك من إنجاز فكري ، وإلى تتبع تطور وسائل الانتاج وتقنياته وتأثيرها في مجمل مظاهر الحضارة .

إننا عندما نبحث في تاريخ بلاد الرافدين القديم سنحاول الاطلاع على الجهود التي بذلتها أولى المجتمعات البشرية في سبيل الاستقرار وسنجد أن الصلات بين مختلف مراكز الحضارات المبكرة في وادي الرافدين وسورية ووادي النيل وفي شرقي الجزيرة العربية وجنوبها كانت قائمة منذ عصور موغلة في القدم . وهي ترقى إلى ما قبل اختراع الكتابة وقبل قيام الدول الكبرى والامبراطوريات الشاملة . ولدراسة تلك الأدوار البعيدة يعتمد علم التاريخ على العلوم الأخرى المساعدة كعلم اللغات (فيلولوجيا) ، وعلم النقوش الكتابية (إبيغرافيا) وعلم الخطوط ، وبخاصة على علم الآثار الذي ساعد بكشوفه الباهرة على تخليص دراسات الشرق الأدنى القديم من سيطرة التوجهات اللاهوتية التوراتية ولتجعل منها علوماً مستقلة مبنية على البحث في النصوص والوثائق المادية .

٣ ــ علم الآثار والبحث في التاريخ القديم

علم الآثار من العلوم الهامة المساعدة لعلم التاريخ . وهو يتناول بالبحث مدة أطول بكثير مما يتناوله علم التاريخ الذي يستند إلى الوثيقة المكتوبة . فعلم الآثار يكشف لنا عن الخطوط العامة لتطور فعاليات البشر خلال عصور طويلة ، وقد يقدم لنا أحياناً بعض التفصيلات عن التطورات التي تحققت بجهود أجيال عديدة خلال العصور التي كان فيها الانسان جاهلاً للكتابة وهي عصور ما قبل الكتابة أو ما قبل التاريخ ، كما يهتم بدراسة المخلفات العمرانية والمادية للإبداع الإنساني ولتطور التقنيات . فموضوع التاريخ إذن يبدأ حيث ينتهي موضوع دراسة التاريخ الطبيعي .

إننا عندما نتتبع تاريخ البشر نجد أنه بإمكان علم ما قبل التاريخ بمساعدة علم الآثار أن يراقب بقاء النوع البشري وتوالده وانتشاره وأن يطلعنا على الطرق التي تم بها تكيف المجتمعات البشرية حسب البيئة وتكييف البيئة معها .

وبإمكان علم الآثار أن يتابع هذه المهمة نفسها في العصور التاريخية بمساعدة الوثائق المكتوبة . ولقد نجح الانسان في البقاء والتكاثر بتحسين الجهاز المعاشي وشروط تأمين الغذاء والرعاية الصحية . وقد كان الانسان مؤثراً ومتأثراً بالمحيط الذي يحصل منه على أسباب معاشه . وبتعبير آخر إن الإنسان تعلم بخبرته كيف يكيّف نفسه مع بيئته ويكيف بيئته مع احتياجاته . ولتحقيق ذلك كان الانسان بحاجة إلى أجهزة وأدوات لمواجهة احتياجاته ويشكل سعيه في سبيل صنعها وتطويرها الجزء الأعظم من تاريخ الحضارة . فهو بحاجة إلى صنع المعاول والمجارف لأجل الحفر وللأسلحة للصيد والدفاع والهجوم ، وإلى السواطير والفؤوس لقطع الأخشاب ، وهو يحتاج إلى الثياب ليحتفظ بالدفء عندما يكون الطقس بارداً ، وإلى البيت والسكن ليأوي إليهما . وقد قضى الانسان زماناً طويلاً في تجاربه لمواجهة مصاعب الحياة في البيئة الصعبة التي وجد نفسه فيها فإن أكثر الأدوات الحجرية بساطة هي نتيجة لاختبار طويل . وإننا بدراستنا لحضارات الوطن العربي القديم نتعرف على أهم مواطن نشوء الحضارة الإنسانية في بلاد الرافدين وغيرها . فهذه المراحل التأسيسية من التاريخ هي بهذا المعنى لا تخص المنطقة العربية وحدها بل الإنسانية كلها لأنها تتناول أصول الحضارة وتراثها الأول .

ومما تجدر ملاحظته أنه عند البحث في التاريخ لا توجد في مسيرة التطور الحضاري حدود فاصلة ، **فالزمن** لا يتوقف وكذلك فعاليات الناس وحياتهم اليومية . أما التمييز بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية فهو مسألة اعتبارية . فمرحلة ما قبل التاريخ تبقى

بالنسبة للعصور التاريخية غير واضحة المعالم بشكلٍ كافٍ لعدم وجود الكتابة فيها. إلّا أن التوسع في التنقيبات الأثرية وتقدم طرق تحليل اللقى الأثرية يمكّن بصورة أفضل من استنطاق الآثار المكتشفة وفهم دلالاتها. وهكذا، إذا أردنا أن نلخص الحديث عن مرحلة ما قبل التاريخ فإننا نجد أن مادة دراسة هذه المرحلة أي ما قبل الكتابة تعتمد على الوثائق المادية التي ربما تصل في القدم إلى أكثر من نصف مليون السنة ومنها بقايا عظام الإنسان وبقايا الأدوات والمباني والصخور المنحوتة والرسوم. وتتصف هذه المرحلة بطولها بالقياس إلى المرحلة التاريخية التي لا يزيد طولها على خمسة آلاف السنة.

وقد بدأت هذه المرحلة في بلاد الرافدين قبل أن تبدأ في أي بلد آخر في العالم باختراع الكتابة التصويرية التي تطورت نحو الكتابة المقطعية المسمارية. ومن هنا تبرز أهمية الكشوف الأثرية في توضيح صورة بلاد الرافدين في تلك العصور القديمة.

الفصـــل الأول

الجغرافيـة التاريخيــة

١ ــ الأسمـاء والمصطلحـات الجغرافيـة

يطلق على المنطقة الممتدة في آسية الغربية وشمال شرقي إفريقية ، بين إيران شرقاً ووادي النيل وليبية غرباً اسم عام مبهم هو (الشرق الأدنى) وهو ما يطابق تقريباً اصطلاح (الشرق الأوسط) الشائع في أيامنا ، إلّا أن الأنكلو ـــ ساكسون يميلون إلى مدّ مدلول هذا الاصطلاح الأخير إلى حدود العالم الهندي .

ولا شك ان لكل من هذه التسميات مدلولاً يتفق مع الموقع الجغرافي للباحثين الغربيين ونظرتهم إلى الشرق . وهم يطلقون أيضاً اسم (الشرق الأقصى) على العالم الذي تشكل الصين محور حضارته .

وفي هذا الشرق ، الذي يشكل مشرقنا العربي أهم رقعة فيه ، وحدات جغرافية ـــ تاريخية : الأناضول في آسية الصغرى وأورارتو حول بحيرة وان وميدية جنوبي بحر قزوين وفارس في جنوب إيران . وتمتد بلاد الرافدين في الشمال الشرقي من بلاد العرب ، من جبال كردستان شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً . وتدعى المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات (ما بين النهرين) وهي ترجمة للاصطلاح الذي أطلقه المؤلفون الكلاسيكيون ، اليونانيون والرومان ، (ميزوبوتاميا) ، وهو ما دعاه الجغرافيون العرب (الجزيرة) ، التي تمتد في العراق وشمال سورية .

ويطابق اسم (بلاد الرافدين) الاسم الحديث ، العراق ، الذي يشكل مع سورية القديمة وفلسطين ووادي النيل ما دعاه برستد (الهلال الخصيب) . وقد قامت بين هذه الأقطار منذ فجر التاريخ وبدايات الحضارة صلات يمكن أن ترقى إلى العصور الحجرية أي إلى ما قبل الكتابة واستمرت خلال المراحل المتعاقبة ودون انقطاع .

أما سائر الجزيرة العربية فقد استبعدت على الأغلب من دائرة اهتمام الباحثين في حضارات الشرق القديم ؛ لأن تاريخ جزيرة العرب كان يدرس على حدة تمهيداً لدراسة تاريخ العرب في العصر الجاهلي وظهور الاسلام . ولكن الواقع هو أن التاريخ القديم للجزيرة العربية عريق عتيق . وقد أخذت التنقيبات الأثرية في مراكز متعددة من الخليج العربي وفي داخل الجزيرة العربية تكشف عن فعاليات المجتمعات العربية المعاصرة لحضارة بلاد الرافدين . فقد قامت بين سومر وديلمون صلات وثيقة منذ الألف الثالث واستمرت فيما بعد مع بابل وأشور قروناً عديدة . ولذا فإن دراسة تاريخ الرافدين تقتضي النظر في علاقاتها مع مناطق الجزيرة العربية وسائر الشرق العربي .

فهذا العالم الواسع يتميز بوجود منطقتين طبيعيتين متناقضتين فيه : الصحراء والبادية من جهة والسهول الخصبة والمروج والغابات الخضراء بين وادي الرافدين ووادي النيل من جهة أخرى . ويحيط بهذا الهلال الخصيب الذي يتوج شمالي بلاد العرب ، قوس من الجبال والهضاب المرتفعة من الشمال والشمال الغربي (أرمينية والأناضول وطوروس) ومن الشرق جبال زاغروس وهضاب إيران . وقد نشب على هذه البقعة من العالم أقسى أشكال الصراع بين مظاهر الطبيعة المتقابلة والمتكاملة بالوقت نفسه ، من صحراء وجبال ، وجفاف وخصب وبر وبحر وبداوة وحضارة ورعي وزراعة .. وبتلاقي عوامل مختلفة وبتوافر الشروط الطبيعية الضرورية والجهود الإنسانية الرائعة نشأت في مناطق متعددة من الشرق العربي القديم أقدم الحضارات الزراعية وأُقيمت نظم للري ولاستثمار الأرض دون تقليد لأي نمط معاشي سابق .. وأثر ذلك كله في كل مظاهر الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . وتقدم بلاد الرافدين نموذجاً جلياً على كل هذه المؤثرات ونتائجها .

ويتبدى تنوع هذه المؤثرات الطبيعية في التركيب السكاني وفي الإنتاج الزراعي وفي التكوين الثقافي . فقد رفدت البادية العربية ــ السورية أرض الرافدين وبخاصة وادي الفرات بأفواج متلاحقة من البدو الرحل الذين كانوا يبحثون عن أسباب الاستيطان والاستقرار منذ أقدم العصور ، وربما منذ الألف الخامس . بينما هبطت أفواج أخرى من الرعاة الجبليين من المناطق الشمالية المرتفعة في شمال بلاد الرافدين (سوبارتو) ، وهي أشور فيما بعد ، نحو المناطق السهلية في وسط البلاد وفي جنوبها . ويمكن تحديد المنطقة المتأثرة في الصحراء بحدود نمو شجرة النخيل ، بخط تقريبي يمتد من شواطئ

الخليج العربي إلى حدود زاغروس ويعبر الفرات وسورية إلى تدمر ويهبط عمّان ومعان ثم يرتفع ليبلغ أريحا في الغور وساحل المتوسط .

ويمكن أن نلاحظ الخصائص الطبيعية المحلية للمناطق المختلفة في بلاد الرافدين فبينما تتناز ع المنطقة الشمالية في الجزيرة الجبال والسهوب حيث يسود الرعي ، تمتد في الجنوب في سومر وهي (كي ــ إن ــ جي/كنجير) باللغة السومرية ، الرمال والمستنقعات في حين تنتشر السهول والأراضي الزراعية الخصبة في الوسط ، أكّد = (كي ــ أوري/ أوري بالسومرية) وهي بابل بعد أن سيطرت على الحكم الأسرة البابلية الأولى . لقد أثرت البنية الجغرافية لكل من هذه المناطق في التنظيم السياسي فيها . فكل منها كان يعدّ إقليماً له معالمه الجغرافية ومقدراته قبل أن تحتوي عليه الممالك الكبيرة والامبراطوريات الشاملة : الأشوريون والبابليون الكلدانيون والفرس .

أما نظام المياه فهو يختلف في الشمال عنه في الجنوب . فانحدار نهر الفرات يضعف اعتباراً من موقع هيت التي تبلغها مياه النهر المرتفعة في شهر حزيران قبل أن تضيع في سلسلة من الدلتات ومن المستنقعات الضحلة . أمّا دجلة الذي يدخل في المنطقة السهلية بعد سامراء بقليل حيث يلحظ ارتفاع سويته في الجنوب من شهر نيسان ولا يبدأ النهر بالتوز ع إلّا بعد كوت العمارة .

وهذا الارتفاع غير المنظم في السوية خطر وقد تنجم عنه فيضانات مدمرة (طوفان) ، والجفاف مفرط أيضاً . ولذا كان تنظيم الري ذا أهمية بالغة لتأمين المحصول .

وقد قبلت منذ مدة طويلة النظرية القائلة إنه في العصور القديمة ، كان الشاطئ الحالي مغموراً ، وللنهرين مصبان منفصلان ، وأن الخليج كان يتقدم في اليابسة بدرجة أعمق مما هو عليه اليوم . ولكن هذا الرأي هو محل خلاف اليوم إذ أن القسم الأسفل من العراق يتألف من منطقة ذات بنية قارية تلغي تأثير ارتفاع مستوى البحر وانخفاضه .

فيوجد إذن نو ع من التقابل بين الشمال والجنوب . ولكنَّ هناك نقاطاً مشتركة بين الاقليمين . فالمنطقة الجنوبية غنية بالانتاج الزراعي ، لكنها تفتقر إلى المعادن وإلى الحجر والخشب . فخشب شجرة النخيل ليس بالخشب الجيِّد للبناء ولذا كانت ضرورة الاستيراد من المناطق الجبلية المحيطة بالمنطقة السورية العربية أو من منطقة الخليج العربي أو من مصر . وهكذا نظمت التجارة ومؤسساتها في بلاد الرافدين على الصعيدين الخاص والعام . فقد نظمت دول بلاد الرافدين التجارة ومؤسساتها ورعت حركة القوافل نحو كل أقطار الشرق القديم المحيطة بها . فقامت حركة تجارية رائعة تميزت بها حضارة بلاد الرافدين في كل أدوارها : فمن إفريقية استورد العاج والذهب ومن سورية

(أمورو) خشب البناء والرخام والحجر البازلتي، والنحاس القبرصي. ومن آسية الصغرى استوردت الفضة والنحاس والحجر الكلسي ثم الحديد بعد القرن الثالث عشر وصدّرت لورستان في إيران النحاس والقصدير والخشب للبناء، وجلب الحجر الكريم المستورد من أفغانستان عن طريق عيلام. ومعظم هذه المواد كان يصل بطريق البحر، من طريق الخليج كالذهب والقصدير والنحاس (من ماجان/ عُمان) وحجر الديوريت. أمّا الحجارة الكريمة (العقيق) فقد حُملت من الجزيرة العربية، وأُتي بالعاج من الهند.

لقد تطلبت هذه التجارة إقامة علاقات دولية لحماية الحدود، ولضرورة تنظيم حركة طرق المواصلات ولحمايتها من خطر الشعوب الغازية، البدوية أو الجبلية، التي كانت تقيم على أطراف العالم المتحضر وتشكل في بعض الفترات خطراً على أمنه واستقراره.

ومن هنا نشأت ضرورة التنظيم السياسي للمجتمعات التي قامت في الشرق الأدنى القديم. وكانت مجتمعات بلاد الرافدين من أسبق مجتمعات العالم إلى تأسيس دول المدن، وفيها قامت أقدم مملكة كبرى (شروكين الأكّدي) تجاوزت حدود الهلال العربي الخصيب. ثم ظهرت في الألف الثاني ق. م السياسات الامبراطورية المتعارضة والمتصارعة في المنطقة. فتدخلت عيلام طويلاً في مقدارت جنوب بلاد الرافدين، بينما تدخلت دول الأناضول (الحوريون والحثيون) في سورية وبلاد الرافدين، ووصلت جيوش الفراعنة إلى الفرات، قبل أن يبسط ملوك أشور وبابل سيطرتهم على معظم الشرق العربي القديم طوال خمسة قرون في النصف الأول من الألف الأول ق. م.

٢ ـ فجر الحضارة في الجزيرة العليا وشمال العراق(١)

تمكن المنقبون الآثاريون من العثور على عدد من مراكز الحضارة التي قامت في شمال بلاد الرافدين، في مناطق الجزيرة العليا وشمال العراق، في عصور ما قبل التاريخ. ويعد موقع جرمو أفضل مثال على تشكيل المجتمعات القروية الأولى. ويقدّر تاريخ هذا التجمع السكني بطريقة الفحم المشع (الكربون ١٤)، بـ ٦٥٠٠. فقد عثر العالم ر. ج. بريدوود Braidwood على أسس لبيوت مضلعة الشكل. وكانت الأرض مغطاة بالحصر، والقبور بدون تقدمات. كما عثر على أشكال من الدمى الفخارية تمثل حيوانات وربة الأمومة. واكتشف المنقبون آثار حبوب من القمح والشعير والحمص والفستق، وعظام حيوانات قابلة للتدجين كالغنم والماعز والخنزير والبقر والكلاب. ويدل

(١) B.Brentjes, Von Schanidar bis Akkad, Leipzig-Berlin. 1968.

وجود قطع السَبَج وهو نوع من الحجر الزجاجي الأسود الذي يكثر في الأناضول ، على علاقات تجارية . وتعد (جرمو) نموذجاً قريباً من النموذج الممثل لثقافة تل حسونة . وهناك وجوه فخارية ساذجة وبسيطة ومنها أشكال تمثل الربة الأم على صورة سيدة جالسة وهي حامل ، وهي رمز خصوبة الأرض ، وانتشرت عبادتها في الشرق الأدنى كله . وظهرت بعدئذ مراكز حضارية متعددة خلال النصف الثاني من الألف السابع ثم بدأت تظهر نتائج تطورات تقنية في الزراعة نحو ٦٠٠٠ ق . م في أماكن مختلفة بين وادي الرافدين ووادي النيل واستقرت جماعات فلاحية بصورة نهائية على سفوح الجبال وفي السهول وعند موقع حسونة على مسافة ٤٠ كم إلى الجنوب من الموصل . ويمكن التعرف على هوية آثار ذلك العصر من الفخار الذي كان مطلياً ومحزّزاً ملوناً بالأحمر والأسود ولم تكن مواضيع التزيين فيه تمثل مشخّصات . فاستخدام الموضوعات المشخصة من خصائص فخار سامرّا ، وهي تمثل في الغالب حيوانات وأحياناً راقصات ، وقد تتحول هذه الصور إلى خطوط تجريدية لا نفهم مغزاها الحقيقي . ويتكرر في بعض الآثار شكل الصليب المعقوف الذي ربما كانت له دلالة دينية .

ومنذ نحو ٥٠٠٠ ق . م بدأت تظهر بوادر حضارة أصيلة هي حضارة **تل خلف** التي تمتد من زاغروس إلى البحر المتوسط . وقد انتشرت آثار مواقع هذه الحضارة في حوض دجلة الأعلى ثم في مثلث الخابور : تل حلف ، تل براك ، وتل شكربازار ، وقد زين الفخار بمواضيع طبيعية أو هندسية برسوم وأشكال بديعة ربما لا تجارى وتتكرر بعض المواضيع كالبطة المزدوجة ، والربة الأم . أما المستوى التقني لهذه الحضارة . فهو مستوى رفيع ، وعجينة الخزف ناعمة جداً ، ومدهونة أحياناً بدهان مصقول . والأفران التي استخدمت لصنع الخزف لا بد أن تكون ذات حرارة مرتفعة . وقد تميز الصنّاع بالبراعة والجرأة في التنفيذ . ويمكن ملاحظة ذلك في صناعة أدوات وتعاويذ من السَبَج وحجارة قاسية أخرى . ومن بعض هذه الحجارة التي زينت بالرسوم الهندسية المنقوشة صنعت الأختام لضمان حفظ ملكية الأشياء التي كانت تختم للدلالة على مصدرها . مما يدل على وجود علاقات تجارية واسعة من هضبة الأناضول إلى البحر الأدنى (الخليج العربي) . وبدأت منذ أواخر ذلك العصر صناعة المعادن وبخاصة النحاس والرصاص . وظهرت نزعة للاهتمام بالعمران . ففي (عربجية) ، وهو موقع في شمال العراق كانت الطرق مرصوفة بالحجارة الملساء . ولكن هذه الحضارة التي بدأت تعطي ثمارها توقفت بعد ذلك . فالسوية السادسة من (عربجية) تحمل آثار الهدم والنهب . وتتوقف معالم تأثير تل حلف في موقع (تبه غورا) وهو موقع آخر في شمال العراق وينتقل مركز الثقل الحضاري إلى الجنوب ، وربما رافق ذلك قادمون جدد طبعوا التطور في المراحل التالية بطابعهم .

ويمكن أن يعود إلى تلك الفترة اختلاط السكان من العناصر الأولية التي كانت تسكن مناطق الشرق الأدنى (والتي تدعى متوسطية) بعناصر أخرى تحركت من بعض مناطق الجزيرة العربية الجافة قليلة المياه نحو المناطق الخصبة وباتجاه ضفاف الأنهار وبخاصة حوض الفرات. وتدل المكتشفات الأثرية على تطور في صنع الأسلحة الحجرية. ولا بد أن القتال نشب بين الأفراد والجماعات. وقد تحقق منذ ذلك الوقت تقدم كبير في تنظيم المجتمع بقيام القرى وبإنشاء المدن وبتهيئة كل الظروف المؤدية إلى الاستقرار: تدجين الحيوانات والانتقال من الصيد إلى الرعي والزراعة.

وقد بدأت الصناعة بإنتاج الخزف وقامت المبادلات التجارية ونمت حاجات الناس واستدعت الضرورة وجود السلطة والملكية الزراعية. وسار التطور بخطى أسرع بعد استخدام الري لانتاج مقادير من المواد الغذائية تزيد على الحاجة المنزلية ولاستخدام الفائض منه بعد جمعه لإعاشة مجموعة حضرية من السكان كالصناع والكهنة والموظفين الذين كانوا يكرسون جهودهم لجوانب أخرى من جوانب الحضارة.

٣ ــ حضارة العُبيد

اعتقد كثيرون زمناً طويلاً أن الحضارة التي تعرف بحضارة العُبيد، نسبة إلى اسم هذا الموقع في جنوب العراق قرب أور القديمة هي أقدم حضارة قامت في جنوب بلاد الرافدين. إلّا أنه عثر في كيش (الأحيمر) وأور (المقيَّر) ولكشَ/لاغاش على فخار يعود إلى العصر ما قبيل السومري في السويتين الأوليين في حسوّنة. وفي قلعة حاج محمد قرب أوروك (الوركاء) عثر على بقايا فخارية قديمة تشبه ما عثر عليه في سوسه وهي أوان صنعت يدوياً وطليت بدهان أحادي اللون من البني أو البنفسجي أو الأخضر أو الأحمر. وقد عثر كذلك على تزيين محزز بموضوعات هندسية تقريباً. ويمكن تأريخ هذا الفخار بالنسبة إلى كشوف إريدو حيث تبدو في سوية أدنى من مستوى تل العبيد.

ولكن في إريدو يظهر التصنيف الأثري وجود طور سابق لطور موقع حاج محمد ويتميز بخزف وحيد التلوين برسوم هندسية. وفي السوية السادسة عشرة وجد بناء مربع الشكل بضلع طوله ثلاثة أمتار ربما يمكن عدّه مقصورة للتعبد فيها، وقد يكون نموذجاً لسلسلة من المعابد المماثلة التي تزايد حجمها مع مرور الزمن لتزايد الثروات وتنامي المهارات التقنية.

لقد تطور فن صناعة الخزف طوال العصر الحجري ــ النحاسي (٤٥٠٠ ــ ٣٠٠٠) أي إلى اختراع الكتابة. ويمكن التعرّف على انتشار الخزف وامتداد تأثير أسلوب معين في صنعه من

ملاحظة تطور أشكال النماذج المصنوعة. وقد كانت كل من مصر وبلاد الرافدين أهم مركزين لهذا التطور، ويمكن ملاحظة انتشار انتاجهما إلى المناطق المجاورة، وهو ما يدل على امتداد تأثيرهما الحضاري والسياسي.

وقد تطورت تقنيات صنع الفخار بمرور الزمن. وتعلم الإنسان كيف يستخدم الدرجة الضرورية من الحرارة، وابتدع طرقاً للتقليل من الدخان باستخدام المواقد. وحل دولاب الخزّاف محل الصناعة اليدوية التي كانت بلغت درجة عالية من التناسق والدقة. وتطورت التزيينات ولم يقتصر الصانع على التزيين بالخطوط الهندسية. فقد أدخلت تزيينات بأشكال بشرية وحيوانية وهذه الرسوم لها أهمية بالغة في تاريخ الحضارة لأنها تطلعنا على شروط حياة الإنسان وعلى البيئة المحيطة به. فالأواني التي اكتشفت في سامرّا، مثلاً، زينت بصورة الطيور والوعول وهي تعكس حياة مجتمع كان الصيد ما يزال سائداً فيه.

أما خزف العُبيد فيتصف عادة بأنه مدهون بلون كامد وحيد يميل إلى الخُضرة الفاتحة. والمواضيع التزيينية، وهي هندسية على الأغلب، هي أكبر حجماً ومرسومة بشكل أقل اتقاناً وأكثر ثباتاً مما هو في حضارة تل خلف. ونوع العجينة التي صنع منها هذا الخزف هو بصورة عامة أقل نعومة، وشواء الأدوات المصنوعة هو أقل جودة. وقد حلّ هذا الخزف محل خزف خلف. وقد يدل انتشاره الواسع من زاغروس إلى البحر المتوسط وإلى شواطئ الخليج العربي، واكتشاف آثاره في حوض الخابور والبليخ في الجزيرة على قدوم عناصر جديدة من السكان كانت أشد بأساً وأكثر قوة من سكان خلف. ويمكن أن يلاحظ أن قسماً من هذا الخزف صُنّع بالدولاب وهو أداة تساعد على إنتاج أكثر غزارة على حساب الإتقان في الصنع. ولكن صناع عصر العُبيد يبرهنون على تفوقهم على سابقيهم من حيث المقدرة على استخدام المادة وتنويع الأشكال. ويلاحظ كذلك أن حجم الأشياء غير المدهونة هو أكبر من مثيلاتها في عصر حلف. ويعتقد م. ل. مالُلوان بأن هذا هو من دلائل التقدم في التعدين. فقد عرفوا صبَّ المعدن الذي كان نادراً بعد، في قوالب مما أدّى إلى تطور السلاح والأدوات. وإذا عرفنا أن القوالب من الآجر كانت منتشرة آنذاك، يمكن الاستنتاج بأن عصر العُبيد كان متميزاً بسلسلة من الاكتشافات الهامة، وهو ما يفسر هذا الانتشار السريع الذي لاقته تلك الحضارة في المناطق الشمالية. ويحتمل أن تكون حضارة جنوب بلاد الرافدين هي من صنع عناصر كانت تسكن على شاطئ الخليج العربي وسواحل جزيرة العرب، ثم عملت على تحسين طرق صناعتها اليدوية. وفي هذه الحالة يمكن القول إن سكان إريدو ربما كانوا قد جاؤوا من الشمال حيث كانت تسود حضارة سامرّا وخلف التي تختلف جذرياً عن حضارة العُبيد. ويلاحظ

علماء الآثار وجود تشابه كبير بين ملامح حضارات جنوب العراق وحضارة سوسه في عيلام مما يدعو إلى الظن بوجود بدايات مشتركة .

ومما تجب الإشارة إليه هو انتشار السكان الجنوبيين في مناطق الجزيرة . وإن اتساع مدى هذه الظاهرة يتفق بشكل بيِّن مع تزايد سكاني لا بد أن سببه كان ارتفاعاً في مستوى المعيشة ويدل على ذلك التوسع المستمر في معبد إريدو .

فمعبد السوية السادسة في هذه المدينة يبلغ طوله ٢٣ متراً وعرضه ١٢ متراً . وهو يرتفع على مصطبة من ٢٦ متراً طولاً و ١٦ متراً عرضاً . وهذا المعبد يمثل المخطط الذي أضحى نموذجاً كلاسيكياً للمعابد في العصر السومري . فالقاعة الكبرى الطولانية المركزية كانت مجهزة بمذبح وبمائدة للتقدمات . وقد شوهدت مجموعات بنائية مماثلة في (غورا) حيث وجدت ثلاثة معابد حول ساحة .

وليس معنى ذلك أن معالم تأثير حضارة خلف اختفت دفعة واحدة فتأثيرها بقي طويلاً قبل أن يزول أمام النموذج الخاص بحضارة العُبيد . وآثاره بقيت في نوزي (كركوك) وفي حسونة وفي تل خلف نفسها وفي شكربازار . وفي سفوح طوروس وفي غربي إيران ، وهذا هو أوسع انتشار لحضارة بلاد الرافدين قبل العصر الأشوري (الألف الأول ق . م) .

إن الرخاء النسبي الذي نعمت به الجماعات الأولى التي سكنت أرض الرافدين ، ويبدو في النهضة العمرانية التي تبدت في تشييد المعابد والأوابد ، ربما كان سببه استثمار أراضي الدلتا ، وبفضل المباشرة باستخدام نظام للري بالقنوات طوّره السومريون فيما بعد . إن استمرار ظهور أدوات من الحجر أو من الفخار يدل على استمرار الصناعة التقليدية ، ولكن ربما كان سبب الإنجازات الضخمة ظهور الأدوات المصنوعة من النحاس . أما العلاقات التجارية فقد ازدهرت ما بين أرمينية والجزيرة العربية التي كان سكانها يتصلون بها بحراً بمراكب طويلة وجد نموذج منها في مقابر أور .

وفي عصر العُبيد كان المَعْلم العمراني البارز هو المعبد الضخم ، الذي يدل على تجمع زراعي كبير ويستدل من هذه الملاحظات التي يقدمها لنا علم الآثار أن نظام الإقطاعية التي تخضع لسيد له صفة كهنوتية كما نعرفه على النمط السومري يبدأ منذ ذلك الوقت . ويمكن التخمين أن المعبد كان مستودعاً للفائض من الإنتاج وكان يستخدم كذلك كمركز للتحويل وللتوزيع . ويمكن الاستنتاج أن الكهنة الذين كانوا يتولون الإشراف على المعابد كانوا قد أحرزوا وضعاً ممتازاً ضمن المجتمع الذي كانوا ينتمون إليه ولا نعرف شيئاً عن العقائد التي كانت سائدة آنذاك ، ولكن يمكن

الظن أن بعض عناصر المعبد السومري كانت قد عُبدت في المراكز التي أصبحت فيما بعد المراكز الرئيسة لعبادتها . فعبادة إله الماء استمر في إريدو ، ووجد على إناء في أور رمز للإله القمر . وإنه من الصعب تفسير الدمى برأس أفعوان وهي تشيل طفلاً بيديها . ولعل ذلك كان نوعاً من التعبير السحري . أما الأثاث الجنزي الذي وجد في مقبرة إريدو حيث كانت تتمدد أكثر من ألف جثة في صناديق من الآجر فربما يدل على شكل من أشكال الاعتقاد بالعالم الآخر .

لقد أثّرت حضارة العُبيد في نشوء حضارة عيلام في حوض نهر قارون على الضفة الشمالية الشرقية من الخليج العربي . وأضحت اسماً لحضارة انتشرت على نطاق واسع . واشتهرت سوسة (عيلام) بخزفها المدهون وبرسوم مأخوذة عن الطبيعة . ولا يدرى مصدر هذه الحضارة التي انتشرت في جنوب بلاد الرافدين في ذلك العصر . إلّا أنه يلاحظ نشوء بذور الحضارة في وادي النيل (حضارة البداري والعَمري) ، والحضارة الغسّولية في فلسطين . وفي رأس شمرة وألالاخ في شمال سورية وفي أماكن أخرى ، على أنه من المحتمل أيضاً تلقي المنطقة لمؤثرات من مناطق بعيدة في وسط آسية (تركستان) ، التي كانت منطلق هجرات إلى الصين شرقاً وإلى الشرق العربي غرباً . على أن الكشف عن جذور هذه المرحلة رهين بنتائج الكشوف الأثرية التي ما تزال جارية في مواقع أثرية كثيرة من الشرق الأدنى القديم .

وعندما يقترب عصر العُبيد من نهايته يكون الشرق العربي قد شارف على بداية العصور التاريخية التي كانت قد ظهرت تباشيرها في بلاد الرافدين مع بدايات اختراع الكتابة في أواخر الألف الرابع ومطلع الألف الثالث .

الفصـــل الـثـانــي

مصــادر تاريــخ بلاد الـرافـديـن

التنقيبــات الأثـريــة ونتـائجهــا

يمكن تشبيه ما طرأ على معارفنا منذ بضع عشرات من السنين فيما يتعلق بالشرق الأدنى القديم بما حدث في أوربة في مرحلة من مراحل عصر النهضة عندما اكتشف الغرب الأسس الكلاسيكية (الاغريقية ـــ الرومانية) للحضارة الأوربية. وفيما أدّت جهود العلماء الأوربيين في مطلع القرن التاسع عشر إلى حل رموز النقوش الهيروغليفية وتفسير الكتابة المصرية ومعرفة أسرار حضارة وادي النيل في عصر الفراعنة، فقد كان أهم عمل علمي في البحث عن أسرار حضارة بلاد الرافدين القديمة تفسير الكتابة (المسمارية) بعد قراءة الكتابة الفارسية المسمارية المستخدمة في العصر الأخميني، وذلك بجهود عدد من علماء اللغات الشرقية في المجامع الأوربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وعلى الرغم مما كان يملكه الغرب الاستعماري من قوة دولية أخضعت بلاد الشرق ومنها بعض أقطار الشرق العربي لهيمنتها، فإن معظم علماء الغرب يتفقون على أن الحضارة الغربية هي نتيجة تطور الاختراعات والاكتشافات التي كان أساسها في الشرق القديم، وأن بلاد الشرق العربي القديم (بلاد الرافدين والشام ومصر) كانت السباقة إلى المدنية. وأن شعوب هذه الأقطار، فكّرت وعملت وتركت آثاراً دائمة كانت أساساً للبناء الذي ورثه الغرب. لذلك اهتمت المؤسسات العلمية في الغرب بضرورة البدء بدراسة آثار الحضارات الشرقية لكي تتمكن من التعرف على الحضارات التي عرفتها أوربة قبل منتصف الألف الأول ق.م (حضارة الاتروسكيين واليونان والرومان). فقد أتى الشرق بأمور أساسية عديدة، ففيه نشأت الزراعة والتجارة ومنه انتشر استخدام

الخيل، واخترع الدولاب وصنعت العجلات وسكت النقود وسجلت الحوالات ونشأت الحرف والصناعات، وسنت القوانين وأسست الحكومات ووضعت أسس الرياضيات وعلوم الطب والهندسة والفلك وظهرت فكرة التوحيد ونظم التقويم وأبدعت الأبجدية وتطورت الكتابة وأدواتها، وصنفت الكتب ونظمت المكتبات وشيدت المدارس والمعابد، وأُلّفت في الأدب الأعمال الخالدة. وأوجدت في الشرق أقدم الأدوات الموسيقية وأبدعت أيدي الفنانين القديرين البارعين أجمل النحوت والمباني والأواني الخزفية والأثاث الخشبي وأدوات الزينة والحلي من المعادن الثمينة والحجارة الكريمة. وقد انتقلت هذه المنتجات الحضارية إلى الغرب بطريق كريت واليونان وروما، فالآريون أو الهنود الأوربيون لم يؤسسوا الحضارة وإنما نقلوها. وكان الإغريق ورثة ثلاثة آلاف سنة من التقدم في مختلف مظاهر الحضارة، انتقلت إليهم بطريق التجارة والحرب، عندما بدأوا يدرجون في مضمار الحضارة. ولذا فحقيق بنا أن نقول إن الحضارات القديمة التي كشف عنها في بلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم هي من تراث الانسانية وهي تمثل بالنسبة لتاريخ الوطن العربي القديم وبخاصة على صعيد اللغة والثقافة مرحلة الأصول والجذور، فخليق بنا أن نُعنى بها وأن نتعرف عليها إذا شئنا التعرف على أنفسنا. وقد كان البحث في هذه الحضارات إلى وقت قريب مدار اهتمام الأوساط العلمية في بعض دول أورية والولايات المتحدة الأمريكية وحدها قبل أن توجّه الجامعات والمؤسسات العلمية العربية اهتمامها لدراسة هذه الحضارات عندما استردت الدول العربية حريتها واستقلالها بعد الحرب العالمية الثانية.

١ ـــ اكتشاف حضارة بلاد الرافدين

عندما نهضت الحضارة الكلاسيكية على الشواطئ الشمالية لحوض البحر المتوسط في العالم الهليني وشبه جزيرة إيطالية، كانت حضارة الشرق العربي القديم في طريقها نحو التدهور والانهيار سياسياً وحضارياً. وعندما ازدهر الأدبان الاغريقي واللاتيني كانت قد مضت آلاف السنين من عمر حضارات المشرق. ولذا فإن المؤرخين والجغرافيين والكتّاب الذين كتبوا بالاغريقية واللاتينية لم يعرفوا من تاريخ مصر وبابل سوى رجع أصداء متأخرة وصورة الحالة الراهنة كما عرفوها زمن الحروب الميدية (الحروب الفارسية ـــ اليونانية) أو في زمن الاسكندر وخلفائه، وبعد ذلك في الصراع بين رومة وقرطاجة، وعند توسع الامبراطورية في شمال إفريقية ثم في الشرق الهلنستي.

أما كُتّاب الأسفار التاريخية من (العهد القديم)، فقد ذكروا بعض أخبار فراعنة مصر وملوك أشور وآرام وبابل، واستخدموا مصادر كانت معروفة على عهدهم، وكانوا، هم، شهوداً على أحداث عاصروا بعضها بأنفسهم، لكنهم لم يقدّموا لنا في كتبهم صورة موضوعية تعكس بجلاء ما أنجزته حضارة المشرق القديم فكرياً ومادياً. ولم يكن يعنيهم سوى التأكيد على مفهوم الدور الإلّهي في مجرى

التاريخ، وكأنه دور مسخّر لخدمة (الشعب المختار) وحده. وهكذا فُسِّر ما أصاب الفراعنة وسقوط أشور وبابل بأنه أمثلة على العدالة الإلّهية. إن هذه الطريقة من عرض التاريخ وتفسيره لا يمكن أن تجعل من أسفار التوراة مرجعاً نهائياً معاصراً لتاريخ المنطقة القديم. ولذا فإن كثيراً مما ورد فيه كان موضوع مراجعة وتحقيق في ضوء مستجدات البحث الأثري والدراسات اللغوية والتاريخية المقارنة. أما الكتّاب البابليون والأشوريون فلم يتركوا كما فعل الكتاب اليونان والرومان كتباً في التاريخ ولا نعرف سوى اسم بروسوس المؤرخ الكاهن البابلي، من العصر السلوقي (القرن الثالث ق.م)، الذي لم يبق من كتابه الذي ألّفه عن بابل باللغة الاغريقية إلّا نتف قليلة.

لم يبدأ الاهتمام في الغرب بماضي الشرق القديم وبابل خاصة إلّا منذ العصور الوسطى مع قدوم أفراد إلى الشرق مع الحملات الصليبية، فعاد ذكر مدينة بابل، وبرج بابل في الكتابات والمؤلفات، بالاستناد إلى ما جاء في سفر التكوين (١١: ١ ــ ٩) عن إنشاء المدينة بعد (الطوفان) لتكون بلداً لشعب واحد ولسان واحد. ولكن (من هناك بدّدهم الربّ على وجه كل الأرض). وهكذا كانت تنقل من الأسفار التوراتية أخبار مروية متواترة تخدم توجه التعليم الديني لأحبار اليهود دون أي احتفال بالنظر والتحقيق والتدقيق للوصول إلى الحقيقة العلمية الموضوعية.

وكان الايطالي بترو دلا فالّي (١٦١٦) قد حمل إلى أوربا من موقعي بابل وأور أختاماً اسطوانية عليها نقوش وكتابة. إلّا أن الاهتمام الفعلي بحضارات الشرق الأدنى لم يبدأ في الأوساط العلمية في الدول الأوربية الناهضة، إلّا منذ القرن السابع عشر عندما بدأت بقايا آثار العاصمة الفارسية القديمة من أبواب ورسوم ونقوش ونحوت وأعمدة في موقع تختي جمشيد (برسبوليس عند اليونان) تجذب اهتمام الرحّالة الأوربيين. وعندما حُملت نماذج من النصوص والكتابات التي جمعت على أيدي بعض الباحثين المستطلعين في المنطقة إلى الأكاديميات والمجامع العلمية لدراستها أطلقت عليها تسمية تناسب شكلها الظاهر «الكتابة المسمارية» الشبيه بالمسامير أو الأسافين وهو تعبير يترجم المصطلح اللاتيني «Dactuli Cuneiformes»، وهو الاسم الذي عرفت به بعد ذلك كتابات بلاد الرافدين وعدد من الكتابات الأخرى في الشرق الأدنى القديم ما بين بداية الألف الثالث ق.م وبداية القرن الأول الميلادي.

٢ ــ الاستطلاعات الاستكشافية الأولى في بلاد الرافدين

بدت ضرورة القيام بعمليات سبر واستكشاف للمواقع الأثرية بالوقت نفسه الذي كانت تتقدم فيه الدراسات اللغوية للتعرف على أسرار اللغات القديمة في المنطقة. وحتى أواسط القرن

التاسع عشر كان الرحّالون الأوربيون يكتفون بالتعرف على ما يجدونه على سطح الأرض وسفوح التلال من آثار العصور الغابرة ويجمعون ما يمكن جمعه من الأشياء والرقم. وكان الحديث عن تلك التلال وآثارها يتردد في الغرب منذ رحلة الاسباني بنيامين الطليطلي (القرن الثاني عشر م)، ثم رحلة النبيل الايطالي بترو دلّا فالّي، والفرنسي تكسييه في القرن السابع عشر.

وقد قام هؤلاء المستطلعون الأولون بوصف المواقع الأثرية، والآثار الظاهرة وصفاً جغرافياً وطوبوغرافياً ومعمارياً، مما مهدّ السبيل أمام مغامرين آخرين. فقد تحقق بعد ذلك عمل كبير كان له تأثير كبير على تطور الجهود للكشف عن حضارة بلاد الرافدين ودراستها برحلة ك. نيبور C.Niebuhr الذي يعزى إليه الفضل في نسخ نقوش من برسبوليس وتقديم أول وصف مفصل لموقع نينوى على أثر الرحلة العلمية التي قام بها إلى بلاد الشرق الأدنى من ١٧٦١ ــ ١٧٦٧، برعاية ملك الدانمرك مع بعثة لم يبق من أفرادها على قيد الحياة سواه. وقدّم عن رحلته إلى الشرق تقريره الذي أثار الاهتمام في الأوساط الأكاديمية وترجم من الألمانية إلى عدد من اللغات الأوربية. وتلاه عالم النبات ميشو A.Michaud الذي زار موقع بابل وحمل معه حجراً عليه نص مسماري بابلي هو «حجر ميشو» الذي أسرع الدارسون إلى العناية به وتقديم قراءة له ليس لها الآن أي اعتبار علمي. ثم جاء دور الأب ج بوشامب J.de Beauchamp الذي زار بابل وكتب عنها، وكان أول من عرف أهمية الكتابات التي عثر عليها في المنطقة في أواخر القرن الثامن عشر وهويتها.

أما في بداية القرن التاسع عشر فقد اتخذت حركة الاستكشافات شكلاً أكثر علمية فقد تقدم عدد من الرحالة البريطانيين إلى المجامع العلمية بتقارير كانت لها أصداء واسعة وأثارت ضجة كبيرة واهتماماً كبيراً بآثار الشرق الأدنى وحضاراته القديمة. وتزايد بعدئذ عدد القادمين إلى البلاد للمشاركة في البحث عن حضارة بلاد الرافدين منذ ١٨٢٠ وقام ف. ر. شيني F.R.Cheney برحلة نهرية على مركب في نهر الفرات عام ١٨٣٦ وعاد بكمية من الوثائق والآثار الهامة، التي شجعت على القيام بالخطوات التالية.

٣ ــ اكتشاف الحضارة الأشورية

في عام ١٨٤٠ استطاع الانكليزي رولنصون التعرف على الجزء الأكبر من الأبجدية الفارسية المسمارية القديمة (من العصر الأخميني) والتي كانت قد أصبحت كتابة مجهولة وأضحت الضرورة ماسة للبدء بالحفريات في التلال الأثرية نفسها. وقد افتتح بوتا P.E.Botta، وهو القنصل الفرنسي في الموصل، بدعم حكومته الرسمي والمالي عام ١٨٤٢ في كويونجك (نينوى) في شمال العراق أول

ميدان للتنقيب لكن النتائج الأولية بدت تافهة . ثم انتقل إلى موقع آخر ، خورسباد ، على مسافة ١٦ كم إلى الشمال الشرقي من الموصل . وعلى الرغم من التردد والحذر اللذين عرف بهما بوتا فقد توصل أخيراً إلى اكتشاف آثار معمارية ونحوت فنية هامة عام ١٨٤٤ ، عمل على استخراجها وحملها إلى باريس لتزيين متحف اللوفر بكشوفه بعد أن أغلق الموقع معتقداً بأنه اكتشف ما سمّاه (القصر) بكامله . لكن الحقيقة هي أن ما تم اكتشافه ليس إلّا الزاوية الشمالية الغربية من مجمع عمراني أوسع بكثير . والمهم هو أن نتيجة كبيرة تحققت وهي اكتشاف الحضارة الأشورية ولم تلبث بعثات التنقيب أن أسرعت في القدوم إلى أرض العراق .

وقد رافق وصول أوستن لايارد Layard إلى موقع نمرود عام ١٨٤٥ تنافس عنيف بين الانكليز والفرنسيين للحصول على امتيازات من الحكومة العثمانية للتنقيب عن الآثار ونقلها إلى متاحف البلدين . وبدا هذا التنافس بين الدولتين الأوربيتين في هذا الميدان العلمي الأثري جانباً من التنافس الدبلوماسي للصراع على النفوذ الاستعماري لتوسيع امبراطوريتهما وخطوط مواصلاتهما في بلاد الشرق . فقد حدث في عام ١٨٥٣ أن الفرنسيين كانوا ينقبون في موقع نينوى ، العاصمة الأشورية ، بينما كان هرمز رسّام وهو عراقي كلداني يتولى التنقيب في الموقع نفسه لحساب الانكليز . وقد كان الحدث مواجهة في ميدان الآثار والبحث عن الحضارات القديمة ويشبه فاشودا صغيرة ، تذكر بتلك المواجهة العسكرية الحادة التي وقعت بعدئذ عام ١٨٩٨ بين قوات الدولتين فرنسة وبريطانيا في جنوب السودان حيث اضطر الملازم الفرنسي مارشان إلى الانسحاب من موقعه أمام القائد البريطاني كتشنر . والمثير في الأمر هو ان ذلك التنافس الاستعماري بين الطرفين اتسع ليشمل ميدان البحث العلمي ، وانعكس على أسلوب العمل وأدى إلى إفراغ التلال من الآثار التي كانت تضمها .

ولكن ما هي النتائج العلمية التي أمكن التوصل إليها آنذاك ؟ يمكن القول إنه على الرغم من الظروف السلبية الكثيرة التي أحاطت بالمراحل الأولية للتنقيب في بلاد الرافدين فقد تحققت نتائج هامة أهمها : اكتشاف قصر شروكين (صرغون) الثاني ملك أشور (القرن السابع ق . م) في دور شروكين (خرصباد الآن) بينما أدّت جهود لايارد ورسّام و و . ك . لُفتوس W.K.Loftus إلى اكتشاف قصر أشور بانيبال ملك أشور (القرن السابع أيضاً) في نينوى ، ومكتبة الملك الأشوري التي تضم عدة آلاف من الألواح الطينية المنقوشة بالكتابات المسمارية .

وكان لفتوس قبل أن يتولى قيادة البعثة البريطانية في نينوى قد أجرى تنقيبات في جنوبي العراق

في الوركاء (أوروك) ثم في موقع سنقرة المجاور وتمكن من تحديد هويته وهو لارسا . أما تيلور J.E.Taylor فقد اكتشف في المقيَّر آثار أور ، وفي أبو شهرين آثار إريدو .

وبتقييم هذه النتائج الغزيرة يمكن القول إنها فاقت كل ما كان منتظراً إلى حد شعر معه الباحثون بضرورة التريث لكي يتسنى للدارسين معاينة المكتشفات الأثرية واستيعاب أهميتها . وهكذا تباطأت أعمال التنقيب اعتباراً من عام ١٨٥٥ ولكن العلماء عكفوا على دراسة الوثائق والنصوص في المجامع العلمية والمعاهد الأكاديمية المختصة . وفي تلك الفترة من التأمل كان قد توصل جروتفند (جامعة غوتنغن في ألمانيا) إلى قراءة عدد من الإشارات المسمارية إلى أن نجح رولنصون عام ١٨٥١ بعد جهد كبير في تحقيق خطوة حاسمة عندما تمكن من قراءة نص منقوش على جرف صخري بهستون (في شمال إيران) بعدد من لغات الامبراطورية تخليداً لانتصارات داريوس ، وهي الفارسية والبابلية والعيلامية .

واستطاع رولنصون تعيين قيمة ٢٤٦ علامة مسمارية وكشف عن مبدأ تعدد الأصوات ، أو وجود علامات مسمارية لكل منها عدة قيم أو معانٍ وعدة أصوات . وتحقق هِنكس Hincks من أن بعض العلامات تكون مقاطع مركبة ، وكلما تعمق البحث في حل رموز هذه الكتابة وعلاماتها ازداد أمرها تعقيداً بتعدد التوجهات غير المتناسقة في عدد من العواصم الغربية . عندئذ رأت الجمعية العلمية الأسيوية في لندن أن تقترح على عدد من العلماء المهتمين بالموضوع أن يحل كل منهم على طريقته الخاصة رموز نص تزيد سطوره على الثمانمئة ولم يسبق لأحد قراءته من قبل . وأرسل رولنصون من انكلترة ، وهِنكس من أيرلندة وتالبوت من اسكتلندة وأوبر من باريس مخطوطاتهم ففتحت في ٢٥ أيار ١٨٥٧ . وكانت النتيجة مرضية تماماً بعد أن جرت مطابقة ترجمات النص الذي تبيّن أنه يتحدث عن أعمال ملك أشور تكلات بلاصّر الأول وفتوحاته .

وأصبح من المؤكد العثور على مفتاح الكتابة المسمارية التي كان قد توقف استخدامها في القرن الأول الميلادي بعد أن ظلت نظام الكتابة السائدة في بلاد الرافدين والشرق الأدنى مدة ثلاثة آلاف عام . وبعد هذا يمكن القول إنه بهذا الانجاز العلمي الهام الذي جاء بعد نحو خمسة وثلاثين عاماً على تفسير الكتابة المصرية الهيروغليفية على يدي شامبوليون (١٨٢٢) ، أسس علم جديد ، **هو علم الدراسات الأشورية** Assyriologie الذي لا يقتصر على الاهتمام بالحضارة الأشورية ووثائقها بل يهتم بدراسة حضارات الشعوب التي استخدمت النظام المسماري لكتابة لغاتها . وهو ما يدعى أيضاً (أكاديكا = Akkadika) . اكتشف جورج سميث G.Smith في تلك الفترة من التأمل كسرة

تحمل نصاً أشورياً من نينوى يتضمن مقطعاً من قصة الطوفان الرافدية وجد أنه يتطابق في نقاط كثيرة مع ما ورد في أسفار التوراة/التكوين، عن الطوفان. وقد أعلن سميث في تقريره الذي قدمه عام ١٨٧٢ إلى الاكاديمية البريطانية: «إنني أول انسان يقرأ هذا النص بعد ألفي عام..» وقد هنأه رولنصون بنفسه. وبلغ التأثر أقصاه إلى حد اقرار الاعتمادات المالية السريعة لتنظيم حملات تنقيب جديدة لكن الموت المفاجئ عاجل العالم الشاب عام ١٨٧٦. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد أسفار التوراة والإلياذة هوميروس أقدم الآثار الأدبية المعروفة.

وظهرت تطلعات جديدة لدراسات في التاريخ المقارن للأديان والآداب واللغات القديمة. وآلت قيادة الحفريات والتنقيبات إلى هرمز رسّام الذي راح ينبش الأرض بتسرع وعشوائية في خمسة عشر موضعاً خلال سنتين، دون مراعاة لضرورة المحافظة على هيكل الموقع الأثري ومواصفاته الأساسية الثابتة بصورة تبقي عليه شاهداً للأجيال التالية من الدارسين لتعينهم على المتابعة والبحث وتحفظ للبلاد معالم تراثها العريق.

ومما يؤسف له أنه لم تتبع آنذاك أية طريقة منهجية يراعى فيها تعاقب الطبقات الأثرية المنضدة فوق بعضها بعضاً لمعرفة تسلسلها الزمني الطبقي (Stratigraphie). وكان هم المنقبين الحصول على الآثار بأي شكل بحفر أنفاق في قاعدة الجدران دون دراسة الطبقات العليا بطريقة نظامية ومنهجية. إلّا أن الممارسة العملية والتجربة الفعلية في ميدان التنقيب وما تلا ذلك من دراسات ومناقشات وأبحاث، ذلك كلّه أدّى إلى تحسين الطرق والمناهج المتبعة في التنقيب لتمييز السويات المختلفة المناسبة للمراحل التي شغلت فيها الأجيال المتعاقبة المكان. وإن لهذا التمييز أهمية كبيرة من وجهة النظر التاريخية، حتى ولو كانت بعض الطبقات المسبورة عقيمة. وإن معرفة تلك الطبقات وخصائصها مفيدة جداً لتأريخ الأدوار المتعاقبة.

ومما أمكن ملاحظته في تلك المرحلة التنبه إلى نوعية الكسرات الفخارية التي يعثر عليها وأساليبها المختلفة وعندئذ يمكن تعيين مراكزها الرئيسة، ومدى انتشارها بإجراء دراسات مقارنة تتيح المجال لوضع جداول تأريخية زمنية مقارنة. وإنه بالاستناد إلى هذه الجداول تمكن المختصون بعد ذلك من كتابة شيء عن تاريخ تلك العصور العتيقة. ولكن من سوء الحظ أن أهم مراكز الحضارات القديمة في بلاد الرافدين كانت فريسة المحاولات العشوائية الأولى في التنقيب مما أدى إلى تخريب المواقع الأثرية وإلى تعطيل الاستفادة منها الفائدة المرجوة. إلّا أن التنقيب الأثري لم يكن نزهة ممتعة في تلك الظروف التي كان فيها حبل الأمن مقطوعاً في تلك المناطق المضطربة من الدولة العثمانية المتداعية. وكثيراً ما حدث صدام بين الأهالي والمنقبين من نهابي الآثار كالذي حدث عام ١٨٥٥ عند موقع

القرنة عندما جرى تصادم أدّى إلى إغراق حمولة العوّامات التي كان يقودها رئيس بعثة التنقيب الفرنسي بلاس Place ولم ينج من ٢٣٥ صندوقاً إلّا ٢٦ صندوقاً فقط أما الباقي فقد غاص إلى قعر نهر دجلة ليضيع إلى الأبد .

٤ ـــ اكتشاف الحضارة السومرية

ومع ذلك فإن نائب قنصل فرنسة في البصرة إتيين دو سارزك E.de Sarzec قام في عام ١٨٧٧ بتنظيم حملة تنقيبات بحثاً عن الآثار في موقع تلّو القريب من شط الحي في جنوب العراق ، وحقق نتائج هامة . فقد استطاع استخراج عدد من التماثيل تتميز بأسلوب مختلف تماماً عما كان عثر عليه في المواقع الأثرية الأشورية في شمال العراق كما اكتشف ألواحاً ورقماً مكتوبة لا تماثل في ظاهر الأمر الخط الأشوري .

وكانت الآثار التي عثر عليها ونماذج الفن الأشوري والوثائق الأشورية ، كل ذلك كان قد أثار موجة من الجدل الحاد حول قدم الحضارة الأشورية وأصالتها وعلاقتها بالحضارات الأخرى . وكان الرأي الشائع هو أنها تمثل مرحلة لا تعرف سابقتها .

وبدت الكتابة الأشورية مثلاً بنظامها الذي يشتمل على مجموعة من الرموز المعقدة وكأنها تمثل متطلبات لغة غير سامية . وقد أدرك ذلك جول أوبّر منذ وقت مبكر بحدسه المرهف فأعلن مؤكداً في عام ١٨٧٣ أن تلك العلامات الرمزية في الكتابة الأشورية هي المرتسم الباقي للغة شعب مجهول أقدم من أشور ترك أثره في ثقافة أشور وكتابتها وفي خطوط الشعوب التي مرّت في حضارات بلاد الرافدين . ألمْ يدعُ ملوك بابل أنفسهم ملوك سومر وأكّد ؟ أفليس من المرجح أن يكون السومريون وهم الشعب الأقدم هم الذين اخترعوا نظام الكتابة المسمارية ، وأن يكون الأكديون هم الذين ورثوه وتبنوه وطوّروه ؟ وعرض هاليفي فرضية مناقضة مفادها أن الكتابة الأشورية كتابة أصيلة وأن العلامات الفكرية فيها ليست من أثر كتابة سابقة عليها بل إنها نظام للكتابة مواز لنظام الكتابة الأشورية نفسها . وبينما كانت المشادة على أشدها بين الرأيين فاجأ سارزك الأوساط العلمية بكشوفه الأثرية الباهرة في جنوب العراق في تلّو/لكش إحدى العواصم السومرية . مما قدّم دعماً حاسماً لنظرية أوبّر وأسقط نظرية هاليفي .

وهكذا أتى الشاهد المادي الأثري حجة دامغة لإثبات حقيقة تاريخية . وأضحت بعض معالم الحضارة السومرية حقيقة ماثلة ، فتماثيل الأمير الرصين غوديا ، وعواهل آخرين مثل أورنانشه ، وإياناتوم وأنتمينا واوروانيمجينا = (أوروكاجينا) من الألف الثالث نقلت إلى واجهات المتاحف

العالمية وكذلك المعالم التذكارية مثل نصب الصقور وعلى هذه الآثار كتابات ونصوص يبدو أنها ليست كتابة (سامية) وإنما هي كتابة ذات منطلق تصويري وأن الكتابة الأشورية التي سبق اكتشافها في الشمال كانت تبدو كأنها مقتبسة منها . وعندما توفي سارزك عام ١٩٠١ كانت نتائج التنقيبات التي قادها في جنوب الرافدين قد بدّلت من الأساس الصورة التاريخية المعلومة عن الشرق الأدنى القديم .

٥ ــ نتائج التنقيبات الأثرية في بلاد الرافدين حتى نهاية القرن التاسع عشر

عند اكتشاف الحضارات القديمة في بلاد الرافدين : سومر وأشور كانت ظلال ما قبل التاريخ قد تراجعت إلى ما وراء الألف الثالث ق . م ، وأخذت الصورة التي يمكن إعادة رسمها للماضي تزداد وضوحاً . واتسع ميدان البحث منذ امتلاك أدوات البحث ، وأضحت قراءة النصوص ميسورة بعد فك رموز نظام الكتابة المسمارية ، ووضع نواة المؤلفات اللغوية والمعاجم . فقد أنجز كارل بتسولد Bezold فهرس ألواح كويونجك/نينوى المحفوظة في المتحف البريطاني . وتابعت إدارة المتحف نشر نصوص الوثائق في مجموعات بدأتها بالمجلدات الخمسة الأساسية الأولى وهي من صنعة رولنصون و ج . سميث وغيرها . ثم ظهر أول قاموس يرجع إليه في الوثائق المسمارية من تأليف فرانتز دليتش Delitzssch في العام ١٨٩٦ . وتوالى نشر الدراسات التاريخية واللغوية والدينية في المجلات المتخصصة التي كانت أُسست آنذاك مثل دورية الأشوريات (بالألمانية) ومجلة الأشوريات (بالفرنسية) .

وقد تقدمت الدراسات اللغوية المقارنة تقدماً محسوساً لكن عمليات التنقيب عن الآثار كانت تنقصها التقنية العلمية . ولم يكن أسلوب سارزك قدوة تحتذي وكذلك أسلوب الأمريكيين الذين افتتحوا نشاطهم الأثري في المنطقة في موقع نيبور = نفرّ عام ١٨٨٩ . على أن هذا النقص الفاضح في الطريقة واجه مزيداً من النقد وظهرت جهود لتعديلها بإجراء مسح هندسي واضح للمنطقة التي يجري فيها التنقيب ، وتتبع تطبق الطبقات الأثرية عبر العصور بصورة تسمح بتعيين دقيق لمكان اكتشاف الأشياء الأثرية مما يساعد على تأريخها وتعيين أهميتها بالقياس إلى العصر الذي تنسب إليه

لقد بُدئ بهذا التغيير في الطريقة على أيدي العلماء الألمان الذين تولوا التنقيب في موقعي بابل وأشور . وقد قام بالتنقيب في موقع بابل العاصمة التاريخية القديمة كولدوي Koldewey وعمل أندريه W.Andrae في موقع قلعة شرقاط (أشور) . وكان كلاهما مؤسسي الطريقة الحديثة في التنقيب الأثري وذلك بتكوين مخطط يضم مجموع بقايا الآثار المعمارية التي يتم اكتشافها . وتعدّ مؤلفاتهما ، وحتى الآن ، من الأهمية بمكان لدراسة كل من بابل وأشور . وإنه لمن المؤسف أن بابل العظيمة لم

تخلف للأجيال الحاضرة إلّا أشياء قليلة من آثار عظمتها الغابرة . فقد أتلفت الفيضانات عبر العصور أجزاء كبيرة من تراث الماضي العريق . أما عاصمة الامبراطورية الأشورية فإنه عدا ما كشف عنه فيها من آثار معمارية أخرجت منها إلى النور آلاف الألواح المكتوبة التي أطلعتنا على معلومات قيمة وهامة عن حضارة بلاد الرافدين في العصر الأشوري .

لقد أثارت الكشوف التي تحدثنا عنها مزيداً من الاهتمام لدى الباحثين والمفكرين في الغرب كما أثارته من قبل الكشوف الجغرافية في العالم الجديد وفي طرق المواصلات العالمية البحرية إلى الهند والشرق الأقصى . وكما تثير اليوم فتوحات الفضاء من تفكير في الكون وموقع الإنسان ووجوده فيه . وتزايد في معاهد الغرب وجامعاته عدد المترددين على الدروس والمحاضرات المختصة بالدراسات الشرقية وطرحت تساؤلات ونشرت مقالات حول أسرار الأهرام والسحرة الكلدانيين الذين ورد ذكرهم في سفر دانيال من العهد القديم . ومن المثير للاستغراب الآن أن نجد أصحاب أسماء لامعة من بعض مؤسسي الدراسات الرافدية طرحوا في حينه أفكاراً ضبابية وظفوا فيها نتائج التنقيبات والكشوف الأثرية لخدمة التعاليم التوراتية مثل فرانتز ديليتش الذي نشر كتاباً مثيراً عن موقع جنات الفردوس (في كتابه أين يقع الفردوس ؟ ـــ بالالمانية) .

وعندما اكتشف موقع بابل أعيدت إليها أصول الحضارات واللغات . واقتفى تسيمرن أثر ديليتش محاولاً بيان صورة أقدم لآلام المسيح في نزول بل ، مردوخ إلى العالم السفلي . دون أن يلقي بالاً إلى الاختلاف النوعي في الأثرين الأدبيين والتباعد الكبير بين عصريهما .

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه المؤلفات التي فقدت قيمتها العلمية بمرور الزمن ولم تبق لها سوى قيمة تذكارية ، نقل مؤخراً إلى اللغة العربية دون الإشارة إلى تاريخ نشره عند تأليفه في مطالع هذا القرن .

أما في مجال الدراسات الميثولوجية فقد ازدهرت النزعة الهادفة إلى البحث عن الأصول الميثولوجية في ملحمة جلجامش . وقد خاض في هذا الميدان ب . يانسن P.Jensen في كتابه ملحمة جلجامش في الأدب العالمي ــ بالالمانية ــ (١٩٠٦) . وقد حاول المؤلف أن يظهر فيه مستعيناً بالأمثلة أن كل الأساطير بما فيها أساطير الشعوب (السامية) والهند والاغريق والرومان وبعض بلاد الغرب كلها كانت مقتبسة ومنحدرة من نموذج أساسي هو النموذج الرافدي . لكن النتيجة الآن هي أنه لم يبق من الكتاب شيء يعتد به رغم مصادره الغنية وحواشيه الموسعة بعد التطور الكبير في دراسة الأساطير عند الشعوب والتعرف على خصوصياتها . وقد فتحت الكشوف الأثرية في الأناضول

والبلقان أبواب الدراسات المقارنة للغات والحضارات، التي قادت إلى التعرف على الحثيين وحضارتهم وعلى حضارات شعوب الأناضول الأخرى كالفريجيين والليقيين وغيرهم.

٦ ــ اكتشاف الحضارة الحثية

في عام ١٩٠٦ قام فنكلر برفع الأنقاض عن موقع بوغازكوي في شمال شرقي أنقرة في تركية. وكان بعض الرحّالة قد أشار إلى أهمية ذلك الموقع ومنهم تكسييه Texier وبيرّو Perrot. وقد تبين أن المدينة القديمة شيدت على هضبة قليلة الانحدار وتسيطر عليها قلعة بنيت على قاعدة صخرية.

وقد تتبع فنكلر آثار المنشآت العسكرية وأخرج إلى النور منحوتات عظيمة على شكل الأسود وتمثالاً لأحد المعبودات التي تمثل إلّه الحرب. وعلى أطراف معبد من الجهة الواطئة من المدينة اكتشفت كمية كبيرة من الألواح الطينية المنقوشة باللغتين الأكدية والحثية. وقد كشفت تلك الألواح سراً عظيماً هو موقع العاصمة الحثية، حاتوشا.

وكان قد ورد ذكر الحثيين في بعض مقاطع من أسفار العهد القديم، وفي نصوص الملك المصري الفرعون رعمسيس الثاني، وفي الحوليات الأشورية التي تسرد الوقائع العسكرية للفاتحين الأشوريين. وكان من المعروف أن المملكة الحثية كانت في الألف الثاني ق. م إحدى القوى العظمى في المنطقة. وكان ذلك واضحاً قبل اكتشاف حاتوشا لكن كان ينقص الدارسين الاثبات الدامغ المباشر. وجمعت الوثائق الحثية الرسمية للدراسة، وبخاصةٍ بعد العثور على بعض محتويات الأرشيف الرسمي في القصر الملكي. وأهم هذه الوثائق نصوص المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة.

وهكذا كان حظ فنكلر سعيداً جداً بين المكتشفين. وقد ازدادت أهمية الاكتشاف بعد العثور على نصوص باللغة الحثية وكان من الممكن قراءتها لأن المسمارية البابلية كانت النموذج الذي استخدم في الكتابة الحثية المسمارية. لكن المشكلة هي حل عقدة هذه اللغة لقراءة نصوصها. وكان هذا من ثمرات جهد العالم التشيكي هروزني B.Hrozny، فقد كان من عادة الكتاب الحثيين استخدام العلامات المسمارية الفكرية ــ الرمزية السومرية ــ الأكدية مما يمكن أحياناً عند قراءة هذه العلامات فهم مضمون مقاطع بكاملها. أما الكلمة التي كانت مفتاح السر بيد هروزني فهي كلمة نيندا السومرية (Ninda = الخبز)، فقد قرأ الكلمة الحثية إزّاتيني (ezzateni) بالعلامات المسمارية. وتبين له من أمثلة عديدة أن للمقطع Teni دلالة فعلية، عندها عقد هروزني مقاربة بين ezza بالحثية و essen بالالمانية = أَكَلَ. ثم قرأ كلمة أخرى وَتَر (Watar) في العبارة وترما أكوتيني Watarma Akkuteni التي وجد أنها قريبة جداً من الألمانية Wasser = ماء. ومن هذه المقارنات وجد أن النص

يمكن أن يترجم بصورة مرضية ، فالمعنى يتضمن تناول الخبز وشرب الماء . أما الجذر Aku فهو قريب جداً من كلمة aqua اللاتينية وتعني الماء أيضاً . وهكذا اكتشف هروزني لغة قديمة كانت لغة مندثرة منذ زمن بعيد وهي أقدم لغة معروفة حتى الآن من عائلة اللغات الهندية ــ الأوربية .

لقد ساعد على تطور الدراسات الحثية العثور على نصوص معجمية سومرية أكدية ــ حثية . وتمكن هروزني من صياغة نظرة عامة لقواعد اللغة الحثية . وزال كل التباس عام ١٩٢٢ ، بعد قرن من حل أسرار الهيروغليفية المصرية ، عندما توصل هروزني وتسيمرن وفريدريش بصورة منفصلة إلى قراءة نصوص قانونية حثية مكتوبة بالمسمارية .

وهكذا تكررت ولكن بدون ترتيب مسبق ، وبصورة تلقائية تجربة الجمعية الملكية الآسيوية البريطانية ، وأميط اللثام عن أسرار الوثائق الحثية التي تعود إلى الألف الثاني ق . م وكانت تعاصر الوثائق المصرية والرافدية . فاتسع بذلك نطاق الدراسات التاريخية واللغوية المتعلقة بحضارات الشرق القديم وشعوبه .

٧ ــ الحفريات والتنقيبات بعد الحرب العالمية الأولى

استؤنفت الحفريات والتنقيبات الأثرية على نطاق واسع بعد الحرب العالمية الأولى وقد تضاعف عدد الحملات الأثرية مما أدى إلى اكتشاف مواقع عدد أكبر من المدن القديمة المنتشرة على مساحة واسعة من بلاد الرافدين . فقام الانكليز بالتنقيب في إريدو بقيادة كامبل تومبسون و هـ . ر . هولّ . ونقب في كيش (الأحيمر) س . لانغدون وغيره . واكتشف وولي وهولّ قبوراً هامة في أور تبين أنها قبور ملكية سومرية غنية جداً وتعود إلى الألف الثالث ق . م .

وأجرى الألمان بقيادة أندريه ويوردان تنقيبات هامة في موقع سيبار (أبو حبة) القريب من بابل وفي دير إلى الشرق منها على نهر دجلة . وجرت حفريات في شروباك وتعاقب عدد من علماء الآثار على موقع الوركاء ــ أوروك الهام جداً وآخرهم لنسن .

أما الفرنسيون فاستأنفوا التنقيب في لكش (لاغاش) ، وتولوا إدارة حفريات كبيرة سنوات طويلة في لارسا حيث كان ينقب أندريه بارو قبل أن يتولى إدارة بعثة التنقيب في ماري في سورية .

وقامت بعثات أمريكية بالتنقيب في وادي دجلة ووادي نهر ديالى بمساعدة باحثين عراقيين في مواقع تل أسمر وخفاجة وتل أغراب وأقيّر وتل حرمل . واستأثر المنقبون الأمريكيون بمواقع في أعالي دجلة وأهمها نوزي قرب كركوك حيث اكتشفت نصوص حوريّة .

وعاد المنقبون الانكليز إلى نينوى وتعاقب على رئاسة البعثة كامبل تومبسون وآخرون إلى أن تسلّم القيادة مالوان الذي أدّت جهوده إلى كشوف عظيمة الأهمية بالنسبة إلى حضارة بلاد الرافدين في العصر الأشوري. ورفدت نتائج التنقيبات التي جرت في بعض المواقع السورية الدراسات الجارية حول حضارة بلاد الرافدين. فقد وصلت بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو إلى وادي العاصي الأسفل حين انتقل الانكليزي وولي للتنقيب في منطقة حوض العمق (في تل عطشانة) حيث عثر على موقع ألالاخ وتم الكشف عن نصوص هامة ساعدت على دراسة تاريخ سورية الشمالية خلال الألف الثاني ق. م وعلاقاتها بالأناضول وبلاد الرافدين.

على أن النجاح الذي حققه بارو في ماري (على الفرات الأوسط قرب أبو كمال) فاق كل ما سبق ذكره، فقد اكتشَفَ في آثار تلك المدينة العريقة منجماً حقيقياً من النصوص المسمارية المكتوبة بالبابلية القديمة على حد قول بارّو نفسه. وقد تكشفت من خلال هذه الوثائق كل ملامح عصر حمورابي والعلاقات الدبلوماسية في المنطقة خلال القرن الثامن عشر ق. م.

ولا تقتصر أهمية الكشوف العظيمة في أجاريت على ما هيأته لدراسة تاريخ سورية القديم. فقد عثر في أجاريت (الواقعة على الساحل السوري شمال اللاذقية) على وثائق كثيرة وألواح مكتوبة بالبابلية والحثية والحورية تؤكد دور أجاريت الحضاري والاقتصادي وعلاقاتها مع مصر ودول بحر ايجة وآسية الصغرى وبلاد الرافدين.

وقد أدت التنقيبات والدراسات في وسط الأناضول إلى التعرف على موقع محطة كانيش مركز التجارة الأشورية في آسية الصغرى في القرن التاسع عشر ق. م.

وقد توقفت أعمال التنقيب الأثري أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥). لكنها استؤنفت بعد عودة السلم الدولي. وعادت بعثات التنقيب إلى استئناف أعمالها في بوغازكوي (حاتوشا) وفي أوروك وعثر المنقبون الأتراك في كولتبه على أكثر من عشرة آلاف لوح منقوش بالأشورية. ووسع مالّوان أعمال بعثته إلى موقع نمرود الأشوري بينما قاد غوتز أعمال التنقيب في نيبور (نفّر) المركز الديني الهام في سومر حيث عثر على أرشيف ضخم وتتابعت التنقيبات والحفريات بعد ذلك على أيدي بعثات أجنبية ووطنية في عدد من المواقع الأثرية وكان من أهمها موقع أبو صلابيخ الذي عثر فيه على نصوص مسمارية قديمة معاصرة لوثائق إبلا (تل مرديخ) التي كشف النقاب عنها في العقدين الأخيرين وشكل هذا الكشف انعطافاً هاماً لا في تاريخ سورية القديم بل في تاريخ الشرق العربي القديم كله في الألف الثالث ق. م.

٢ ــ اللغات والكتابة والوثائق

١ ــ لغات بلاد الرافدين

يعدّ تعدد اللغات في حضارات الشرق الأدنى القديم من أكبر المشكلات التي تواجه الباحثين . وأقدم اللغات تسجيلاً في بلاد الرافدين وربما في المنطقة كلها هي (السومرية) .

اللغة السومرية : هي من اللغات المركبة تركيباً مزجياً (Agglutinant) ، وفيها تلصق كلمة بكلمة أخرى وأكثر لتركيب كلمة جديدة وتضاف إليها السوابق واللواحق والمخصصات أو المعرفّات . وهي لغة لا يمكن تصنيفها ضمن أية أسرة لغوية معروفة . وقد اعتقد بعض الباحثين بأن للغة السومرية علاقة بالتركية أو القوقازية لوجود ظاهرة التركيب المزجي في تركيب المفردات فيهما . ولكن كل المحاولات من هذا القبيل كان مآلها الفشل . وتختلف اللغة السومرية في خصائصها البنوية عن الأكدية وغيرها من لغات الشرق العربي القديم المُعربَة : الكنعانية والآرامية والعربية : أما وجود كثير من المفردات الأكدية في السومرية فمرده إلى تعاصر كلتا اللغتين طوال ثلاثة آلاف عام ، اقتبست فيها الأكدية نظام الكتابة السومرية المسماري واكتسبت خلالها اللغة السومرية كثيراً من المفردات الأكدية والبابلية بعدئذ .

وقد قام اللغويون المختصون بدراسة اللغة السومرية وأعدّ دايمل Deimel مادّة لأول قاموس للسومرية . إلّا أن الدراسات اللغوية ما تزال تسير ببطء لصعوبة البحث وقلة المختصين . وما تزال توجد ثغرات كبيرة في معرفة معاني كثير من المفردات . وإذا كان من الممكن الآن فهم النصوص التذكارية فإن النصوص الدينية والأدبية ما تزال تمثل مصاعب جمة . وأما تفسير النصوص الاقتصادية فما يزال عويصاً لشدة اقتضاب هذه النصوص ولوجود مصطلحات تقنية مرتبطة بمرحلة الحضارة السومرية . ويعد فون سودن وكريمر أهم علماء السومريات المعاصرين ، وقد عملا بصبر وجلد على قراءة النصوص الدينية والملاحم والأساطير وعلى نشرها بالألمانية والإنكليزية .

ويعود أقدم النصوص السومرية المعروفة إلى النصف الأول من الألف الثالث ق . م وقد استخرجت من مواقع أوروك (فترة جمدة نصر) وأور . على أن أهم النصوص هي التي عثر عليها في موقع فارة (شروباك) وتتألف من نحو ١٩٠٠ وثيقة نشر جزء منها عام ١٩٢٠ وتتضمن نصوصاً معجمية وقوائم بمفردات ونصوصاً أدبية نشر بعضها ما بين ١٩٣٠ ــ ١٩٤٠ . وتمكنت بعثة أمريكية بإدارة اللغوي بيجس من العثور على نصوص مهمة في (أبو صلابيخ) عام ١٩٦٥ وهي تعود إلى نحو ٢٥٠٠ ق . م ولها علاقة بنصوص إبلا في سورية .

أما أهم الوثائق السومرية فهي التي وصلتنا من العصرين السومري القديم، والسومري الحديث .

١) **العصر السومري القديم** : استمر من نحو ٢٦٠٠ ــ ٢٣٥٠ . وقد عثر على أغلب النصوص المسمارية من هذا العصر في مدينة لكش، ووجد قليل منها في نفر وأور وأداب (بسماية حالياً) . وهي نصوص اقتصادية وتأريخية .

٢) **العصر السومري الحديث** : بعد فترة انتقالية خلال العصر الأكدي ثم الكوتي استؤنف العصر السومري بعد انهيار الدولة الأكدية . امتد هذا العصر من ٢١٤٠ ــ ٢٠٢٠ ق . م تقريباً . وحكمت خلاله أسرة أور الثالثة . وجاءت من هذا العصر كميات هائلة من النصوص السومرية من لكش وأوما (جوخة) ودريهم (صيلوش) وأور . ومن أهم النصوص كتابات الأمير غوديا حاكم لكش (٢١٤١ ــ ٢١٢٢) التي تعد أقدم النصوص الأدبية السومرية .

على أن اللغة السومرية بقيت لغة للتعليم والدين خلال العصر البابلي حين اهتم الكتّاب بإعادة نسخ وكتابة كل النصوص الأدبية والدينية التي ألفت في العصور الأولى . وقد عثر على مجموعات كبيرة من النصوص والوثائق في لارسا وبابل . ومنها نصوص اقتصادية وقضائية وإدارية . بالإضافة إلى التراث الثقافي الكبير المتمثل في الملاحم والأساطير السومرية .

ولم تكن آثار اللغة السومرية المكتوبة من سوية لغوية وأدبية واحدة . فهناك اللغة الدارجة ولكن هناك أيضاً سويات عالية في التعبير ذكرتها المعاجم البابلية التي تحدثت عن الآثار السومرية المكتوبة بلغة (عالية) أو (كبيرة) أو (منتخبة) . وهناك لهجات مميزة لبعض فئات المجتمع كرعاة الغنم، والكهان . وللنساء لغتهم الخاصة (إيمي ــ سال) التي وصفها الشرّاح الأكديون بأنها اللسان السليط = (لشان سليطي) بالأكدية . وربما يرجع وجود هذه اللهجات والاختلافات في اللغة السومرية إلى المؤثرات اللغوية الأخرى لأن المجتمع الرافدي كان متعدد اللغات أو مزدوج اللغة على الأقل .

وإلى جانب اللغة السومرية وجدت **اللغة الأكدية** وهي بالأساس لغة السكان الذين انحدروا مبدئياً من أصول عربية بدوية المنشأ وأصبحت لغة موازية للسومرية منذ عصر شروكين الأكدي (نحو ٢٣٥٠ ق . م) . وقد تأثرت الأكدية بالسومرية وبنظامها المسماري . وخضعت اللغة المكتوبة لتأثير هذا النظام لتلبية مقتضياته . إلّا أن اللغة الأكدية تقدمت وانتشرت بتأثير الدول الرافدية أكّد وبابل وأشور . بينما تراجعت السومرية بالتراجع السياسي للمجتمعات السومرية بدءاً من أوائل الألف الثاني

ق . م إلى أن أصبحت لغة محدودة الاستعمال ، وتقتصر على أوساط الكهان والكتاب المتخصصين .

ويمكن أن تعد الأكدية أقدم شاهد على عراقة اللغة العربية إلى جانب وثائق إبلا . مما يساعد الآن على معرفة جذور اللغة العربية وأصولها وتاريخها بدراستها بالمقارنة مع لغات الوطن العربي القديمة . وهو مايتطلب إعداد معجم تأريخي للغة العربية يبين أصول الكلمة ولفظها في اللغات القديمة للمشرق العربي القديم . ويعدّ قانون حمورابي شاهداً بيناً على الدرجة الرفيعة التي بلغتها اللغة الأكدية ــ البابلية في نحو القرن الثامن عشر ق . م . كما تشهد مكتبة نينوى الملكية من عصر أشور بانيبال ملك أشور ، من القرن السابع ق . م ، على الشوط الطويل الذي قطعته اللغة الأكدية بين بداياتها الأولى والمرحلة التي غدت فيها لغة امبراطورية كبرى في العصرين الأشوري والبابلي ــ الكداني .

وعلى الرغم من منافسة **اللغة الآرامية** للأشورية في أشور وللبابلية في بابل ، فإن الأكدية بفرعها البابلي المتأخر[١] بقيت مستعملة كلغة طقوس دينية واحتفالية حتى في ظل السلوقيين (حتى القرن الأول ق . م) ، وكذلك في معبد إيساجيلا (في بابل) في ظل حكم أسرة أرساكس (أرشاق) الفرثية التي انفصلت عن الامبراطوية السلوقية وأسست نواة سلالة حاكمة ايرانية جديدة جنوبي بحر قزوين وأخذت تسعى للتقدم نحو بابل[٢] في القرن الأول ق . م .

٢ ــ الدراسات السومرية والأشورية

يضع هذا التاريخ الطويل للغتين السومرية والأكدية أمام الباحثين والدارسين مهمات معقدة في دراسة اللغات واللهجات ومابينها من تداخل وعلاقات . وقد نشر العلماء المشتغلون في الأكاديميات والمعاهد المختصة حصيلة بحوث أجيال من العلماء وأهمها معاجم موسعة للغة الأكدية : معجم الأستاذ فون سودن باللغة الألمانية ، ومعجم جامعة شيكاغو باللغة الانكليزية . ثم رفدت الدراسات التي نشرت عن لغات سورية القديمة الأجاريتية والكنعانية ولغات آسية الصغرى : الحورية والحثية واللوفية ... الدراسات اللغوية المتعلقة ببلاد الرافدين وأمدتها بكثير من المواد الهامة للمقارنة والموازنة .

ومن أهم الدراسات في هذا المجال دراسة تاريخ الحوريين ولغتهم . فقد انتشر الحوريون منذ

---

(١) انظر فون سودن : قواعد اللغة الأكدية : Von Soden, Grundriss... p.2.

(٢) J.Oates, Babylon, p.142 ; Strassmaier, J.N. Arsaciden- Inschriften ZA (1988) 3, 146.

أواخر الألف الثالث ق. م وأسسوا في الألف الثاني في شمال بلاد الرافدين وفي شمال سورية (منطقة الجزيرة) مملكة ميتاني حيث مارسوا تأثيراً هاماً جداً في آسية الصغرى في نحو القرن التاسع عشر ق. م. أما لغتهم وهي أيضاً من اللغات المركبة تركيباً مزجبياً فهي ليست معروفة بدرجة كافية، وذلك لقلة وثائقها نسبياً، وبخاصة المكتوبة بلغتين أو أكثر لإجراء الدراسات والبحوث المقارنة الضرورية. وقد تقدمت الدراسات الحورية منذ عام ١٩٧٧ عندما عقد مؤتمر علمي في باريس، أسهمت البحوث التي قدمت إليه في إلقاء الأضواء على بعض خفايا دور الحوريين في تاريخ الشرق الأدنى القديم وبخاصة من الجوانب الثقافية والسكانية وعلى انتشارهم الواسع واختلاطهم بسكان جنوب بلاد الرافدين وحوض الفرات.

لقد مضى الآن ما يزيد على قرن من الزمان على توصل العلماء الأوربيين إلى اكتشاف مغاليق النصوص المكتوبة بالمسمارية: السومرية والأكدية ــ البابلية ــ الأشورية. وقد بذلت جهود كبيرة لجمع النصوص وتبويبها ولتصنيف الوثائق والآثار ووصفها. وأضيف إلى تراث الإنسانية المكتوب نحو نصف مليون وثيقة هي مجموع هذه النصوص المسمارية التي عثر عليها وكشف النقاب عنها حتى الآن في بلاد الرافدين وسورية وبعض المناطق المجاورة في الأناضول وأورارتو وجنوب غربي إيران. ومع تزايد الاهتمام بالبحوث التاريخية والإنسانية في العالم أخذ الانسان في الغرب يعيد النظر في فهمه لحضارته نفسها وأخذ يبحث في بنيتها وتركيبها. ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة التاريخ من منطلق جديد يقوم على ضرورة دراسة الحضارات القديمة التي قامت في المناطق المجاورة للغرب أي أن اتجاهات ظهرت لتفهم العلاقات بين الحضارات ولمعرفة تسلسل تعاقبها. وهكذا على حد قول ل. أوبنهايم ارتفعت النقوش التي لم تكن تثير من قبل إلّا اهتماماً ضئيلاً لدى مشاهديها إلى مرتبة رسائل موجهة من أبناء الحضارات القديمة إلى الأجيال المعاصرة كان لا بد من قراءتها وتفسيرها. وقد دعيت اللغة التي تمثلها الكتابات التي سميت مسمارية لمشابهة أشكال علاماتها من المسامير، باللغة الأشورية لارتباطها بآثار أشور وحضارتها، ولكن اتضح بعدئذ أن هناك لغة أقدم هي (الأكدية) كانت هي الأصل الذي تفرعت منه الأشورية والبابلية. وأطلق على فرع من علم التاريخ يهتم بهذه الدراسات: (**علم الأشوريات**) وهو كما ذكرنا يشمل دراسة اللغة الأكدية ولهجاتها وفروعها ونصوصها المكتوبة بالمسمارية على الرقم الطينية والحجارة والمعادن وكل ما يتصل بذلك من دراسات تتعلق بتاريخ بلاد الرافدين والمشرق العربي القديم.

ويمتد ميدان البحث في علم الأشوريات على مساحة جغرافية واسعة تشمل بلاد الرافدين وسورية والمناطق المجاورة في الأناضول وإيران وحتى مصر.

وتعد وثائق **أوروك** أقدم الوثائق السومرية وتعود إلى نحو ٣٠٠٠ ق . م . وتتضمن ايصالات وجداول وحسابات ومفردات . كما وجدت من طبقات أحدث في أوروك (الألف الأول ق . م) نصوص بابلية متأخرة ووثائق التنجيم ونصوص إدارية . ولوثائق فارة — **شروباك** أهمية لغوية لاحتوائها على قوائم بمفردات الألفاظ وعلى أقدم النصوص الأدبية الميثولوجية . وتكمل وثائق **أبو صلابيخ**[٣] التي تعود إلى أواسط الألف الثالثة تعاليم شروباك وفيها تراتيل وملاحم وقصص وأمثال . وبالإضافة إلى أرشيف **نيبور ولكش ودريهم**، قدمت التنقيبات التي جرت في **سيبار** في أواخر القرن الماضي ١٨٨٠ — ١٨٩٠ نصوصاً بابلية وسجلات العطاءات والتقدمات لمعبد شمش . أما التنقيبات التي أجريت في موقع **بابل** فقد أسفرت عن وثائق عديدة وعقود تنجيم وطب ومواعظ دينية . ومن بابل استخرج آخر نص مسماري معروف ويتضمن معلومات فلكية ويعود إلى عام ٧٥ م .

ومن موقع تل الحريري — **ماري** على الفرات في سورية استخرجت في مواسم التنقيبات المتعاقبة منذ ١٩٣٣ أعداد كبيرة من الوثائق والألواح المسمارية باللغة البابلية القديمة ويعود معظمها إلى القرن الثامن عشر ق . م ، ويزيد عددها على ٢٠,٠٠٠ لوح[٤] . كما وجدت نصوص من أواخر الألف الثالث وهي تعاصر إبلا وقد حظيت **ماري** بحظ كبير من الباحثين والدارسين فقد قرئ معظم النصوص وصنف وترجم وأخرج في أكثر من خمسة وعشرين مجلداً . ويعاد النظر الآن في هذه القراءات والترجمات في سلسلة جديدة من المجلدات بإشراف الأستاذين دوران وشاربان من جامعة باريس .

ويدل اكتشاف المراسلات المعروفة بمراسلات **العمارنة** في صعيد مصر على اتساع نطاق استخدام الأكدية في المراسلات الدولية في أواسط الألف الثاني ق . م . وهذه المراسلات كتبت بالأكدية . وهي تكشف عن العلاقات الدبلوماسية بين ملوك وأمراء فلسطين وسورية وملوك مصر وبابل والملوك الحثيين في الأناضول .

وقدمت نتائج التنقيبات في حاتوشا ، العاصمة الحثية في وسط الأناضول دليلاً على أقدم لغة هندو — أوربية مكتوبة ومعروفة حتى اليوم . وقد عثر في ذلك الموقع الأثري الهام على نصوص دينية وحوليات رسمية تاريخية وعلى نصوص بابلية أيضاً ، مما يشهد بعمق تأثير حضارة بلاد الرافدين في تلك المنطقة . وتؤكد ذلك الكشوف الهامة في **كولتبه في كبادوكية** (في تركية الآن) ، وهي تشهد على

(٣) R.D.Biggs, the Abu-Salabikh Tablets, J.C.S20, (1960), 73-88.

(٤) أرشيف ماري Archives Royales de Mari

قيام علاقات اقتصادية وتجارية متقدمة ومبكرة بين أشور وآسية الصغرى في مطلع الألف الثاني ق . م ، وقد عثر فيما بعد على كمية من الوثائق تتراوح ما بين ١٢ ــ ١٥ ألف لوح لما تنشر بعد .

وقد انتقل مركز الثقل في الدراسات الأشورية في السنوات الأخيرة إلى المواقع المكتشفة حديثاً في سورية الشمالية وبخاصة إبلا وإيمار وتل ليلان . وتعزز هذه المواقع بعد ماري وأجاريت والألاخ الدور الذي تشغله سورية في ميدان الدراسات المسمارية إلى جانب بلاد الرافدين .

والسؤال الذي يمكن أن يُطرح : **ماذا نتعلم من هذه الشواهد المختلفة المكتوبة بالمسمارية ؟** ــ ليس الجواب سهلاً . فالمسألة أكثر تعقيداً مما يبدو . وليست الصعوبة في طبيعة الوثائق وحدها . فهذه مسألة تقنية يمكن التغلب عليها بتعلم اللغات وطرق البحث فيها ولكن الأمر يتعلق أولاً بما يجري البحث عنه ، وبما يشغل بال الباحثين في علم الأشوريات أنفسهم . فالدافع الأقوى الذي كان يحرك الباحثين في القرن الماضي كان السعي للعثور على وثائق تؤيد نصوص أسفار الكتاب المقدس ــ العهد القديم .

فعند اكتشاف موقع نينوى مثلاً انصب الجهد فوراً على البحث عن آثار (يونس) . وعندما اكتشف نص أشوري يروي قصة الطوفان جُندت حملة أثرية بريطانية إلى موقع نينوى العاصمة الأشورية . وعندما أعلن رولنصون أنه قرأ على أحد الآثار الأشورية خبراً عن حصار (أوروشَلم (بالأكدية) = بالعربية) بقوات الملك سن ــ أخي ــ اريبا (سنحريب) انهالت الاستفسارات والاستيضاحات من كل حدب وصوب . وتكرر مثل ذلك كما هو معروف بعد اكتشاف النصوص الأدبية الكنعانية في أجاريت . فكتبت التقارير والدراسات عن وجوه التشابه بين النصوص الاجاريتية والنصوص التوراتية . وعند الكشف عن ماري وبعد أن أخذت الوثائق تكشف عن أسماء الأشخاص والقبائل ، وُظفت الدراسات لإعادة رسم طريق رحلة ابراهيم الخليل في ضوء المعطيات التوراتية . وحاول بعض اللغويين من ذوي النزعات التوراتية أيضاً ربط كشوف تل مرديخ ــ إبلا بالدراسات اللغوية العبرية وتفسير أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية من منطلقات لاهوتية توراتية لا تستند إلى أساس تاريخي علمي . وبدا علم الأشوريات بهذه الصورة إلى حد كبير كأنه فرع ملحق بالدراسات التوراتية التي كانت قد نجحت من قبل في احتواء دراسة تاريخ شعوب الجزيرة العربية القديمة ولغاتها التي عرفت باسم (الشعوب السامية) و (اللغات السامية) ، انسياقاً مع العرض التوراتي لأصل هذه الشعوب كما ورد في سفر التكوين ونسبتها إلى سام بن نوح . وما الهدف من هذا كله إلّا العمل لدمج التاريخ العام للشرق الأدنى القديم في التراث الديني الاسرائيلي ــ اليهودي في إطار الايديولوجية الصهيونية السياسية وتطلعاتها ومراميها . ولكن علم الأشوريات استطاع أن يستقل بنفسه بسرعة وأن

يبتعد عن الدراسات السامية التوراتية . وقد دفع فيض النصوص وغزارتها وظهور معالم معمارية كبيرة من قصور ومعابد ومدن إلى حيز الوجود ، المختص من الأثريين واللغويين والمؤرخين إلى التعمق في دراسة الحضارات التي تعاقبت على بلاد الرافدين بذاتها ولذاتها . وهكذا نشرت الدراسات المتخصصة عن سومر ، وعن أكّد . وأخذ اصطلاح الدراسات الأكّدية أو (علم الأكّاديات) الذي يبدو أكثر دقة ينافس في الاستعمال اصطلاح (علم الأشوريات) . لأن اللغة الأكّدية تعني بطبيعة الحال البابلية والأشورية . كما أخذت تظهر دراسات فرعية خاصة بماري وبإبلا وأجاريت ..

إلّا ان أهم ما يواجه البحث العلمي في حضارة بلاد الرافدين في الفترة الراهنة هو طبيعة المصادر ومتطلبات إعداد الباحثين . وقد تحققت خطوات هامة في السنوات الأخيرة بإصدار مجموعات وثائقية مصنفة للنصوص ، ومنها مثلاً : (**دليل وثائقي لنصوص ماري**) و (**دليل وثائقي لنصوص العمارنة**) ، من مركز بحوث الدراسات السامية القديمة في ستراسبورغ (فرنسة) . وسلسلة نصوص إبلا .. وقد أدخل الحاسوب في تقنيات البحث في هذه الدراسات التاريخية واللغوية .

ويعد اللقاء السنوي لعلماء الأشوريات الذي يلتقي فيه نحو ثلاثمائة باحث وعالم من أنحاء العالم أهم لقاء علمي لتبادل وجهات النظر وللاطلاع على أحدث الكشوف والدراسات الأثرية واللغوية والتاريخية المتعلقة بموضوع البحث . وقد بات من الضروري بعد هذه التطورات في علم الأشوريات وفي دراسة تاريخ بلاد الرافدين وحضارات المشرق العربي القديم تأسيس المؤسسات والمراكز العلمية العربية التي تمكن من الإسهام في هذه الدراسات على وجه أفضل لخدمة التراث الحضاري العريق المكتوب بالمسمارية .

ويمكن أن نقسم الألواح المنقوشة بالكتابة المسمارية إلى مجموعتين[٥] : الأولى وتضم التراث الثقافي الفكري الذي يشمل الأعمال الأدبية والملاحم والأمثال والحكم والنصوص الدينية التي اهتمت بتسجيلها وجمعها أجيال من الكتاب . والثانية وتضم الوثائق ذات الصفة العملية وفيها ملاحظات حسابية وتقارير إدارية ورسائل عامة وخاصة وحوليات رسمية .. ويعبر الاهتمام بهذا التراث والمحافظة عليه على مستوى فكري رفيع لدى القيّمين عليه من الكتاب والمعلمين الأمناء في مؤسسات العلم والتعليم البابلية والأشورية .

وتقدم مكتبة أشور بانيبال أفضل مثال على البرنامج الثقافي المعتمد في الحضارة البابلية

(٥) ل . أوبنهايم L. Oppenheim, La Mésopotamie, Paris (مترجم عن الانكليزية ، ط ١٩٦٤) 1970.

الأشورية . فالمكتبة تضم ألواحاً في الكهانة والمعاجم باللغتين السومرية والأكدية . وصلوات وتعزيمات ونصوصاً هجائية وأمثالاً بالإضافة إلى الآثار الأدبية ومنها الأساطير والملاحم ومن أهمها ملحمتا الخلق وجلجامش .

الفصـــل الثـالـث

التـركيــب السكـانــي في بـلاد الـرافـديـن

تشير الدلائل الأثرية واللغوية والتاريخية إلى تعدد أصول السكان في بلاد الرافدين. وتتألف مجتمعات بلاد الرافدين القديمة من عناصر أصيلة وجدت في البلاد قبل عصر الكتابة ومن عناصر قادمة . فالمناطق الرعوية والزراعية الخصبة جذبت القبائل غير المستقرة من البوادي العربية المجاورة من جهة ومن الجبال والهضاب الشمالية والشرقية من جهة أخرى . ولا يختلف التركيب السكاني للبلاد من حيث أصول الناس وصفاتهم العرقية وحسب بل إنهم يتميزون من حيث طرز حياتهم وفعّالياتهم الاقتصادية . وفي عصور ما قبل التاريخ لم يكن بالإمكان معرفة أسماء الشعوب والقبائل التي سكنت البلاد وأنشأت أسس حضارتها ، ولكن من الوقت الذي اخترعت فيه الكتابة (أواخر الألف الرابع ومطلع الألف الثالثة ق . م) أضحى بالإمكان معرفة لغاتهم على الأقل. وهكذا عُرفت أسماء الشعوب والقبائل التي احتلت ساحة التاريخ من لغاتها المتداولة فيما بينها .

وتلاقت على أرض الرافدين موجات من البدو ، عُرفت في السجلات والوثائق الرافدية بأسماء مختلفة ، يمكن جمعها بثلاثة أسماء رئيسة : هي الأموريون ، والآراميون ، والعرب . وعند تسرّب هذه الموجات إلى أرض الرافدين من البوادي العربية كانت تختلط مع المجتمعات المقيمة من السومريين الذين كانوا يتكلمون السومرية ومن الأكّديين الذين كانوا يتكلمون اللغة الأكدية ، لتندمج بها بعدئذ ولتدخل دورة المجتمعات الحضرية الريفية الزراعية والمدنية بمقابل المجتمعات البدوية المتنقلة موسمياً بحثاً عن المرعى والغذاء .

كانت بوادي جزيرة العرب الموطن الأصلي للشعوب والقبائل العربية التي تغلبت منذ الألف الثالث ق . م على مقدرات بلاد الرافدين وعلى الشرق العربي القديم كله . وكانت أطراف بادية الشام على الأخص هي التي انطلقت منها ، وعلى دُفعات متصلة ومتلاحقة ، بتسرب سلمي أو بغارات مفاجئة أحياناً ، موجات من الأموريين (أواخر الألف الثالث) والآراميين (أواخر الألف الثاني) والعرب (من أواخر الألف الأول ق . م) .

لم يكن لهذه الشعوب ، وهي في مرحلة البداوة ، لغات مكتوبة ووثائق مسجلة . ولكنها بعد استقرارها واندماجها في الحياة المدينة كانت تصطنع لنفسها لغة للإدارة وللثقافة . وهذه اللغات هي الدليل الواضح على هوية هذه الشعوب والمجتمعات وعلى الرابطة التي كانت قائمة فيما بينها . ويمكن بين الشعوب التي مرَّت بتاريخ بلاد الرافدين القديم تمييز الشعوب التالية وهي : السومريون وهم الذين كانت لغتهم السومرية . و (الساميون) الذين كانت لغتهم إحدى اللغات (السامية) ، و (الآريون) الذين كانت لغتهم إحدى اللغات الآرية . وفيما يلي لمحة عن هذه الشعوب :

١ ــ السومريون ومشكلة أصل السومريين

يدعو بعض الباحثين (جورج كونتنو) شعوب الشرق الأدنى القديم التي سكنت في بعض مناطق آسية الغربية منذ أقدم العصور وقبل ذكر الشعوب (السامية) باسم (الآسيانيين) أي سكان غربي آسية الأولين ومنهم **السومريون** سكان جنوب بلاد الرافدين ، **والعيلاميون** الذين استقروا في جنوب غربي إيران حول ضفاف نهر قارون .

فالمجتمع السومري هو أقدم مجتمع يعرف له اسم في أرض الرافدين ولغته السومرية هي أقدم لغة معروفة في تاريخ الإنسانية . ويفترض أن تكون العناصر المكوّنة للمجتمع السومري قد وجدت في البلاد قبل الكتابة بزمن طويل ولكننا لا نعرف شيئاً عن هذه المرحلة المبكرة السابقة لاختراع الكتابة ، أي في ما قبل التاريخ ، سوى ما تركه سكان عصري العُبيد وجمدة نصر من آثار مادية .

وعندما تبدأ الوثائق المكتوبة بإلقاء شيء من النور على تاريخ بلاد الرافدين تكون عمليّة التحضر والتمدن قد قطعت شوطاً بعيداً في السهول الجنوبية لبلاد الرافدين . وتشكل مسألة أصل السومريين مشكلة معقّدة يقتضي حلها الإجابة عن سؤالين : من أين جاؤوا ؟ ومتى جاؤوا ؟ ولم يمكن حتى الآن تقديم إجابة قاطعة عن هذين السؤالين ، ولذلك تبقى المسألة معلّقة . فلا يعرف على الضبط أصل السومريين ، إلى أي عرق ينتسبون ومن أي أصل يتحدرون . فلغتهم ليست بلغة (سامية) ، وليست لها خصائص اللغات التي عرفت بهذا الاسم . وهي ليست بلغة آرية . وقد وجد

هؤلاء الذين دعوا بهذا الاسم، «السومريون»، منذ فجر التاريخ، بوصفهم مجتمعاً مستقراً مقيماً على الأرض التي أُنشئت عليها أسس حضارة بلاد الرافدين القديمة. وخلافاً لما نجده بعدئذ عن الأموريين والآراميين، فلا تتحدث الوثائق السومرية المكتشفة عن السومريين بوصفهم من الرحّل في أية مرحلة من مراحل تاريخهم، فقد غاب كل أثر من أخبارهم قبل مرحلة الاستقرار والحياة المدنية.

وهناك فرضيات متعددة عن منشئهم الأصلي في بلاد القفقاس أو من مناطق جبلية أخرى من سلاسل الجبال الواقعة على حدود العراق الشرقية والشمالية. وقد وجد في الصفات الخلقية للسومريين ما يجعلهم مختلفين عن (الساميين) من سكان بلاد الرافدين وسائر بلاد العرب في القامة والسحنة. فالسومريون قصار القامة ذوو بنية قوية، أنوفهم مرتفعة وعريضة لا تشبه أنوف (الساميين) الدقيقة. أما رقبة السومري فقصيرة تحمل هامة كبيرة. وكان السومريون يتدثرون بالملابس الصوفية فاستدل من ذلك على أنهم أتوا من المناطق الجبلية الباردة. على أن بعض الباحثين الآخرين اعتقد بقدوم السومريين من الجنوب، وربما عن طريق البحر، لأن بعض الأساطير والنصوص الأدبية والدينية وبخاصة ما يتصل منها بالرب إنكي، إله الماء والأعماق، يمكن أن تربط أصول السومريين ببعض مناطق الخليج العربي التي بقيت في العصور التاريخية وثيقة الصلة بجنوب بلاد الرافدين مثل دلمون (البحرين والسواحل الشرقية لجزيرة العرب)، وماغان (عُمان) وملّوخا (ربما كانت وادي السند). ولعل التنقيبات الأثرية التي تجري حالياً على سواحل الجزيرة العربية من الخليج قد تؤدي إلى كشوف تساعد في حل بعض جوانب المشكلة السومرية. ويذكر العالم ل. وولي الذي نقب في موقع أور أنه وصل في حفرياته إلى طبقة كثيفة من الطين خالية من آثار الحضارة. وقد تكون هذه الطبقة من بقايا فيضانات هائلة لنهري الفرات ودجلة وغمرت هذه المدينة والمدن الأخرى. وهو ما ذكرته الأخبار المتواترة بعدئذ باسم الطوفان. ولربما جاء السومريون بعد حضارة اندثرت قبلهم وكان أهم مراكزها في تل العُبيد وإريدو.

ويؤكد الباحثون أن اللغة السومرية، وهي لغة إلصاق، تشبه في بنيتها التركية والفينية ــ الأويغورية وبعض اللهجات القوقازية. ولكنها في مفرداتها وقواعدها ونحوها تقف وحدها ولا يمكن إلحاقها بأية لغة معروفة ميتة أو حية. وهذا ما جعل للسومريين موقعاً خاصاً في تاريخ المنطقة. إلا أن هذا لا يمنع من أن نلاحظ وجود تأثيرات متبادلة بين السومرية من جهة والأكدية وغيرها من لغات الرافدين من جهة أخرى بحكم التعايش الطويل بين هذه اللغات وتعاصرها. وإذا كان البحث التاريخي الرصين يقتضي التأني والحذر قبل استخلاص النتائج وإصدار الأحكام القاطعة فإن جملة

من المعطيات التي يقدمها البحث العلمي الأثري واللغوي يمكن أن تقلل من الغموض الذي يحيط بالمشكلة السومرية .

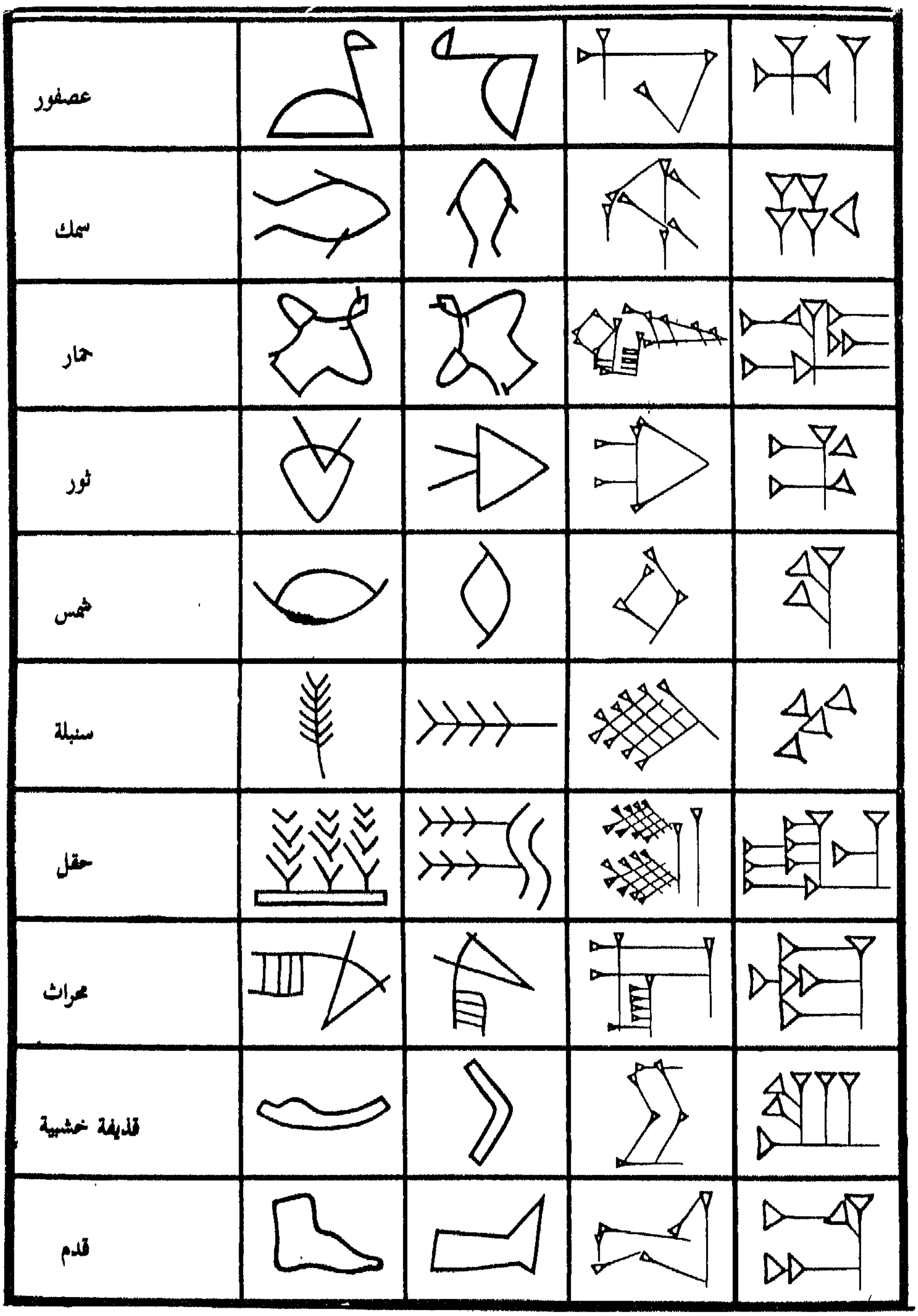
يلاحظ بعض الباحثين المختصين بالدراسات السومرية (ب . لاندسبرجر ، ١٩٧٤) و (ف . ب . جونز ، ١٩٦٩) أنه من المحتمل أن يكون للغة السومرية التي عرفت بدءاً من أورك ٤ أساسٌ أسبق جاء من لغة السكان الرافديين المقيمين قبيل العصر السومري . فكثير من الأسماء الجغرافية للأنهار والمدن وردت في أقدم النصوص والوثائق السومرية ولكنها ليست من اللغة السومرية مثل دجلة والفرات بالإضافة إلى مفردات كثيرة تتصل بالزراعة والبستنة وصنع الفخار والجلود والبناء وهي من لغة مجتمع زراعي بينما ارتبطت المفردات السومرية بالملاحة والنحت والكتابة والتعليم والقانون ، وهي مفردات ترتبط بلغة مجتمع مدني . ومن المحتمل أن تكون اللغة السومرية قد استخدمت في النصوص المكتوبة مفردات من لغة أقدم كانت متداولة في أوروك قبل الكتابة ثم لم تعد معروفة بعد تشكل المجتمع السومري واختراع نظام الكتابة المسمارية التصويرية والمقطعية السومرية .

وينبغي أن نشير إلى أنه في العصور التاريخية استخدمت صفة سومري للدلالة على النسبة إلى (سومر) وهو اصطلاح جغرافي يدل على الإقليم الجنوبي من أرض العراق القديم . وقد حصلنا على اسم السومريين من ألقاب الملوك الأكديين والبابليين الذين اتخذوا لقباً مزدوجاً : (ملك سومر وأكّد) = (شر شومري أو أكّدي) . أما الاسم المقابل لكلمة سومر في اللغة السومرية فهو (كي — إن — جي/ر)[1] . فليس لكلمة سومر أي مدلول عرقي . وإنما لها مدلول جغرافي — سياسي ولغوي بالدرجة الأولى في مجتمع مزدوج اللغة سادت فيه اللغة السومرية ثقافياً قبل أن تسلّم الدور إلى اللغة الأكّدية . فالمزارعون والفلاحون في المجتمع السومري هم من عناصر السكان المحليين الذين يتحدرون من عصر العُبيد وهم أسبق من الذين عرفوا باسم السومريين .

ومن جهة أخرى تطرح نتائج التنقيبات الأثري الحديثة في سورية في حوضي الفرات والخابور تساؤلات عن سكان المستوطنات والمجتمعات الأولى (حبوبة الكبيرة) التي استخدمت أشكالاً من الكتابة التصويرية المبكرة المماثلة لبدايات الكتابة التصويرية في جنوب بلاد الرافدين . ويلاحظ بعدئذ أن الحضارة السومرية في أدوار ازدهارها وقوتها انتشرت في المناطق ذاتها التي انتشرت فيها حضارة العُبيد : فمن أين بدأ انتشار السومريين وأين كان اتجاههم . هل بدأ من الشمال باتجاه مركز حضارة العُبيد في الجنوب أم بالعكس بدأ من الجنوب ليصعد باتجاه المدن الجغرافي للحضارة الرافدية .

---

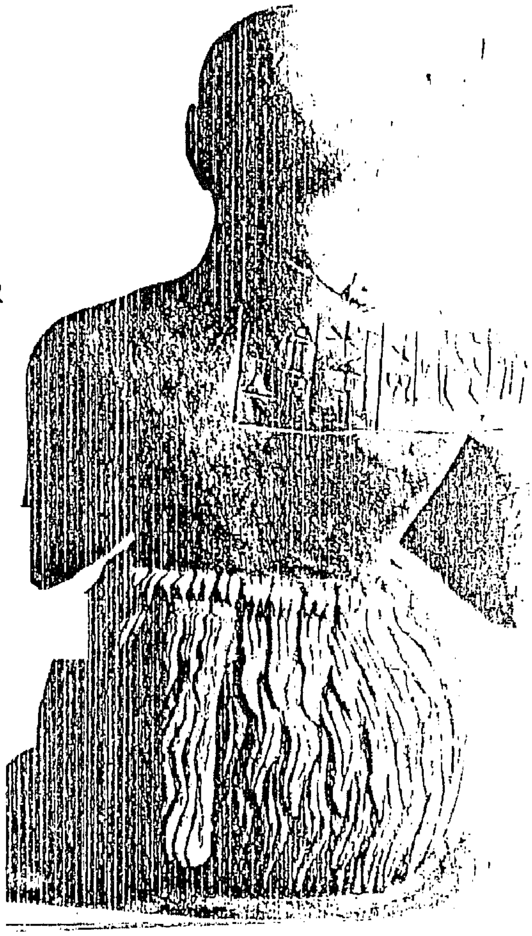
(١) ج . أوتس J.Oates, Babylon London 1979. R.11 فوزي رشيد ، قواعد اللغة السومرية ، ١٩٧٢ ، ص٢٧ .



الأصل التصويري لعلامات الكتابة المسمارية

قراءة الكتابة بالسومرية

DÙL EN.TI.ÍL NU.TUR DINGÌR INNIN.UŠ SAG.KAB.DU.



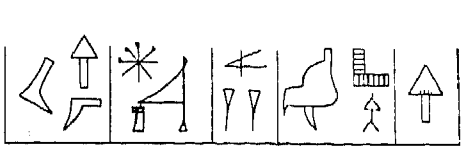
قراءة نفس الكتابة بالأكادية

Ṣalam Ebiḫ-il laputtûm dIštar-US išruk.

ترجمة النص :

تمثال إبيخ ــ إل الوكيل أهدي إلى إشتار القوية .

الكتابة التصويرية



وبعد هذه المقدمات والملاحظات حول المشكلة السومرية يمكن الاستنتاج أن السومريين هم محصلة تطور محلّي للسكان في جنوب بلاد الرافدين والخليج العربي ، كما يمكن أن نلاحظ من تطور السويّات الأثرية في أوروك ١٤ ـــ ٤ إذ لا تبدو آثار أي غزو حمل عناصر جديدة من السكان لتحل محل عناصر سابقة .

٢ ـــ الأكّديون ومشكلة اصطلاح (الساميين)

جاء اسم أكّد أو أكّاد من كلمة أكّادو Akkadu/ أغادِيه Agadé ، وهو الاسم الذي أُطلق على مدينة أكّد عاصمة الدولة الأكدية التي أسسها شروكين . ولا يعرف موقعها حتى الآن ولكنها ربما كانت قريبة من موقع كيش/ الأُحيمر . وإليها نسب الأكديون . وقد ورد ذكر الأكديين في نصوص سومرية من الألف الثالث في شُروباك فارة ، وهي موطنُ أوت نابشتيم/نفشتيم = نوح البابلي ، وفي أور . وأخيراً ذكرت في نصوص (أبو صلابيخ) المشابهة لنصوص فارة ، والمعاصرة لنصوص إبلا في سورية .

وتوجد شواهد على أن اللغة الأكّدية كانت موجودة إلى جانب اللغة السومرية من كلمات أكدية في أقدم النصوص السومرية . كما تظهر أسماء أكّدية في قائمة الملوك السومرية . ويعتقد بأنه طرأ تغير على اللغة الأكدية التي كانت متداولة قبل الكتابة بعد اعتماد الأكديين لنظام الكتابة السومري وبعد إخضاع اللغة الأكدية لمقتضيات قواعد كتابة النظام المسماري . وربما كان هذا مما أبعد اللغة الأكدية عن أرومتها المشتركة التي تشمل مجموعة اللغات الأمورية : (الكنعانية والآرامية) ، والمجموعة العربية (الشمالية والجنوبية والإثيوبية) . فأصبحت لغة مكتوبة لها خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية التي أثرت في الوضع اللغوي في بلاد الرافدين ، في حين كانت تشكل اللغات أخرى مثل لغة إبلا خصائصها المميزة في العالم الكنعاني ـــ الآرامي في غربي الفرات .

وتدل غزارة نصوص ماري على الفرات وإبلا في شمال سورية على غلبة العناصر اللغوية العربية (السامية) في حوض الفرات وسورية كلها . ومصدر هذه الشعوب التي دُعيت (سامية) هو البوادي العربية ضمن عملية انتقال دائمة من البادية إلى الحاضرة وبتفوق هذه العناصر العربية تطورت اللغة الأكّدية ، التي أضحت أول **لغة عامة** مكتوبة في معظم بلاد الرافدين وسورية . ومن هذه العناصر شخصيات كان لها دور حاسم في تاريخ بلاد الرافدين ومنها شروكين مؤسس أكّد وحمورابي المشرّع وشمشي أدد مؤسس أشور ثم نابو بولاصر وابنه نابو خذ نصّر .

فالوضع اللغوي المزدوج أو المتعدد في بلاد الرافدين هو الذي يمكن أن يلقي الضوء على

المشكلة السومرية . فاللغة السومرية هي ظاهرة لغوية في تاريخ بلاد الرافدين . فقبل أن يتولى شروكين حكُم سومر ، تناوب على الحكم ملوك حمل بعضهم أسماء سومرية وآخرون أسماء أكدية . إلى أن جاء شرو (م)ـــ كين الذي رفع اللغة الأكدية المحلية إلى مرتبة لغة الدولة ودواوينها ونظمها ... وأقام مملكة مزدوجة الهوية (سومر وأكّد) .

فاللغة الأكدية التي تكلمها الأكديون من سكان بلاد الرافدين إلى جانب السومرية التي تكلّمها معاصروهم السومريون ، كانت لغة دول الرافدين طوال ثلاثة آلاف عام على الأقل (من أواخر الألف الرابعــ أواخر الألف الأول ق . م) ، وهي دول أكّد وبابل وأشور . وقد انتشرت **الأكّدية** بصورة عامة شرقي الفرات وتفرعت إلى لهجتين : البابلية في الجنوب والأشورية في الشمال . أمّا في غربي الفرات أي في أمورو = (كنعان وآرام) وهي الشام ، فقد انتشرت اللغات الكنعانية والآرامية .

وأما في اليمن والحجاز فقد انتشرت العربية بفرعيها الشمالي ، والجنوبي الذي امتد عبر باب المندب إلى الحبشة (إيثوبية) . وقد تفرعت عن هذه اللغات فروع ولهجات تكونت بسبب تعدد المؤثرات الجغرافية والاجتماعية الثقافية التي كان من مظاهرها عبر تاريخ طويل ، تعدد الدول والدواوين الرسمية وتشكل بعض الفروق المحلية في الخطوط وأساليب التعبير والكتابة .

إن دراسة هذه اللغات دراسة مقارنة تؤكد ما بينها من عناصر التقارب والتشابه في الأصوات والمفردات وفي الأفعال التي يمكن إعادتها إلى جذر ثلاثي أو رباعي وفي صيغ تصريف الأفعال وفي أسماء الأعداد والضمائر والحروف ... مما دفع إلى الاعتقاد بانتسابها إلى أرومة واحدة قبل أن تتفرع إلى فروع وشُعب .

وكان العالم اللغوي الألماني ـــ النمساوي **شلوتزر** (١٧٨١) قد أعلن في مقالة نشرها عن الكلدانيين أن الشعوب التي سكنت البلاد « من البحر المتوسط إلى الفرات ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوباً ... كانت تتكلم **لغة واحدة** » وقد دعاها شلوتزر « **اللغة السامية** »(٢) . وقد أطلق على لغات بلاد العرب هذا الاسم المشترك للاعتقاد بوجود رابطة بين الآراميين والبابليين والعبريين والعرب وبانتسابهم إلى أصل مشترك هو سام بن نوح ، وذلك بالاستناد إلى جدول الأنساب بعد الطوفان حسب (سفر التكوين : ١٠) . فالرواية التوراتية للأنساب تجعل الناس جميعاً

(٢) انظر : توفيق سليمان ، أسطورة النظرية السامية ، دمشق ١٩٨١ ، ص٥٨ .

بعد الطوفان متحدرين من أبناء نوح : سام وحام ويافث . وهكذا طرحت نظرية عرقية بالاستناد إلى مقدمات لغوية عن القرابة بين اللغات القديمة في شبه جزيرة العرب .

وقد تبنى المستشرقون ، وهم الذين درسوا لغات الشرق وحضاراته من الأوربيين والامريكيين .. هذا الاصطلاح ، فأطلقوا على لغات الوطن العربي القديم اسم (اللغات السامية) ، وعلى شعوبه القديمة اسم (الشعوب السامية)[٣] ، وغدا هذا الوصف شائعاً ، ويصعب على الباحث إلّا أن يأخذ به عن قناعة أو اتباعاً لما صار مألوفاً بالاصطلاح .

وبعد أن استخدم هذا الاصطلاح طويلاً عند الباحثين في التاريخ القديم منذ أيام إ. رينان (١٨٦٠) ، ومشروع سجل النقوش السامية ، فإن الكشوف الأثرية الضخمة في هذا القرن قلّصت حدود الإرث التوراتي بالقياس إلى حجم التراث الحضاري القديم في الوطن العربي ، في جزيرة العرب وفي وادي النيل ، ولم تعد المصطلحات القديمة في أنساب الشعوب مقبولة في ضوء الدراسات الإنسانية واللغوية الجديدة .

وقد وجه عدد من أكبر الباحثين نقدهم لوصف الشعوب القديمة في الوطن العربي بالشعوب السامية وكذلك لغاتها . وقال أ. دوبون ــ سومر «إنه غير دقيق» ، بينما يتحدث أ. كاكو عن «أسطورة الساميين» رافضاً نسبة شعوب الجزيرة العربية ولغاتها إلى سام . وداعياً إلى إعادة النظر في تقدير حجم كل من اللغتين العبرية والآرامية «فقد كانت العبرية على حد قوله لغة (كانتون) صغير ، حين كانت الآرامية لغة الامبراطورية»[٤] . وأعلن ج. بوتّيرو «أن أسفار التوراة فقدت أقدميتها في تاريخ الآداب العالمية بعد الكشف عن الوثائق المسمارية والملاحم الرافدية»[٥] . ولم يعد اصطلاح «ساميين» مريحاً للباحثين العرب ، عندما يرتبط بوصف شعوب المنطقة وحضارتها ولغاتها وصفاً إجمالياً . ولهذا يحسن ، برأينا ، تجنب استخدام هذا الاصطلاح عندما يكون بالإمكان استخدام اصطلاح آخر يُتفق عليه ودون أي تعسف يتجاوز الموضوعية العلمية . فإذا ما اتضح ان اصطلاح «سامي» غير دقيق بالمعنى الذي كان شائعاً فيه ، فإن اصطلاح «شرقي» غير دقيق أيضاً إذا لم يتحدد مدلول «الشرق» ، وهو دائماً نسبي واعتباري . أما وصف اللغات التي تدعى «سامية» بأنها لغات «عربية» ، فإنه ليس مقبولاً إذا فهم من ذلك تفرع هذه اللغات عن العربية كتفرع البابلية والأشورية عن الأكّدية ، أو التدمرية والسريانية عن الآرامية مثلاً ، وذلك لأسباب

(٣) س. موسكاتي : حضارات الشعوب السامية .

(٤) أ. كاكو : المحاضرة الافتتاحية في الكوليج دوفرانس . ومقال «الساميون» في الموسوعة الفرنسية ، أونيفرساليس .

(٥) ج. بوتيرو ، ولادة الإله ، غاليمار ، باريس ١٩٨٦ (بالفرنسية) .

تأريخية زمنية ، فأقدم النقوش الآرامية المكتوبة لا يرقى إلى أبعد من مطلع الألف الأول ق . م على أبعد تقدير في حين ترقى نقوش (أبو صلابيخ) إلى ٢٦٠٠ ق . م ، ونقوش إبلا إلى نحو ٢٥٠٠. أما أقدم النقوش العربية الشمالية المعروفة فلا يُرقى إلى أبعد من القرن الرابع ق . م[٦] .

ولذا فإننا نرى أن (عروبة) هذه اللغات القديمة في المشرق العربي تكمن في تاريخية اللغة العربية التي يمكن أن نميّز فيها ، حتى الآن ، الأدوار التالية : (**العربية القديمة**) ، **وهي العربية الأم** ، ولم تكن مكتوبة وهي لغة مفترضة ، تولدت منها لغات انفصلت عنها هي : الأكدية والكنعانية في الشمال والعربية في الجنوب (اليمن) . ولكل من هذه اللغات منحى أثّر في تكوين بنيتها . **فالأكّدية** بخضوعها لقوالب الكتابة السومرية المقطعية المسمارية تكّونت وتطوّرت في صورة مختلفة عن **الكنعانية** التي صيغت في قوالب أكثر مرونة وقابلة لتعدد اللهجات باتخاذ الأبجدية المتأثرة بالمحيط الثقافي المصري نظاماً لكتابة ليس فيها موضع للحركات إلى وقت متأخر ، عندما أُدخلت الحركات على الأبجديات السريانية (الآرامية) والعبرية والعربية . وكان **للعربية الجنوبية** منحاها الخاص الذي أدّى إلى تشكل الخط المسند . أما العربية الشمالية فهي محصلة مؤثرات متعددة للغات المنتشرة بين الشام واليمن . **فلغات** (**العربية القديمة**) ، إذن هي الأكدية بفروعها ، والكنعانية ــ الآرامية بفروعها ، والعربية بفروعها ولهجاتها حتى القرن السادس م . وقد تفرعت من لغة عربية (أصيلة) يفترض وجودها قبل الكتابة .

أما **العربية الوسيطة** ، فهي العربية الشمالية التي تكونت منذ العصر الجاهلي (من القرن السادس) ، واكتسبت أهم عوامل القوة والانتشار بظهور الإسلام وبالقرآن الكريم ، ثم تطورت بقوة الدولة العربية وثقافتها حتى عصور الانحدار والانحطاط التي أدّت إلى تراجع اللغة العربية الفصحى أمام عوامل داخلية وخارجية .

وأما **لغتنا العربية المعاصرة** ، فهي لغة النهضة القومية العربية منذ القرن التاسع عشر ، وقد تكونت بتأثير التراث الثقافي القديم والوسيط ، وبتأثير مكونات الثقافة العالمية الحديثة والمعاصرة .

والخلاصة ، إن وصف **الشعوب** القديمة للوطن العربي بأنها شعوب (سامية) له مدلول لغوي ، ولا يمكن أن يقبل من منظور عرقي . فهذه الأقوام والشعوب يمكن أن توصف أيضاً بأنها (عربية) اصطلاحاً ، لأنها بكل بساطة من منشأ عربي ، فهي تتحرك على الأرض العربية في حركة

---

(٦) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (١٩٦٦) ؛ ومحمد حرب فرزات ، الكتابة والخطوط في المشرق العربي القديم ، دمشق ١٩٨٣ .

دائمة عبر التاريخ للبدو العرب من البادية إلى الحضر، ومن الرحلة والتنقل إلى الإقامة والاستقرار والاستيطان. وإن التداخل بين البدو والحضر طبيعي في التاريخ العربي القديم ويشكل سمة من أبرز سماته في المكان وهو المدى الجغرافي المتميز بقوس الجبال المحيطة بهلال يتشكل من الأراضي الخصيبة الممتدة من الخليج العربي إلى وادي النيل والتي تحف بأطرافها الصحراء والبوادي العربية.

أما وصف **اللغات** التي تنطق بها هذه الشعوب بأنها لغات (عربية) فإنه، فيما نرى، يمكن أن يكون أكثر دقة حين يوضع ضمن نظرية جديدة في تاريخ اللغة العربية عبر العصور، تستنبط فيها بُنية العربية القديمة الأصيلة من العناصر المشتركة في لغاتها التي يفترض أن تكون قد تفرعت عنها. وفي ضوء هذا كله يمكن أن يطرح اصطلاح (الأقوام) أو (الشعوب العربية القديمة) بديلاً لاصطلاح (الشعوب السامية). كما يمكن أن يستخدم اصطلاح (لغات العربية القديمة) مرادفاً للاصطلاح الدارج (اللغات السامية) دون اخلال بشرط الزمان والظرف التاريخي.

٣ ــ الشعوب الآرية (الهندو ــ أوربية)

دخلت أرض الرافدين عبر ممرات الجبال الشرقية والشمالية موجات غازية من الأقوام والشعوب الجبلية التي تنتمي لغوياً إلى عائلة اللغات الهندو ــ أوربية. والتي اختلطت بسكان بلاد الرافدين والشرق العربي عامة، اختلاطاً واسعاً وتركت آثارها في شمال العراق، في نوزي، بالقرب من كركوك وهي أهم مراكز الحضارة الحورية، وكونت في الامبراطورية الميتانية، الطبقة الارستقراطية العسكرية المعروفة باسم ماريانو، وقد شاركت في تكوين حضارة البلاد وثقافتها وبخاصة في الفنون التشكيلية من نحت ونقش وأختام.

وقد هاجم بعض هذه الشعوب دول بلاد الرافدين وعمل على تقويضها. فقد أضعف صراع الملوك الأكديين مع الكوتيين (الغوتيين)، واللولوبيين مملكة أكّد وأدّى إلى أنهيار الحكم الأكّدي (أواخر الألف الثالث). وعمل العيلاميون والكاشيون على تدمير الدولة البابلية الأولى. ودخل الحثيون المسيطرون على آسية الصغرى في حروب مريرة مع الأشوريين في أواخر الألف الثاني ق. م. وكذلك الأوراريتون، الذين شكلوا مملكة هامة حول بحيرة وان في الألف الأول ق. م.

أما اتحاد القبائل الإيرانية بزعامة الميديين فقد عمل على تقويض أركان الامبراطورية الأشورية ٦١٠ ق. م في حين أدى توحيد الفرس والميديين بزعامة قوروش إلى اختلال ميزان القوى في آسية الغربية وإلى قيام صراع بين فارس وبابل انتهى بسقوط بابل بيد الفرس عام ٥٣٩ وبزوال آخر دول بلاد الرافدين في العصور القديمة.

لقد عاشت هذه الشعوب القديمة في بلاد الرافدين، وهي مختلفة الأصول واللغات في تفاعل وتبادل مستمرين، وقامت بينها صلات في السلم والحرب تمثل وقائعها صحائف التاريخ القديم. فقد سعى الرحّل من البدو والرعاة الجبليين لاحتلال المناطق الخصبة والسيطرة على السهول وطرق القوافل. ولكن في البيئة الزراعية وفي وديان الأنهار قامت المجتمعات الحضرية المستقرة، مجتمعات الفلاحين والصناع والتجار في القرى والمدن. وفي هذه المجتمعات المدينة حل الانتماء إلى المدينة والمعبد محل الانتماء إلى القبيلة. وعندما خط الناس طرق المواصلات والقوافل التجارية والجيوش اشتدت قوة الحكومات واتسعت سلطة الدول وقامت الممالك الكبيرة والإمبراطوريات، وجرى تنقل السكان ونقلهم على نطاق واسع حاملين معهم لغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم. ومن هنا يمكن القول إننا عندما نتكلم في التاريخ القديم عن السومريين والبابليين والأشوريين والآراميين، فإننا لا نعني بذلك عروقاً، بل مجتمعات سياسية مدنية. فعندما تظهر الدَولة تتلاشى العروق ضمن الشعوب المكونة لها. أما استمرار العوامل العرقية بعد إنشاء الدولة فإنه يكون مدعاة لضعفها وربما لانهيارها.

إننا سنرى عند دراستنا لتاريخ دول بلاد الرافدين أنه لم يقم فيها في تاريخها الطويل صراع عرقي. فالعوامل الاقتصادية والاستراتيجية هي التي كانت أكبر تأثيراً في تحرك الدول وفي إثارة الغزوات والحروب. وعلى الرغم من العنف الذي رافق تقلب الدول والسلالات الحاكمة، فقد قامت في بلاد الرافدين حضارة مشتركة أسهم في صنعها السومريون والأكّديون، والأشوريون والبابليون وغيرهم.. ولم تكن هذه الحضارة إلّا جزءاً من حضارة الشرق العربي القديم كلّه. وفي تحليل مكونات هذا التراث الحضاري العظيم ليس بالمستطاع دائماً أن نحدد دور كل مجتمع من المجتمعات. فأين ينتهي جهد السومريين، وأين يبتدئ دور الأكديين؟.

لقد رأينا كيف تكللت جهود علماء الآثار وهم يبحثون عن أصول الحضارة الإنسانية المعاصرة إلى الكشف عن أدوار متلاحقة لحضارة متكاملة التكوين هي محصلة جهود الشعوب التي مرت على أرض الرافدين طوال آلاف السنين.

الفصـــل الــرابــع

التقـويـم التـأريخـي
وعصـور تـاريـخ بـلاد الـرافـدين

١ ـــ التقـويـم التـأريخي ومشـكلاتـه

إنه لمن الواضح أنه ليس بالإمكان تصور أي بناء سليم لدراسة تاريخ أية حضارة أو أي عصر من العصور دون أن تتوافر بادئ ذي بدء الأطر العامة لهذه الدراسة وبخاصة التقويم التأريخي Chronologie . أما وإن تحديد هذه الأطر يرتبط إلى حدٍّ كبير بالتوثيق أي بوجود النقوش والروايات التاريخية المعتمدة والرسمية ، فإنه مما لا بد منه في مثل هذه الظروف من أن يكون تتابع الأدوار التاريخية مقيّداً في المراحل الأولى من البحث بتعاقب الأسرات الحاكمة والأحداث الحربية . وقد أضحى هذا الأسلوب مألوفاً وتقليدياً لدى الباحثين في (الأشوريات) أو (الأكّديات) منذ بداية هذا القرن . وهكذا فإن تاريخ المعارك والصراع الحربي ، أو التاريخ الذي يعنى بالحدث هو مرحلة انتقالية في البحث كان لا بد منها قبل تناول التاريخ من وجهات أخرى . ففي مثل هذه المراحل الأولية من البحث يكون إيقاع الأدوار المتعاقبة مبنياً على تعاقب الأسرات الحاكمة والأحداث الحربية . وقد درج الدارسون على هذه الطريقة انسياقاً مع منهج الروّاد الأولين في البحث منذ مطلع هذا القرن . وإن المشكلة التي نواجهها الآن ليست في كثرة المؤلفات من هذا النوع ، لكنها كما يقول ب . غاريللي ، بصراحة ، هي أن كثيرين من الباحثين في الأشوريات لا يتراءى لهم أنه يمكن حالياً اتباع طرائق أخرى يتوجه الاهتمام فيها بصورة أكبر نحو الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ويجب الإشارة إلى أن المصادر الضرورية لهذا النوع من الدراسات متوافرة عن بلاد الرافدين وبلاد الشام بكثرة وهي وثائق اقتصادية وقانونية وإدارية ورسائل خاصة ورسمية تعد بالآلاف . فالأمر الضروري هو إذن العناية

بالتاريخ كله فلا يقتصر عمل الباحث على نشر النصوص وقراءة النقوش وإعداد التحليلات اللغوية المقارنة .

إلّا أنه ليس المقصود التقليل من أهمية البحث الأوّلي الذي يهدف إلى رسم الصورة الضرورية للأحداث وتطورها ولا من أهمية الدراسات التحليلية الموثقة للنصوص . ولكن المقصود هو التنبيه إلى ضرورة التوصل إلى محصلة تدخل نتائج البحوث التفصيلية التحليلية والنقدية في سياق التاريخ العام . وإننا نرى أن تكون صورة صحيحة وواضحة عن التاريخ العام ضرورية قبل الخوض في تفصيلات المشكلات والمسائل الجزئية .

إن من أهم المشكلات التي ما يزال يواجهها الباحث في التاريخ القديم مشكلة التقويم التأريخي ، وهي ما تزال بدون حلّ حتى الآن . ولكن هناك مشكلات أخرى يهتم بعض الدارسين بتناولها بجرأة أكبر ومنها المؤسسات الدينية والآداب والفنون .

فالتأريخ هو ترتيب الحوادث حسب تسلسلها الزمني ، وهو التأريخ النسبي . أما التأريخ المطلق فهو تحديد زمن الحادث . ويصطدم مؤرخ الشرق الأدنى القديم بمشكلة محيّرة سببها غياب الإطار الزمني الدقيق للأحداث والجدل الكبير حول تسلسلها . ويوجد عملياً الآن ثلاثة أنظمة متماسكة للتأريخ ولها جميعاً أنصارها الذين يدينون لها باقتناع تام . ولا بد من اختيار واحد من هذه الأنظمة . ولكن الشكوك لا تمس كل تاريخ الشرق الأدنى القديم وبلاد الرافدين على وتيرة واحدة ، فإن تعاقب الأحداث مثبت نسبياً حتى نحو القرن الخامس عشر ق . م . ولكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الكتابة أوجدت في أواخر الألف الرابع ق . م . وأننا نملك الآن وثائق غزيرة من الألف الثالث يمكن أن تضع بين يدي الباحثين والدارسين مصادر كافية لإعادة صياغة صورة مناسبة عن الماضي ، ولكن عامل الخطأ في تقدير الزمن ما يزال كبيراً بالنسبة للمرحلة السابقة على الغزو الكاشي (القرن السادس عشر ق . م) . ويقوم أساس أنظمة التأريخ جميعاً على التاريخ السلوقي الذي بدأ في بابل في نيسان عام ٣١١ ق . م[١] .

ومن هذا التاريخ يمكن الرجوع إلى ٧٤٧ ق . م بفضل لائحة كلود بطلميوس الذي قام بكتابة سجل ثبت أسماء ملوك الفرس والبابليين حتى الاسكندر المقدوني واستطاع هذا الفلكي

---

(١) R.A.Parker, W.H.Dubberstein, Babylonian Chronology 612 BC-AD 45 Chicago 1946, 18-19.

ـــ انظر أيضاً مقال روش الأساسي في المجلد الأول من تاريخ كمبردج عن العصور القديمة . بحث التقويم التأريخي .

المصري أن يسجل سني حكم هؤلاء الملوك ووقائع الكسوف الملحوظة في بابل وفي الاسكندرية في أيامهم . وعلى هذا الأساس أمكن إذن التأكد من دقة الحساب .

ويملك الباحثون أيضاً قوائم حوليات أشورية تؤرخ فيها الأحداث وتدعى فيها كل سنة من السنين باسم شخصية من الشخصيات الكبيرة في الدولة . ويذكر بعض الكتاب في هذه السجلات مظاهر فلكية . وهكذا فإنهم تمكنوا من حساب كسوف الشمس الذي وقع في العام العاشر من حكم الملك أشور دان الثالث في شهر سيمان ، ووجد أنه يوافق بالحساب ، الخامس عشر من شهر حزيران عام ٧٦٣ . وعلى هذا تمكنوا من تأريخ المدة الواقعة بين ٦٤٨ ــ ٩١١ ق . م . وتظهر مع ذلك بعض الشكوك .

فقد عثر على لوائح أخرى مجزوءة لا يمكن مطابقتها مع اللوائح السابقة . ولا بد عندئذ من اللجوء إلى اللوائح الملكية الأشورية والبابلية التي تشير في الغالب إلى عدد سني حكم كل ملك من الملوك ، وكذلك وثائق المحفوظات الرسمية التي تشير إلى أحداث دولية متوازية ومتعاصرة .

وبمقابلة معطيات كل هذه الوثائق تمكن الباحثون من بناء شبكة من المراسلات بين الأسرات المالكة الأشورية والبابلية والمصرية والحثية مما يهيئ المجال للتوصل إلى إطار للتأريخ والتقويم ربما لا يتجاوز الخطأ فيه عشر سنوات حتى القرن الخامس عشر . ولكن تأريخ الأحداث التي وقعت قبل ذلك يبقى مختلطاً ومشوشاً ويصطدم بصعوبات كبيرة .

وكانت نقطة الانطلاق للمناقشات التي دارت بين المعنيين بهذا الموضوع ظاهرة فلكية كشف النقاب عنها ف . كوغلر عام ١٩١٢ في مجموعة من نصوص الكهانة في مكتبة أشور بانيبال في نينوى . ففي لوحة من المجموعة الفلكية إنوما (أنو ــ إنليل) يذكر خسوف الكوكب فينوس في أيام الملك عمي صدوقا ، الملك العاشر من الأسرة البابلية الأولى . وباعتبار أن هذه الظاهرة تقع بصورة دورية ، فإن تعيين تاريخها الدقيق يكون بحساب المدة الواقعة في الفترة الزمنية الفاصلة بين الأسرة الأولى والفترات التي يكون تاريخها المطلق أكثر ما يكون وثوقاً . وقد اقترح الفلكيون عدداً منها بمقدار ما تظهر وثائق جديدة لتعديل معلوماتنا بهذا الصدد . وإن اكتشاف اللائحة الملكية الأشورية في خورسباد بخاصة وتوافق الأحداث بحسب ما كشفته وثائق ماري عن الفترة الواقعة بين شمسي أدد وحمورابي عدلت تعديلاً مقبولاً المعطيات الأولية(٢) .

(٢) أ . بارو. A. Parrot, Archéologie Mésopotamienne 2. Vol. Paris 1946/ 1953 pp.332-357.

ولكن ما تزال توجد بعد فروق في تقدير درجة الثقة التي يكون من المناسب منحها إلى بعض الوثائق، وكذلك بالنسبة لمدة حكم الملوك ومن أجل هذا لا نملك بعد أية معلومات دقيقة وعلى هذا الأساس فقد برزت ثلاثة أنظمة للتقويم التأريخي تختلف فيما بينها في التاريخ الذي يمكن عزوه إلى **حكم حمورابي**. يستند النظام الأول إلى حسابات الفلكي سيد رسكي، وقد أخذ بها من علماء الأشوريات ف. توروادنجان وغوتزه، ويقع عندهما عصر حمورابي بين ١٨٤٨ ــ ١٨٠٦، وهو التأريخ الطويل. أما التاريخ الذي اقترحه الفلكي سيول W.S.Sewel فقد تقبله س. سميث ثم روتن M.B. Rowton وعندهما يقع عصر حمورابي بين ١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ وهو التأريخ المتوسط. أمّا النظام الثالث فقد تبناه الأمريكي أولبرايت الذي ينزل تاريخ حمورابي إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ١٧٢٨ ــ ١٦٨٦، وهذا هو التأريخ القصير.

ويتفق الآن معظم علماء الأشوريات ومؤرخي حضارة بلاد الرافدين على الأخذ **بالتاريخ المتوسط** وأبرزهم روتن في سلسلة كمبردج للتاريخ القديم. ول. أوبنهايم في معهد شيكاغو للدراسات الشرقية. وب. غاريلّي في باريس.

٢ ــ مراحل تاريخ بلاد الرافدين

يرقى التاريخ السياسي لبلاد الرافدين إلى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد. عندما أقيم أقدم نظام سياسي معروف في البلاد في مملكة كيش، التي احتفظ ملوكها بمركز مرموق بعد تأسيس ممالك المدن السومرية بعد ذلك بقرنين. وأقدم من يُعرف حتى الآن من ملوك كيش هو إن ميبار جيزي ثم ميسِليم. ويمكن الآن بالاستناد إلى الوثائق التحدث عن عدد من ممالك المدن السومرية وأهمها لكش وأومّا. وقد عُرفت أسماء عدد من رجال الدولة والملوك والأمراء أهمهم في العصر السومري القديم، لوجال زاجيزي الذي حكم سومر في القرن الرابع والعشرين قبل الميلادي قبل قدوم شروكين (صرغون) الأكدي.

ويشكل قدوم شروكين وقبضه على السلطة وتأسيس مملكة أكّد نحو ٢٣٥٠ ق.م نقطة انعطاف حاسمة في تاريخ بلاد الرافدين. فقد أنهى مرحلة حكومات الدول ــ المدن واستطاع توحيد بلاد الرافدين تحت زعامته سياسياً أو عسكرياً بعد أن وضع السومريون أسس وحدتها الحضارية بنشر لغتهم ونظام الكتابة المسمارية. وحاول شروكين توحيد العالم القديم المعروف في مملكة واحدة. واكتشف كتّابه الذين رافقوه في حملاته وسجّلوا أخبار انتصاراته، جغرافية العالم القديم وأسماء أقطاره وأنهاره وجباله ومدنه.

واتسعت النظرة إلى العالم بعد تشكيل المملكة الموحدة مزدوجة الاسم «سومر وأكّد»، وتكوّن من الاحتكاك بالدول الأخرى والمدن العظيمة: ماري وإبلا، مفهوم الكونية فصار ملوك أكّد يسمون أنفسهم ملوك جهات العالم الأربع. وتغيرت النظرة إلى الحاكم الذي لم يعد ذلك الانسان الكاهن الطيّب الذي يعمل في خدمة الإله ورعاية بيته (المعبد)، كما كان في العصر السومري، بل هو إنسان تحول إلى إله بقوة أعماله الخارقة في العصر الأكدي الذي استمر قرابة قرنين.

وإذا كانت للدول أعمار وآجال فقد كان لا بد من ظهور شعوب أشد مراساً وأقوى بأساً عملت على إسقاط حكم الأكديين. وهكذا ظهر الكوتيون القادمون من الجبال الشرقية وأفسحوا بظهورهم المجال من جديد لانبعاث دول المدن والممالك السومرية: في أور ولكش وغيرهما، ولتأسيس أسرتين حاكمتين سومرية ــ أمورية في لارسا وإيسن مما مهّد السبيل أمام العناصر الأمورية للتغلغل أكثر في حوض الرافدين نحو ٢٠٠٠ ق.م وبخاصة حول بابل التي أسست فيها الأسرة البابلية الأولى وأبرز ملوكها حمورابي.

وبعد أن حكمت هذه الأسرة طوال ثلاثة قرون (القرن ١٩ ــ القرن ١٦ سنة) جاء الدور الكاشي مع تسرب هذه العناصر الجبلية التدريجي ثم سيطرتها النهائية على بابل وإقامة أسرة حاكمة فيها امتد حكمها نحو أربعة قرون (القرن ١٦ ــ القرن ١٢).

ويبرز من أواخر القرن الثاني عشر إلى أواخر القرن الحادي عشر دور مدينة إيسن. ثم دخلت البلاد كسائر مناطق الشرق الأدنى القديم في فترة اضطراب نجم عن حركات الشعوب العنيفة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وفي البلقان وآسية الصغرى. وكان من نتائج هذه التحركات انهيار الامبراطورية الحثية في آسية الصغرى وسقوط مدينة طروادة وأجاريت وغيرها من مدن الساحل السوري، وتراجع فراعنة مصر عن فلسطين وقدوم شعوب البحر واستيطانهم في المناطق الجنوبية من كنعان (فلسطين)، وتحرك العيلاميين نحو جنوب بلاد الرافدين واجتياح الآراميين لمعظم المناطق السورية ولحوض الفرات والجزيرة.

لقد أدّى هذا الانقلاب السكاني في الشرق الأدنى القديم إلى تغيير جذري في الأوضاع الدولية كان من أبرز مظاهره التكون التدريجي لمملكة أشور وتحولها إلى قوة عسكرية في المنطقة في مطلع الألف الأول ق.م. وقد استمر هذا الدور الأشوري المتفوق منذ أيام تكلات بلاصر الثالث (توكولتي ــ أبيل ــ إيسارا) ٧٤٤ ــ ٧٢٧ ق.م حتى سقوط أشور بيد الميديين في ٦١٢ ق.م.

وكانت الدولة البابلية الثانية (٦٢٥ ــ ٥٣٩ ق.م) آخر دول الرافدين المستقلة وآخر

مظاهر القوة في تاريخ بلاد الرافدين القديم قبل أن تسقط بابل بيد قوروش الفارسي الذي حولها إلى ولاية من ولايات امبراطوريته الواسعة ، وهو ما فعله الاسكندر وخلفاؤه السلوقيون بعدئذ ثم الفرثيون والساسانيون . ولم يسترد العراق دوره القديم في تاريخ المشرق العربي حتى الفتح العربي الإسلامي ، وتأسيس المدن العربية البصرة ، والكوفة وبغداد .

وفيما يلي **جدول زمني بأهم مراحل تاريخ بلاد الرافدين القديم** : (سنذكر أهم الأسماء فقط)

● ملوك كيش قبل عصر شروكين :

(٢٦٣٠ ــ ٢٣١٤)

(إن ــ) ميبار جيزي	٢٦٣٠ ــ ٢٦٠٠
ميسليم	~ ٢٥٥٠

● ملوك سومر :

(٢٤٣٢ ــ ٢٣١٦)

كو ــ بابا	
بوزور ــ سين	
أور ــ زبابا	
لوجال زاجيزي	٢٣٤٠ ــ ٢٣١٦

● أسرة أكّد :

(٢٣٣٤ ــ ٢١٥٤)

شروكين (سرجون)	٢٣٣٤ ــ ٢٢٧٩
ريموش	٢٢٧٨ ــ ٢٢٧٠
مانيشتوشو	٢٢٦٩ ــ ٢٢٥٥
نرام ــ سوين (نرام سين)	٢٢٥٤ ــ ٢٢١٨
شركليشري	٢٢١٧ ــ ٢١٩٣
دودو	٢١٨٩ ــ ٢١٦٩

● **أسرة أور الثالثة :**

(٢١١٢ ـــ ٢٠٠٤)

أور ـــ نامو	٢١١٢ ـــ ٢٠٩٥
شولغي	٢٠٩٤ ـــ ٢٠٤٧
أمار ـــ سوين (أمار سين)	٢٠٤٦ ـــ ٢٠٣٨
شو ـــ سوين (شو سين)	٢٠٣٧ ـــ ٢٠٢٩
إبي ـــ سين	٢٠٢٨ ـــ ٢٠٠٤

● **أسرة إيسن الأولى :**

(٢٠١٧ ـــ ١٧٩٤)

إيشبي ـــ إرّا	٢٠١٧ ـــ ١٩٨٥
لبيت ـــ إشتار	١٩٣٤ ـــ ١٩٢٤

● **لكش :**

(٢٥٧٠ ـــ ٢٣٤٢)

أور نانشه	٢٤٩٤ ـــ ٢٤٦٥
أكور جال	٢٤٦٤ ـــ ٢٤٥٥
إ ـــ أنا ـــ توما	٢٤٥٤ ـــ ٢٤٢٥
إن ـــ أنا ـــ توما (الأول)	٢٤٢٤ ـــ ٢٤٠٥
أنتمينا	٢٤٠٤ ـــ ٢٣٧٥
إن ـــ أنا ـــ توما (أياناتوم الثاني)	٢٣٧٤ ـــ ٢٣٦٥
إن ـــ انتار ـــ زي	٢٣٦٤ ـــ ٢٣٥٩
لوجال ـــ أندا	٢٣٥٨ ـــ ٢٣٥٢
أورو ـــ كاجينا = (أورو انيمجينا)	٢٣٥١ ـــ ٢٣٤٢

● **حكام لكش :**

(٢٢٣٠ ـــ ٢١١١)

جوديا	٢١٤١ ـــ ٢١٢٢

● أسرة لارسا :

(٢٠٢٥ ــ ١٧٦٣) منهما :

جونجونوم	١٩٣٢ ــ ١٩٠٦
سومو ــ إل	١٨٩٤ ــ ١٨٦٦
نور ــ أدد	١٨٦٥ ــ ١٨٥٠
سين ــ ادينام	١٨٤٩ ــ ١٨٤٣
ورد ــ سين	١٨٣٤ ــ ١٨٢٣
ريم ــ سين	١٨٢٢ ــ ١٧٦٣

● الأسرة البابلية الأولى :

(١٨٩٤ ــ ١٥٩٥)

سومو ــ أبوم	١٨٩٤ ــ ١٨٨١
سومو ــ لا إل	١٨٨٠ ــ ١٨٤٥
سين ــ مُبَلِّط	١٨١٢ ــ ١٧٩٣
حمورابي	١٧٩٢ ــ ١٧٥٠
سمسو ــ إيلونا	١٧٤٩ ــ ١٧١٢
عمّي ــ صدوقا	١٦٤٦ ــ ١٦٢٦

● الأسرة الكاشية منها :

(~ ١٥٧٠ ــ ١١٥٧)

بورنا ــ بورياش الأول	~ ١٥٧٠
كارا ــ إنداش	~ ١٤١٥
كاداشمان ــ إنليل الأول	~ ١٣٧٠
بورنا بورياش الثاني	~ ١٣٥٠
كاداشمان إنليل الثاني	١٢٧٩ ــ ١٢٦٥
مردوك ــ أبلا ــ إدينا الأول	١١٧٣ ــ ١١٦١
إنليل ــ نادن ــ أخي	١١٥٩ ــ ١١٥٧
(إنليل شوما ــ أُصر)	

● **أسرة إيسن الثانية منها :**

(~ ١١٥٨ ـــ ١٠٢٧)

نبوخذ نصَّر الأول	١١٢٦ ـــ ١١٠٥
أدد ـــ أبلا ـــ إدينا	١٠٦٩ ـــ ١٠٤٨

● **أسرة بلاد البحر الثانية :**

(١٠٢٦ ـــ ١٠٠٦)

● **أسرة بازي :**

(١٠٠٥ ـــ ٩٨٦)

● **أسرة عيلامية**

مار ـــ بيتي ـــ أبلا ـــ أصر	٩٨٥ ـــ ٩٨٠

● **أسرة غير مؤكدة :**

(٩٧٩ ـــ ٧٣٢)

حكم في هذه الفترة حوالي ٢٢ ملكاً

● « **الأسرة البابلية التاسعة** »

(٧٣١ ـــ ٦٢٦)

نابو ـــ مُكين ـــ زيري	٧٣١ ـــ ٧٢٩
تكلات بلاصر الثالث (ملك أشور)	
باسم : بولو	٧٢٨ ـــ ٧٢٧
شلما نصر الخامس (ملك أشور)	
باسم أولولايو	٧٢٦ ـــ ٧٢٢
مردوك بالادان الثاني	٧٢١ ـــ ٧١٠
شروكين الثاني (ملك أشور)	٧٠٩ ـــ ٧٠٥
سنحريب (ملك أشور)	٧٠٤ ـــ ٧٠٣
مردوك زاكر شومي	٧٠٣
مردوك ـــ بالادان الثاني (للمرة الثانية)	٧٠٣

بل ــ إبني	٧٠٢ ــ ٧٠٠
سنحريب (ملك أشور)	٦٨٨ ــ ٦٨١
أسرحدون	٦٨٠ ــ ٦٦٩
شمس شوما أكين	٦٦٧ ــ ٦٤٨
(أخو أشور بانيبال)	

● **ملوك أشور :**

شمشي أدد (الأول)	١٨١٣ ــ ١٧٨١
إشمي ــ دجن (الأول)	١٧٨٠ ــ ١٧٤١
أدد نيراري (الأول)	١٣٠٧ ــ ١٢٧٥
شلما نصر (الأول)	١٢٧٤ ــ ١٢٤٥
توكولتي نينورتا (الأول)	١٢٤٤ ــ ١٢٠٨
أشور نيراري (الثالث)	١٢٠٣ ــ ١١٩٨
أشور دان (الأول)	١١٧٩ ــ ١١٣٤
أشور ريشا إشي (الأول)	١١٣٣ ــ ١١١٦
تكلات بلاصر (الأول)	١١١٥ ــ ١٠٧٧
أشور ــ بل ــ كالا	١٠٧٤ ــ ١٠٥٧
شمشي أدد (الرابع)	١٠٥٤ ــ ١٠٥١
فترة مجهولة	
أدد نيراري (الثاني)	٩١١ ــ ٨٩١
توكولتي نينورتا (الثاني)	٨٩٠ ــ ٨٨٤
أشور ناصر بال (الثاني)	٨٨٣ ــ ٨٥٩
شلما نصر (الثالث)	٨٥٨ ــ ٨٢٤
شمسي أدد (الخامس)	٨٢٣ ــ ٨١١
أدد نيراري (الثالث)	٨١٠ ــ ٧٨٣
شلما نصر (الرابع)	٧٨٢ ــ ٧٧٣
أشور دان (الثالث)	٧٧٢ ــ ٧٥٥

أشور نيراري (الخامس)	٧٥٤ ــ ٧٤٥
تكلات بلاصر (الثالث)	٧٤٤ ــ ٧٢٧
شلما نصر (الخامس)	٧٢٦ ــ ٧٢٢
شروكين (الثاني)	٧٢١ ــ ٧٠٥
سنحريب	٧٠٤ ــ ٦٨١
أسر حدون	٦٨٠ ــ ٦٦٩
أشور بانيبال	٦٦٨ ــ ٦٢٧
أشور أُبلِّط (الثاني)	٦١١ ــ ٦٠٩

● **الأسرة الكلدانية (البابلية الثانية):**

نابو بولاصر	٦٢٥ ــ ٦٠٥
نبوخذ نصر (الثاني)	٦٠٤ ــ ٥٦٢
أول ــ مردوك	٥٦١ ــ ٥٦٠
نريجليسار	٥٥٩ ــ ٥٥٦
لاباشي مردوك	٥٥٦
نبونيد	٥٥٥ ــ ٥٣٩

● **الحكم الفارسي الأخميني:**

قوروش الثاني	٥٣٨ ــ ٥٣٠
قمبيز الثاني	٥٢٩ ــ ٥٢٢
برديا	٥٢٢
نبوخذ رصر (الثالث) = نبوخذ نصر	٥٢٢
نبوخذ رصر (الرابع) = نبوخذ نصر	٥٢١
داريوس الأول	٥٢١ ــ ٤٨٦
كرزكسيس	٤٨٥ ــ ٤٦٥
بل شيماني	٤٨٢
شمش إريبا	٤٨٢
أرتاكرزكسيس (الأول)	٤٦٤ ــ ٤٢٤

داريوس الثاني	٤٢٣ ــ ٤٠٥
أرتاكزركسيس (الثاني) ممنون	٤٠٤ ــ ٣٥٩
أرتاكزركسيس (الثالث) أوخوس	٣٥٨ ــ ٣٣٨
أرسيس	٣٣٧ ــ ٣٣٦
داريوس (الثالث)	٣٣٥ ــ ٣٣١

● **الاسكندر المقدوني وأسرته :**

٣٣٠ ــ ٣٠٧

● **الأسرة السلوقية :**

حسب التقويم السلوقي العام ١ = ٣١١ ق . م

٣١١ ــ ١٢٥ ق . م

● **الفرثيون :**

٢٥٠ ــ ١٢٢

إن الجدول الذي قدّمناه ، تقريبي . ولم نسجل فيه سوى الأسماء الهامة التي كان لأصحابها دور واضح في تطور تاريخ بلاد الرافدين .

إن التواريخ التي تقع بين عصر أور الثالثة والقرن التاسع ق . م . هي التي اعتمدت لدى ج أُواتس في تاريخ بابل ١٩٧٩ . ولا يزيد احتمال الخطأ فيها على ٢ ــ ٣ عقود من السنين . أما التواريخ التي تقع ما بين ٩٠٠ إلى نهاية التاريخ الرافدي فلا يزيد احتمال الخطأ في تقديرها على سنة واحدة إلى سنتين .

ويعتمد هذا التقويم التأريخي كل من : إدمون سولبرجر وكوبّر في (نقوش ملكية سومرية وأكدية ، باريس ١٩٧٢) و ج . أ . برنكمان : تاريخ بابل السياسي بعد العصر الكاشي ، روما ١٩٦٨ ، ويُعد هذا الكتاب أهم ما صدر حتى الآن في تاريخ بلاد الرافدين (بابل) في الألف الأول ق . م .

الفصـــل الخـامس

سومـــر
العصـــر السومري القـديـم

١ ـــ فجـر التـاريخ في أرض الـرافـديـن : تكـويـن المجتمعـات الـزراعيـة الأولـى

منذ الألف الثامن ق . م أخذت، شعوب الشرق الأدنى القديم التي كانت تحمل ملامح النموذج المتوسطي المشابه لملامح العناصر الحالية ، تستقر على سفوح الجبال المحيطة بالسهل الرافدي .

وقد أخذت هذه الجماعات تؤسس لنفسها نظاماً اقتصادياً يقوم على الزراعة والرعي محل نظام جمع الطعام . ولكن يبدو أن الوسائل البسيطة التي كان يملكها الناس للمحافظة على وجودهم لم تكن لتسمح لهم بالتوسع أكثر نحو السهول لاحتلالها ولذا كانوا يفضلون التحصن بالمرتفعات والامتناع بها . وأقاموا على الهضاب التي كانت تتلقى نسبة من الأمطار تكفي لمحصول مناسب . ويمكن التعرف على آثار هذه الجماعات في مناطق كثيرة من فلسطين وسورية وشمال العراق حيث تقع قرية جرمو أقدم تجمع قروي معروف في بلاد الرافدين (٦٨٠٠ ق . م) . فيها آثار رعي الماعز وزراعة الشعير ثم صناعة الفخار . في حين تعد بقراص في وادي الفرات ، في سورية ، أقدم موقع معروف للاستقرار على ضفة النهر الكبير بعد الانتقال من المرتفعات (٦٤٠٠ ق . م) .

ولا يمكن الكلام عن فجر الحضارة في العراق دون ملاحظة ما كان يجري في سائر المشرق العربي القديم الذي كان أرض حضارة واحدة مشتركة . فبعد أن أخذ الفلاحون يهبطون من الهضاب إلى السهول اتسع نطاق الاستيطان إلى مراكز أخرى : حسّونة على نهر دجلة ، وأريحا في وادي الأردن .

وإلى جانب تصنيع الحجر بدئ منذ الألف الخامس ق. م باستخدام معدن النحاس. وبدأت تظهر أولى بوادر المؤسسات الاقتصادية بظهور الأختام التي تدل على التملك، وأولى بوادر النشاط الفني بتزيين الفخار وأخذت تتأسس حياة دينية بوضع طقوس وقواعد للدفن وبناء القبور. وإلى جانب هذا التطور الفكري كان هناك تطور اجتماعي ولكن من الصعب تتبعه بدقة أو التعرف على المراحل التي مر فيها. وكل ما يمكن القيام به هو ملاحظة تعاقب المراكز الأثرية وما بينها من اتصال: حسونة، سامرّا، تل حلف في الشمال، ثم إريدو وحاج محمد في الجنوب. ففي هذه المراكز تطورت تقنيات صناعة الفخار ومنها انتشرت النماذج الخاصة بكل مركز من هذه المراكز بين الألفين الخامس والرابع.

وإنه من التعسف أن نرجع تاريخ الجماعات المختلفة في هذه الأدوار إلى مجرد تطور محدود في صنع الفخار أي إلى شكل معين من أشكال التطور التقني والصناعة التطبيقية. إلّا إنه من غير الممكن التخلي عن هذه الطريقة لمعرفة بعض ملامح التطور قبل عصر الكتابة وفي فجر التاريخ.

كانت رقعة الأرض التي اكتشفها أولئك الذين هبطوا من الجبال والمرتفعات نحو السهول الممتدة بين دجلة والفرات هي التي دعيت لأول مرة باسم عرفت به: سومر، الذي أطلق على المناطق الجنوبية، بينما عرفت المناطق الوسطى بعدئذ باسم أكّد ثم بابل. وقد تعلم الناس أن عليهم أن يعملوا ليأكلوا. فقد احتلوا أراضي تشكلت على مر آلاف السنين من تراكم اللحقيات التي حملتها المياه، فعملوا على تصريف المياه عنها وردم المستنقعات التي تشكلت فيها. وشقوا الأقنية لاستغلال أراض غنية التربة في أقدم نشاط زراعي عرفه التاريخ وبوسائل أولية وأدوات بدائية بسيطة وإلى جانب تلك التلال والمرتفعات كانت تمتد الأراضي المغطاة بالأعشاب المائية والقصب والبرك الغنية بالسمك. فالمياه وفيرة كافية للري في الصيف ولارواء قطعان الماشية من الماعز والغنم.

وهكذا توفرت لتلك الجماعات البشرية الأولى الشروط الضرورية المناخية والمادية الضرورية للعيش. فلا عجب إذن من أن يلقوا هنا عصا الترحال بعد أن نقلوا معهم ما استطاعوا حمله من ممتلكاتهم البسيطة وأوانيهم الفخارية وأدواتهم الحجرية وبذور الحبوب التي عرفوها وجرّبوها. وهكذا انتقلت الحياة الزراعية في بلاد الرافدين من الشمال إلى الجنوب.

٢ ــ حضارة العُبيد

يرقى تاريخ تلك المجتمعات الزراعية الأولى في جنوب بلاد الرافدين إلى عصر العُبيد. (نسبة إلى موقع تل العُبيد في جنوب العراق)، على مقربة من موقع أور المدينة السومرية العتيقة. وقد بدأت

تظهر نتائج التنقيبات في موقع العبيد منذ أكثر من نصف قرن . وربما تهيأ للباحثين في بادئ الأمر أن مرحلة حضارة العُبيد لم تكن إلّا مرحلة عابرة من حضارة بلاد الرافدين وأن السكان آنذاك كانوا جماعة من البدائيين الذين سكنوا مناطق المستنقعات وعاشوا في أكواخ بسيطة كانت مأوى لهم .

لكن المكتشفات الأثرية الحديثة تدحض هذه الافتراضات . وإن الرأي الآن هو أن تلك الموجة الأولى من السكان كانوا من أول من سكن أرض بلاد الرافدين . فاحتلوا التلال اللحقية ومارسوا الزراعة ببراعة . وشيدوا القرى والمدن باللّبن المجفف والآجر الذي صنعوه من الطين بقوالب أعدّوها ، لأن الحجر ليس متوافراً في أرض الجنوب . وبنوا معابد لأربابهم التي عبدوها وأقاموا حولها المنشآت المعمارية .

لقد مارست هذه المجتمعات الرافدية الأولى تأثيراً حضارياً على كل بلاد الرافدين وعلى مناطق واسعة من المشرق العربي من شواطئ الخليج إلى أجاريت على المتوسط . ويمكن تتبع تأثير ثقافة العبيد وانتشارها شرقاً إلى المناطق الايرانية القريبة من بحر قزوين وغرباً حتى وادي العاصي والساحل السوري .

ويرى بعض الباحثين أن حضارة مجتمع تل العُبيد يمكن أن تعد أقدم ما هو معروف من حضارات جنوب بلاد الرافدين المتعاقبة منذ أقدم العصور . وقد ترك ذلك المجتمع بصماته على لغته التي لا نعرفها والتي دخلت مفردات كثيرة منها في اللغة السومرية بعدئذ . وعلى الرغم من جهلنا بالاسم الذي كان يدعو به ذلك الشعب نفسه فإننا نستطيع أن نستنتج من بعض الباحثين أنه لم يكن سومرياً . أمّا النصوص المكتوبة على رقم الفخّار ، وهي أقدم رقم مكتوبة بعلامات تصويرية فهي لا تمكّن من التوصل إلى معلومات قاطعة ، ولكنها تضع أمامنا بعض الملاحظات المفيدة . فاسما دجلة والفرات : إدجلات وبوراتوم ليسا من اللغة السومرية . وإلى لغة مجتمع العُبيد ذاك تعود أسماء بعض المدن الرافدية القديمة التي قامت بأدوار مهمة في العصر السومري : أور ، لكش/لاغاش ، كيش ، نيبور ، إريدو . ويؤكد س . كريمر S.Kramer أن مفردات هامة من لغة أولئك الناس انتقلت إلى اللغة السومرية ، وهي مفردات تتعلق بالمزارع ، والراعي ، والفلّاح ، والنساج ، والنجار . وكل هذه المفردات وأمثالها تدل على مستوى حضاري متقدم قام على قواعد من الخبرة الطويلة .

٣ ــ « الثورة » المدنية

يتميز الألف الرابع ق . م بسلسلة من الكشوف الهامة التي أثّرت كثيراً في مجرى تطور المجتمعات البشرية ، وهي في المراحل الأولى من الاستقرار . ومن هذه الكشوف دولاب الخزاف الذي ساعد على تصنيع الفخار بوفرة وبأنماط متشابهة ، وقالب اللبن ، والتعدين . وقد نجم عن تطور

التقنيات زيادة في كميات الانتاج وضعف في أصالة الصنعة. فبعد الخزف اللامع الذي تميز به انتاج تل خلف في أعالي الجزيرة، في سورية، ظهر الفخار القاتم لموقع تل العُبيد وهو يختص بتزيينات هندسية ضعيفة ويوضح انتشار هذا النموذج في مناطق وديان الخابور والبليخ والعاصي الأدنى مدى انتشار حضارة عصر العُبيد التي عقبت حضارة تل حلف. ولا يعود نجاح هذه الحضارة في ما حققته إلى ما تملكه من صفات ذاتية، ولكن على الأرجح إلى انتشار حضارة جديدة تعتمد على أسس جديدة في الانتاج وبناء المجتمع قوامها الانتاج الوفير للأدوات بنموذج متكرر وتحسين أساليب تنظيم الري.

وقد شجع التقدم في الأساليب الزراعية على تشييد مخازن لحفظ الغذاء، وكانت له نتائج هامة جداً على حياة الناس، منها تزايد عدد السكان وتأسيس المدن. وتبعاً لذلك حدث تغير ملموس في بنيات المجتمعات. ويبدو أنه بدئ حينئذٍ بتخطيط نماذج دول ــ المدن التي عرفنا بعض أخبارها من المصادر السومرية.

وكلما أوغلنا في البحث وجدنا أنفسنا أمام أسئلة هامة تطرح مشكلات كبيرة قد يصعب حلها ومنها أسئلة حول هوية هؤلاء السكان الذين وضعوا أسس الحضارة في بلاد الرافدين قبيل العصر السومري. إنه ليس من الدقة في شيء أن نتحدث عن السومريين قبل عصر أوروك ٤ . وقد يكون تشكل مجتمعات عصر العُبيد من تلاقي السكان المحليين في مناطق الخليج العربي بعناصر وفدت إلى إريدو من مناطق سامرّا وتل حلف (إريدو ١٩).

إن ما تؤكده الكشوف والدراسات التي نعرض نتائجها المتداولة تؤكد حقيقة مفادها وجود اتصال حضاري في بلاد الرافدين والشرق العربي كله منذ أقدم العصور. وبالنسبة إلى التاريخ القديم فإن هذا التواصل موجود ما بين العصر الحجري الحديث ومطلع العصور الكلاسيكية. ولكن ليس معنى هذا أن كل شيء أضحى واضحاً ومفهوماً. فما يزال من الضروري بذل مزيد من الجهود لمعالجتها. إلّا أن لحمة متصلة ومتينة تربط الآن ما بين المجتمعات الزراعية الأولى في كل الشرق الأدنى والمجتمعات المدنية الأولى في حوض البحر المتوسط. وتحتل بلاد الرافدين في هذه المراحل التأسيسية من تاريخ الحضارة موقعاً مرموقاً ومتصلاً وما ظهور الكتابة في مرحلة ما عند هذه المجتمعات الزراعية إلّا علامة من علامات التطور الفكري والمادي وليس خاتمة له، بل إنه دفع نحو تطورات نوعية أخرى أكبر وأوسع مدى، دون أن يغير كثيراً من مجرى الأحداث ومن حياة الناس المعاصرين.

إنه ليس صحيحاً أن ظهور الوثائق الأولى المكتوبة قد شكل فاصلاً قاطعاً بين ما قبل التاريخ والتاريخ. وليس من الصحيح أيضاً أن نتصور أن التسجيل والتأريخ مناقضان لما قبل التاريخ

كالتناقض بين النور والظلام . فالألواح الأولى التي كتبت بكتابة تصويرية في الألف الرابع ق . م تكاد أن تكون غير مفهومة . وحتى عندما نتوصل إلى فك طلاسمها فإنه من المحتمل ألّا نجد فيها إلّا مجرد جداول حسابات مشابهة لتلك التي تتضمنها بعض الألواح التي عثر عليها في السويات العتيقة من مواقع المدن السومرية . وهي تزودنا بأسماء بعض الأشخاص . ويمكن أن نستنتج من بعض الدلائل اللغوية وجود عناصر سومرية منذ ذلك العصر الباكر إلى جانب عناصر أخرى . ونستطيع كذلك أن نوضح من خلال تلك الوثائق بعض المعطيات الاقتصادية . ولكن الآثار هي أكثر بلاغة من تلك الأسماء الصمّاء .

فالمنشآت المعمارية من الألف الرابع ، وهي منشآت دينية ومدنية وعسكرية دفاعية ترتبط بعصر البطولة والملاحم التي حفظت وسجلت بعدئذ . وقد مرت على البلاد تطورات هامة لم تكن هناك وسيلة لتسجيلها لأن الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد . ولم توجد الكتابة إلّا بعد تطورات اقتصادية ، زراعية ، وصناعية حرفية ، وتجارية ، وإدارية ، تطلبت التسجيل والتوثيق .

وهكذا فإن فجر تاريخ بلاد الرافدين يرقى إلى الألف الثامن قبل الميلاد ، أي إلى ما قبل العصر السومري بآلاف السنين .

٤ ــ المدينة السومرية

أوروك (الوركاء) منطلق الحضارة السومرية

قامت بعثة علمية ألمانية بالتنقيب في موقع أوروك (الوركاء) منذ العام ١٩٣٠ ونشرت تقاريرها عن نتائج التنقيب ضمن سلسلة مطبوعات الأكاديمية البروسية . وبعد توقف أعمال التنقيب أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) عادت البعثة إلى استئناف أعمالها عام ١٩٥٧ بإدارة العالم الأثري لانزن H.Lanzen الذي نشر تقريراً عن معبد أوروك في السوية الرابعة (مجلة الدراسات الأشورية ZA, NF.15. 1949 1-20) . ففي موقع معبد إينانا الذي كان مكرساً لعبادة ربة الخصب السومرية أمكن تمييز ثماني عشرة طبقة أثرية ١ ــ ١٨ .

أما الطبقة (السوية) ١٨ ــ ١٥ فهي معاصرة للمرحلة الأخيرة من عصر العُبيد التي استمرت ٤٠٠ سنة من ٣٩٠٠ ــ ٣٥٠٠ . وتبدأ من السوية ١٤ آثار حضارة أوروك التي استمرت في آثار السويات ١٤ ــ ٤ حتى نحو ٣١٠٠ ق . م ومن دلائل هذا العصر الخزف الجديد المغطى بطبقة حمراء أو رمادية ، ومصقولة عند محيطها ونادراً ما تكون سوداء ، أو مصفرة دون دهان

أو تلوين . وإن الأشكال لتختلف باختلاف السويات ولكن بدءاً من السوية الخامسة نصادف كؤوساً وجراراً بعروة وهي مؤشرات تدل على تطور تقني ملحوظ . ويمكن التأكد بالوقت نفسه من التقدم في فن العمارة فتزداد مقاييس المنشآت العمرانية وأبعادها . ولم تقتصر هذه النهضة العمرانية على أوروك وحدها لأننا نستطيع أن نسجل ملاحظات مماثلة في أور وإريدو ولكش .

وهناك ملاحظة أخرى يجدر بنا تسجيلها هنا وهي أنه بدءاً من الطبقتين ٥ و ٤ بدأ يحل الختم الأسطواني المنقوش ، شيئاً فشيئاً محل الختم المسطح . أما بدايات الكتابة فنجدها في آثار السوية الرابعة . وهي في هذه المرحلة كتابة تصويرية ترمز فيها الصور إلى أشياء مادية وكائنات حية قبل أن تختص بقيمة صوتية أو لفظية . وتبدو بعض علامات الكتابة بأشكال تجريدية لا نستطيع دائماً إدراك ما ترمز إليه . ولما كانت كل علامة تدل على فكرة فإن الصعوبة كبيرة في معرفة كيفية القراءة . فهل كانت تتم بتفسير الأشكال أم بالقراءة وفق قواعد معينة ؟ إننا لا نستطيع التغلب على بعض الصعوبات التي تعترض الإجابة عن مثل هذه التساؤلات إلّا باللجوء إلى المقايسات والموازنات مع ما تطورت إليه الكتابة السومرية في المراحل التالية لعصر أوروك ٤ ، وبدراسة الوثائق التي تم اكتشافها في أماكن أخرى (شروباك ، وأبو صلابيخ) والوثائق التي استخرجت من السويتين ٣ ، ٢ المعاصرة لنقوش جمدة نصر وكتاباتها .

ومن المحتمل أن تكون أوروك قد قامت بدور شبيه بالدور الذي قامت به إريدو في العصر الذي ظهرت فيه المجتمعات القروية الأولى في جنوب بلاد الرافدين . ولكن أوروك أضحت بعدئذ أكبر مركز حضاري أشع بتأثيره على المناطق المجاورة مدّة طويلة . ومن الناحية الأثرية يبدو الموقع نموذجياً في ما يقدمه من إمكانات لتتبع دراسة المراحل المختلفة في تطوره . وقد أمكن بسهولة تمييز السويات ٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢ . وأهم ما اكتشف في هذه السوية الأخيرة تمثال رأس سيدة أوروك الرائع والبرج المدرّج ، وهو الصيغة الأولية لما دعاه الأكديون فيما بعد بالزقورة (زقوراتو) بالإضافة إلى نقوش دقيقة على الأختام المصنوعة من الحجارة الكريمة تمثل موضوعات مستقاة من طقوس العبادة ومن الحياة اليومية .

إن التمييز بين السويات المختلفة على هذه الصورة يسمح لنا بتقدير عمر الأشياء المكتشفة والنصوص بصورة مناسبة ومعقولة . ويلاحظ استمرار وجود اتصال حضاري دون انقطاع أو فاصل ، وتطور حثيث نحو الحياة المدنية . وهنا يتبدى لنا هذا التحول الخطير في حياة الناس : وهو أن التطور الاقتصادي أدى إلى تباين في تركيب المجتمع . وتشكل فئات مختصة في داخل المدن وبنسب متعاظمة لتقوم بأعمال مختلفة دون أن تعيش من الزراعة .

أما اختراع الكتابة فليس إلّا نتيجة طبيعية لزيادة تعقيد الحياة الحضارية الاقتصادية والاجتماعية ولتزايد حاجات الناس. وإن المؤرخ هو الذي قرر للكتابة هذه الأهمية الخاصة لكونها عاملاً مساعداً لتقدير تاريخ الأشياء والأحداث المكتشفة بالحفريات الأثرية وأضحت الوثائق المكتوبة بالمسمارية (السومرية والأكدية) أكبر أهمية من الوثائق المادية الصمّاء. ولكن ينبغي تناول الأمور بحذر، لأن الكتابة في العصر الذي نتحدث عنه (النصف الثاني من الألف الرابع) لم تكن واضحة، ولا يمكن أحياناً ترجمة النصوص ولكن قد يمكن تحديد طبيعة النص من التعرف على نوع بعض العلامات المسمارية، التي يعرف تطور أشكال كتابتها في عصور لاحقة، فيقرر عندئذ صنف النص اقتصادياً كان أم معجمياً أم إدارياً ... وهذا على ضآلته أمر له أهميته.

جمدة نصر ومقدمات العصور التاريخية (٣١٠٠ ــ ٢٩٠٠ ق. م)

اكتشف هذا الموقع العالم س. لانغدون عام ١٩٢٠ ونشر تقريره عنه (١٩٢٤ ــ ١٩٣٠)(١). وقد وجدت آثار كبيرة ومهمة عن هذه المرحلة في مراكز متعددة من العراق القديم. ويمكن أن نعد هذه المرحلة، تمهيداً لظهور الأسرات الحاكمة في سومر.

تطور في ذلك العصر صنع الخزف، وصنعت الأواني بأشكال مخروطية وعثر على كؤوس وجرار. أمّا الرسوم فكانت مستوحاة من أشكال هندسية وملوّنة بالأسود. وبقي الحجر المادة الأولية في الصناعة ولكن بدئ باستخدام المعدن إلى جانبه. ويمكننا أن نأخذ من النقوش والصور فكرة عن الثياب. فالثوب كان يشد على الوسط بحزام وكان الشعر طويلاً يرفع بعصابة تشد على الرأس. وقد كشفت أعمال العالمين مورغان و وولي عن جوانب حضارة جمدة نصر التي سبقت مباشرة عصر الأسرات الحاكمة. وتأتي في أواخر ذلك العصر مرحلة حافلة بالأساطير، ربّما وقعت فيها أحداث الطوفان الذي يتحدث عنه المؤرخ البابلي الكداني الكاهن بروسوس وتتأكد واقعته بالكشوف الأثرية في مراكز الحضارة في العراق الجنوبي.

وينبغي أن يذكر أنه منذ عصر أوروك ٣، ٢ الموازي لعصر جمدة نصر. بدأ يظهر نظام سياسي للمجتمع الرافدي. فكان رأس السلطة في المدينة يدعى إن = EN أي سيد، وربما حمل هذا اللقب معنى دينياً. وهو على الأرجح الشخصية البارزة التي تشاهد صورتها على المشاهد الاحتفالية المنقوشة على الأختام الأسطوانية، حيث يمثل الموقع المركزي في الاحتفالات الرسمية والطقوس الدينية.

---

(١) S.Langdon, L. Watelin, Excavation at Kish 3 Vol. Paris 1924-1930.

وبما أن المعبد كان أهم منشأة معمارية في المدينة فينبغي أن يكون هو نفسه القصر الذي كان يقيم فيه الحاكم .

وهكذا يغلب الظن أن الوظيفتين : الزمنية للأمير والكهنوتية للكاهن الأكبر كانتا متحدتين في شخص واحد بشكل يمكننا أن نقول إن المدن كانت حكومات مدن إقطاعية دينية . وإلى جانب « السيّد » كان يوجد « شيوخ » لا بد أنه كانت لهم سلطة سياسية ما .

« الديمقراطية » في فجر التاريخ السومري

درس الباحث المختص في الدراسات السومرية جاكوبسن النظام السياسي في سومر في تلك المرحلة البدائية التي تعددت فيها الدول ــ المدن ، فرأى صورة من (الديموقراطية) أسبق زمنياً بكثير مما عرف من الديموقراطية اليونانية . ويرى جاكوبسن[٢] ، إن الوثائق التي تتوافر بين أيدينا تبين أن النظام السياسي في جنوب بلاد ما بين النهرين في فجر التاريخ السومري كان يحمل ملامح ديموقراطية ، فهو لم يكن نظاماً فردياً كما آل إليه الأمر بعد ذلك . فالأمور العامة في مجتمعات المدن الأولى كانت تدار من قبل مجلس من كبار السن (شيوخ) بينما كانت تمارس السيادة (جمعية عمومية) تضم جميع الرجال الأحرار . ولهذه الجمعية سلطة سياسية فكان من صلاحياتها فض المنازعات التي يمكن أن تنشب وبت القرارات الهامة كالحرب أو السلم ، ويمكن في الحالات الضرورية الطارئة تسليم السلطة الحكومية لوقت محدود إلى أحد الأعضاء .

ومهما يكن ، ربما كان هذا النوع من الحكم معروفاً في بداية التاريخ السومري . لأن الوثائق المكتشفة بعد ذلك كانت تعبر عن ارتباط مملكة البشر بمملكة الأبطال والآلهة . وربما كان هذا المجلس استشارياً فقط ، بجانب رئيس السلطة . ولكن وجود هذه المؤسسة يدل على أن سلطة الحاكم كانت لها حدود مرسومة ومعينة . إلّا أن هذا المجلس لم يستمر طويلاً في التاريخ السومري لأن التطور الاجتماعي ــ السياسي للبلاد أدّى إلى تكون الحاجة الملحة إلى اتخاذ قرارات سريعة في الحالات الضرورية والاستثنائية وإلى وضع السلطات بيد أمير « إن » EN أو « إن ــ سي » EN-Si أمير ، كاهن أوبيد رجل كبير = (ملك) : LUGAL .

وقد وضع الكهان ومسجلوا الأخبار لوائح رسمية بأسماء الملوك ومدة حكم كل منهم ولكن التقديرات الزمنية في هذه الجداول جاءت مطولة بشكل غير معقول حتى أن مدد حكم الأسرات الحاكمة (قبل الطوفان) تصل إلى حدٍ خيالي . ومن المحتمل أن تكون الوظيفة الدينية لرأس الدولة في

---

(٢) T. Jacobsen, Early Political Development in Mesopotamia, ZA, 52 (1957) 91-140.

سومر قد جاءت قبل الوظيفة السياسية . ويمكن أن تكون المدن السومرية بالأصل إمارات كان يحكمها سادة دينيون عملوا على إدارة مجتمعاتهم باسم الآلهة من معابد ضخمة كانت أقدم ما أنشئ من المباني الرسمية في دولة المدينة ــ المعبد . إلّا أن الأوضاع في المدن السومرية أخذت تتطور نحو الملكية العسكرية التي تفوق فيها مركز الرجل الكبير القوي = (لوجال) .

٥ ــ الملكيــة العسكـرية

بعد عصر طويل ساد فيه الكهنة مجتمعات المدن السومرية يبدو أنه مر عصر بطولي ظهرت شخصيات قوية أضحت بعدئذ موضوعاً للأساطير مثل جلجامش وإن مركار . ويستخلص الدارسون من بعض الملاحظات الأثرية أنه كان لبعض المدن أسوار حصينة ومرتفعة . والمثال النموذجي على ذلك مدينة أوروك التي بلغ طول أسوارها ٩٫٥ كم وهي محفوفة بأكثر من ٩٠٠ برج نصف دائري وتشمل مساحة من نحو ٥٠٠٠ م^{2} . وتعزو التقاليد تشييد هذا السور إلى جلجامش الذي يرد ذكره في قوائم ملكية سومرية إلى جانب لوجال باندا ودموزي . وقد حملت الأرقام الخيالية الدالة على مجموع سنوات حكمهم الطويلة بعض المؤرخين على الشك بوجود حقيقي للملك جلجامش . ولكن هناك حالات مماثلة كانت تبدو فيها بعض الأسماء خيالية ولكن جاءت البراهين المكتوبة بعدئذ على صحة وجودها . فقد يكون عمل جلجامش قد ضُخم إلى حد كبير تحول فيه جلجامش إلى بطل فوق مستوى الإنسان ، وقد أضحت الآن الأساليب المتبعة في صياغة الأغاني والأناشيد الشعبية البدائية أكثر وضوحاً من ذي قبل بما لها من دلالة تاريخية . فبعض عواهل سومر مثل جلجامش وإن مركار يرد ذكرهم في ألواح عتيقة من شروباك وهم يحملون اللقب إن EN ومعناه سيّد لا لقب (ملك) = لوجال الذي ازدادت أهميته فيما بعد . وربما كان أول من حمل لقب لوجال هو ملك كيش ميبار جيزي Mebargezi وهو من خصوم جلجامش في إحدى الملاحم السومرية . وينبغي تقدير زمن هذه الأحداث في نحو ٢٧٠٠ ق . م . فإلى ذلك الحين يعود تأريخ تأسيس أول قصر مستقل عن المعبد أقيم في كيش ، مقر أول سلطة ملكية في سومر . فهل تترجم لنا هذه الملاحظات حقيقة تاريخية هي ظهور دول محاربة ، ذات نظام ملكي عسكري وتستند إلى قوة مسلحة منظمة بدل القوة الروحية ؟ إن الجداول الملكية تحمل قوائم بأسماء الملوك والوثائق السومرية تخبرنا بوقوع صراعات مسلّحة على النفوذ بين دول ــ المدن السومرية ، إلّا أن هذه الوثائق لا تطلعنا على تفاصيل الأحداث وتطوراتها . ولكن يمكن تفسير بعض المؤشرات الأثرية المتصلة بهذه المرحلة . فقد لوحظت عادة التضحية الجنازية في عدد من المواقع الأثرية الرافدية . وقد جرت ممارسة هذه

العادة في المدينة الملكية كيش وفي أور وغيرهما . وفي التنقيبات التي أجراها العالم ل . وولي في أور عثر على قبور ملكية مبنية تحت الأرض ويدخل إليها بأدراج منحدرة . وعلى مقربة من أحد هذه المداخل وجدت بقايا جثث ممددة نحو ستين شخصاً ، يبدو أنهم ضُحوا ليرافقوا الميت في العالم الآخر . ولكن هذه الأضاحي لم تتكرر فيما بعد . وربما جاء بعد ذلك نظام اجتماعي استطاع تثبيت دعائمه وتميز بتفوق سلطته الملكية العسكرية على السلطة الدينية .

لقد أُحيط تشكيل الملكية السومرية بالغموض . ولكن يمكن تتبع تطورها تاريخياً بشكل مفهوم . فالتاريخ لا يعتمد على اللقى الأثرية فهناك القوائم الرسمية بأسماء الملوك والأسرات الحاكمة وتذكر فيها أهم أعمالهم ثم القصص والملاحم التي قد تعكس أحداثاً واقعية ماضية . وربما يكون من الصعب التمييز ما بين العصر البطولي لسومر وبين القرون الأخيرة السابقة لشروكين الأكدي . وأخذت تتبدى للباحثين ملامح توجهات التاريخ السومري حتى العصر الأكدي : فقد أدّى ظهور مراكز سياسية هامة إلى انفجار البنيات القديمة للمجتمع والدولة وإلى تطور رافقه تيار سياسي ذو وجهتين وبقي مستمراً حتى انتقال السلطة إلى أكّاد . فعلى الصعيد الداخلي كان يجري العمل على إخضاع السلطة الدينية للسلطة الملكية وعلى الصعيد الخارجي كان يجري النزاع بين المدن على النفوذ والتفوق . وكانت بلاد سومر تبحث خلال ذلك عن وحدتها ولكنها لم تصل إلى تحقيقها إلّا باللجوء إلى القوة .

٦ ــ من دول المدن إلى الدولة الموحّدة المركزية

بعد فترة طويلة من ممارسة الكهنة للسيادة في دول المدن السومرية نجح القادة العسكريون في تحويل دورهم المؤقت في الدولة السومرية إلى مؤسسة دائمة ، وهكذا أفلح (الرجل الكبير) = لوجال في فرض إرادته على الكاهن الأكبر في الدولة ــ المدينة وألزمه حدود الانصراف إلى الأمور الدينية . وقد احتفظت المعابد مع ذلك بقدرتها ونفوذها في المجتمع السومري وظهرت فيما يبدو بعض الردود على تزايد نفوذ القادة العسكريين ومن مظاهرها اعتلاء اثنين من كبار الكهنة عرش لكش نحو ٢٤٠٠ ق . م . إلّا أن ذلك لم يمنع من اطراد تقدم نفوذ السلطة الزمنية المدنية . وقد تبلورت فكرة السلطة الشرعية الملكية من ذلك العصر في اللوائح التي تضم أسماء العواهل المتعاقبين على السلطة .

وانطلاقاً من هذا التقليد أخذت تدعي كل مدينة من المدن السومرية الرئيسة السلطة الملكية على كل سومر . وقد توصلت بعض الأسرات التي استقر لها النفوذ في بعض تلك المدن إلى ممارسة سلطة ملكية بالفعل . ولا ندري كيف كان يتم التعاقب على الحكم ولا كيفية تطبيق مبدأ السلطة

الملكية في بلاد سومر ، ولا الأسلوب الذي كان يتبع في انتقال السلطة من مركز إلى آخر . ويلاحظ أنه بينما تؤكد بعض اللوائح الملكية على أهمية بعض المدن وبعض الشخصيات فإنها تتجاهل ذكر بعض الشخصيات الأخرى التي يرد ذكرها في شواهد تاريخية خارج تلك اللوائح أو في لوائح معارضة . ومن هؤلاء بعض العواهل الذين استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم بالقوة مثل أمير لكش إياناتوم نحو ٢٥٠٠ .

وهنا ينبغي ألّا يغيب عن ذهننا احتمال التحيز في تلك اللوائح . فاللائحة التي تنسب إلى إيسن ربما يرمي كتابها إلى تبرير دخول هذه المدينة إلى مسرح الأحداث في النصف الأول من الألف الثاني ق . م . وهذه الوثيقة مهما كان من تاريخ كتابتها أو من درجة أهميتها فإنها تؤكد حقيقة لامراء فيها هي النزاع الدائم بين المدن السومرية . ومن أمثلة هذا النزاع ما حدث بين لكش وأوما ، ثم بين أور وأوروك ، وكذلك بين كيش وأداب . فكل مدينة من هذه المدن كانت تسعى إلى فرض وجودها وإلى العمل على توحيد البلاد تحت سلطانها المركزي . فما هي دوافع هذا النزاع أهي العوامل الشخصية وما كان يثور بين أمراء المدن من خلاف . قد يكون لهذه العوامل تأثيرها لكن العوامل التي أثرت بعمق في تحريك الأحداث كانت هي العوامل الاقتصادية . فقد أدى تزايد عدد السكان في المدن السومرية إلى فيض تجاوز حدود بنيات المدن القديمة وزاد المشكلات تعقيداً تجاوز المدن الكبيرة المتنافسة وقربها بعضها من بعض ، مما ضيّق حدود المساحات الزراعية اللازمة للمجال الحيوي لكل منها ، الضروري لتأمين الغذاء للسكان من حقول وبساتين ومراع وأدى ذلك كله إلى تضارب في المصالح بين المجتمعات المدنية السومرية التي كانت قد قطعت أشواطاً في طريق النمو خلال الألف الثالث ق . م .

٧ ــ الصراع على النفوذ بين دول ــ المدن السومرية

المصدر الأساسي للتعرف على بعض ملامح هذا الصراع نجده في اللوائح الملكية التي كتبت في عصور متأخرة ، وهي متحيزة للأسرات الحاكمة التي كتبت هذه اللوائح من أجل اضفاء الشرعية على حكمها . وأهم هذه اللوائح هي التي أعدت في القرن الثالث عشر لتبرير المطامع التسلطية للأسرة الحاكمة في إيسن Isin على المناطق الجنوبية من أرض الرافدين . وقد وقع الكاتب في خطأ فادح عندما قدّم تصويراً للأحداث وكأن المنطقة كلها كانت تحكم من مدينة واحدة وسلطة مركزية . ولكن الوضع السياسي في سومر لم يكن كذلك . وقد أغفلت هذه القائمة شخصيات هامة كشف النقاب عن دورها في مصادر أخرى مثل إياناتوم ملك لكش . أما الأرقام الدالّة على سني حكم الملوك في هذه القوائم فهي غير قابلة للاستعمال من وجهة النظر التاريخية . والمهم هو أن

وثيقة من هذا النوع لا يمكن أن تؤخذ إلّا بكثير من الحذر ، إلّا أن قيمتها هي في دلالتها على الجو السياسي العام للعصر السومري القديم ، وهو انعدام الاستقرار السياسي . فالمملكة كانت موضع تنافس بين ملوك المدن وكانت الغلبة للأقوى بينهم ، وهذا مما أدّى إلى وقوع اضطرابات مستمرة .

وباختصار ، إن ما يمكن ملاحظته من مطابقة الوثائق من مصادر مختلفة ، هو أن الحرب اندلعت بين ممالك ــ المدن وغدت كالمرض المستوطن . فكل دولة كانت تجهد نفسها للتغلب على المدن المجاورة وقهرها . وللعداء ما بين المدن السومرية جذور عميقة وقديمة كقدم الملكية نفسها . وتعكس الملاحم أصداء الخصومة العنيفة بين الدول كما حدث مثلاً بين أجّا Agga ملك كيش وجلجامش ملك أوروك . وتذكر أقدم النصوص أن مناطق عيلام تعرضت لهجمات شديدة قادها ملك كيش ميبار جيزي وقد تركت هذه الحملات بصمات سومر على حضارة عيلام في أدوارها الباكرة . ففي ختم أسطواني عيلامي من عصر أور الأولى نجد اسم سيدة سوسه (إلّهة سوسه) نين ــ شو شيناك (نين = سيدة بالسومرية) . إلّا أن عيلام تخلصت نحو ٢٥٠٠ من نفوذ ملوك سومر ونقلت عاصمتها في تلك الظروف إلى منطقة داخلية بعيدة عن مدى التهديد السومري .

• النزاع بين لكش وأوما

تطلعنا المصادر المتوافرة عن هذا النزاع ، وهي من لكش ، عن مخاوف حكام لكش من مطامع حكام أومّا بأراضيهم . ومن المحتمل أن تكون كيش قد وجدت الفرصة متاحة للتدخل في هذا النزاع ولمد نفوذها نحو الجنوب على سومر كلها .

ولكن نفوذ كيش كان قصير الأمد فيلمع بعدئذ اسم مدينة أور تحت حكم ملكيها ميزانبادا وأنبادا . ونعرف من نصوص لكش أسماء بعض حكامها الأمير الكاهن (إن ــ سي) أورنانشة الذي أقام في المدينة منشآت عمرانية هامة وبخاصة المعابد والقنوات المائية ثم أتى أكورجال الذي اندلع في أيامه النزاع مع أوما . وقد قتل الملك في معركة مع أعدائه وخلفه ابنه إياناتوم الذي رفع لكش إلى مكانة لم ترها من قبل . لقد انتصر إياناتوم على جيش أوما وفرض عليها غرامة من البذار والتخلي عن بعض الأراضي وسجل أخبار انتصاراته على نصب تذكاري يعرف باسم نصب الصقور أو العقبان . وانتصر هذا الملك المحارب على حملة عيلامية هددت مدينته وأحرز انتصاراً آخر على أمير مملكة أكشاك . وكان هذا قد ادعى الملكية على سومر بعد أن نصّب نفسه في كيش باسم الربّة إينانا . ووصل نفوذ الملك المغامر إلى سوبارتو في الشمال وإلى ماري على الفرات الأوسط . ولكن إياناتوم قاوم هذا التحرك واستطاع أن يهزم ملك أكشاك وأضحى أكبر حكام بلاد الرافدين .

وهكذا يمكن أن نقول إن هذه الصراعات ربما كانت تمثل أول أحداث الصراع الدولي في التاريخ وإن الأسماء التي ذكرت ربما كانت هي أقدم أسماء لرجال دولة محاربين .

وعندما انتقل مركز الثقل إلى أومّا لم يكن أمراؤها قادرين على متابعة مهمته . وقام بعدئذ تطاحن شديد بين المدن المتنافسة . واستطاع أمير لكش أنتمينا أن يوثق صلاته مع مدينة أور ولكن لكش ضعفت أخيراً عندما وقعت بيد أمرائها الكّهان وأبرزهم أنيترزي الذي تسبب عهده في إساءات صارخة مسّت حقوق الشعب وفتحت أبواب النزاع الداخلي بين العرش والمعبد .

٨ ــ العلاقة بين القصر والمعبد : إصلاحات أوروكاجينا

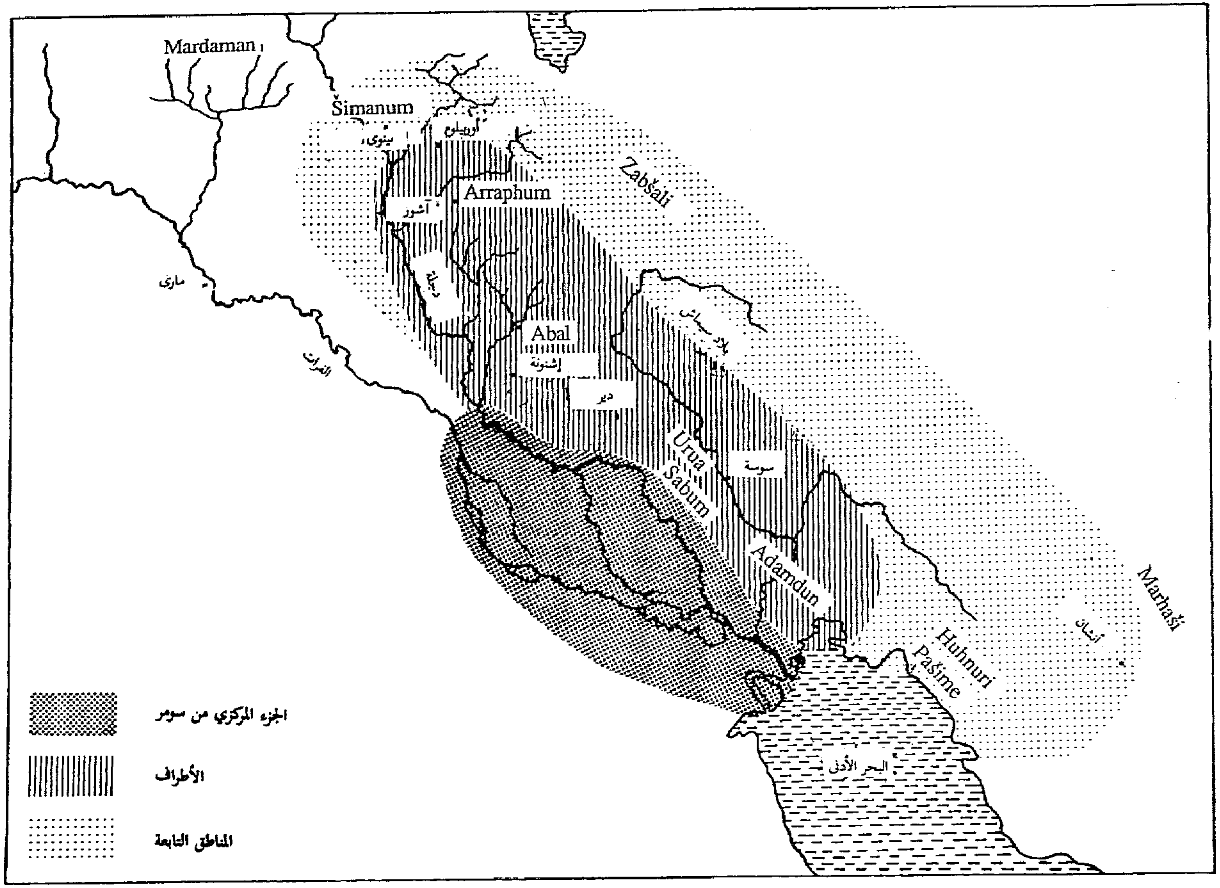
العلاقة بين القصر والمعبد في المدن السومرية معقدة . ويمكن أن نعرف أفضل صورة عن هذه العلاقة من نصوص لكشَ ، المدينة السومرية الوحيدة التي يعرف تاريخها بشكل من الوضوح . ومنها تبدو بعض أشكال مقاومة كهنة معبد نينجرسو لسلطة الأمراء وما كان بين الطرفين من تنافس على الحكم .

ويرد في بعض النصوص من أيام أنتمينا (نحو ٢٤٥٠ ق . م) ذكر أحد وجهاء المدينة واسمه دودو ، وخليفته إينترزي وربما كان هذا قريباً للأول وقد توصل إلى العرش في لكش وخلفه ابنه لوجال أندا . ولكن يلاحظ أن هذه التغيرات الداخلية تمت بهدوء ودون أي تعديل للأوضاع السائدة فالامتيازات الخاصة بالمعابد ورجال الكهنوت بقيت مرعية ولكن الأمراء الكهنة احتكروا لأنفسهم ممتلكات كانت خاصة بالمعابد . ونشأت بالتدريج طبقة عليا متميزة أخذت تستغل السكان وتفرض سطوتها عليهم . وقد عانى الناس من وطأة الموظفين وتعسفهم ومن قسوة محصلي الضرائب . وكانت شكاة الناس مريرة ، حتى الموت كانت تدفع عنه ضريبة . وفي هذه الظروف ظهر أوروكاجينا الذي تسلّم السلطة بالقوة (نحو ٢٣٥١ ــ ٢٣٤٢) في لكش . وأعلن برنامجاً سياسياً ربما كان أول اصلاح سياسي معروف في التاريخ تضمن النقاط التالية : رد الممتلكات التي اغتصبها الملوك إلى الآلهة (المعابد) وتقليص نفوذ الأقوياء وإنصاف الفقراء وتخفيض الضرائب وإحقاق العدل ونشر المساواة بين الناس[٣] . وفي بيان يعد أقدم بيان سياسي معروف في التاريخ يعلن المصلح السومري ما يلي :

(٣) انظر م . لامبرت : اصلاحات أوروكاجينا ،

M. Lambert, les reformes d'urukagina, RA. (Rerved Assyrio logie ° 1456° p.169-184.

P. Garelli, Le Proche- Orient Asiatique I, Paris, (1968) p.71.



PIOTR STEINKELLER

التوسع الإقليمي لمملكة أور الثالثة (عن ب شتاينكلّر)

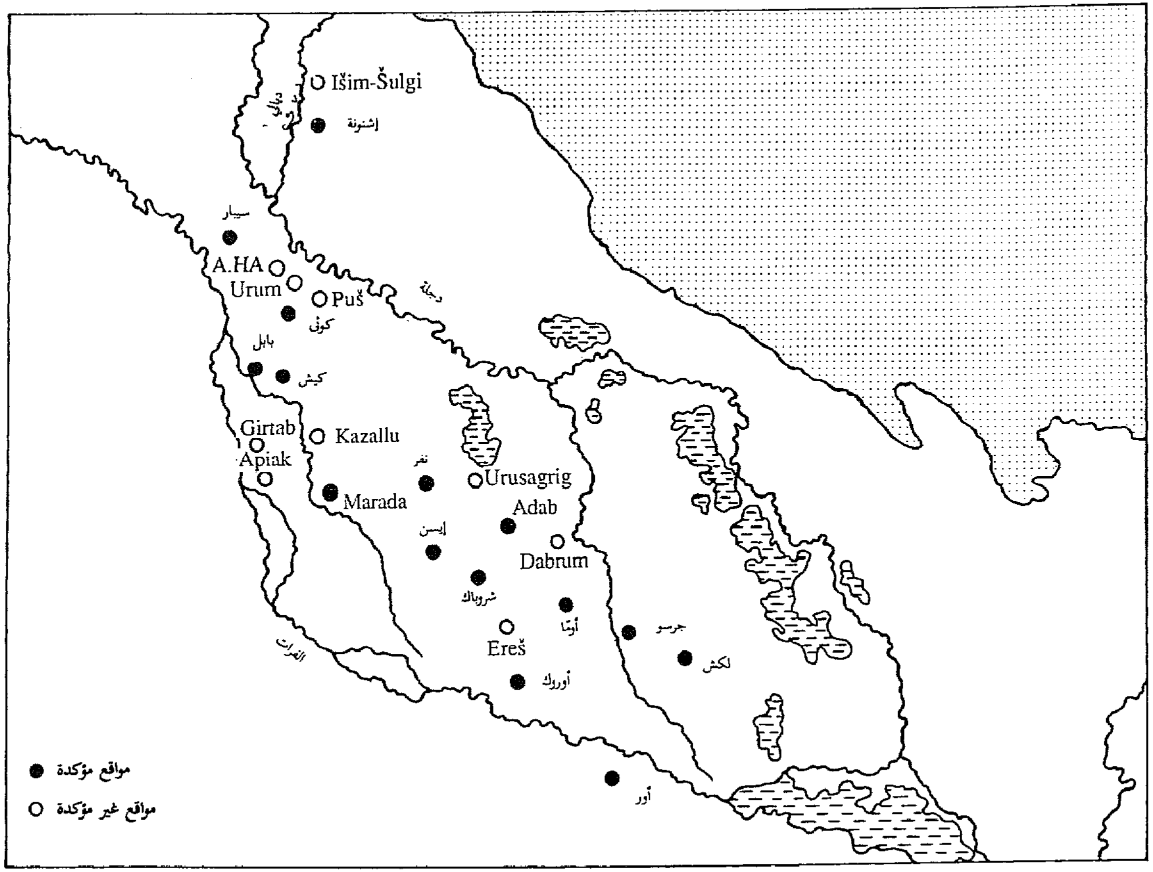
« .. عندما قام أوروكاجينا (في لكش) بمساعدة ٣٦٠٠٠ من الرجال بتأسيس حكمه، أعاد العمل بالمراسيم القديمة (أعاد الأمور إلى نصابها) وعمل على إنفاذ إرادة ملكة (إلهه) نينجرسو من جديد. فعن المراكب أُبعد المراقبون وعن الحمير والأغنام أُبعد الحرّاس. وفي البلاد التي يرويها (إله الماء) نينجرسو وإلى هناك حتى البحر لن يوجد بعد الآن جباة للضرائب. أما إن وجد بيت لأحد الأقوياء بجانب بيت لأحد أفراد رعية الملك وأن قال القوّي: أنا أريد أن أشتريه عندئذ يكون عليه إذا ما اشتراه أن يدفع الثمن الذي يطلبه البائع. والملك سيحمي الأم التي تجد نفسها في عوز، ولن يقسو القوي على الأرامل والثكالى بعد اليوم، هذا ما أقرّه أوروكاجينا مع نينجرسو! ».

هكذا يعكس هذا النص أهم مسائل كثيرة عن دور المجتمع في التقلبات السياسية في البلاد ويعطينا فكرة إحصائية عن عدد السكان، وعن مسؤوليات الحكومة ومهام الموظفين والضرائب والعلاقة بين المعابد والقصر. ولا ندري ما إذا كان الاصلاح موجهاً ضد رجال الكهنوت وسيطرتهم على الدولة. ومن مراجعة بيان الملك السومري يمكن لنا أن ندرك طبيعة المشكلات التي كان يعاني منها الفرد العادي في أواخر الألف الثالث. إلّا أن الإصلاحات لم تغير من طبيعة تركيب المجتمع. وربما برزت ضرورة ماسة لإجراء تغيير جذري يمس نظام توزيع الأراضي وإعادة توزيع الأطر الإدارية ووظائفها.

وقد أوجدت اصلاحات أوروكاجينا تقاليد جديدة في البرامج السياسية لحكام الرافدين وأصبحت عبارة « حماية الأرامل والثكالى » صيغة مكررة في النصوص للتعبير عن الرغبة في اتباع سبل العدالة بين الناس دون تمييز. ولكن حين كان أمير لكش مهتماً بتنظيم الأوضاع الداخلية في مدينته كان قد ظهر في أومّا الملك لوجال زاغيزي الذي أسس أول « إمبراطورية » سومرية.

٩ ــ أول مملكة سومرية توسعية: لوجال زاجيزي

تجدد النزاع بين لكش وأوما عندما تسلّم الحكم في أومّا لوجال زاجيزي Lugalzagezzi الذي أخضع أوروك وأور وكيش لكنه واجه مقاومة في لكش. وتذكر النصوص أن أوروكاجينا دعا الآلهة لتنجده ولتلعن لوجال زاجيزي أمير أومّا الذي اتهمه بارتكاب المعاصي ضد الآله) نينجرسو، ولذا فإنه يستنزل لعنات الآلهة عليه لتفقده سلطانه. بينما يعلن أوروكاجينا طاعته لآلهته وأنه لم يرتكب أي إثم. وتذكر النصوص التاريخية ما تعرضت له لكش من سفك للدماء في المعابد و تحطيم للتماثيل والصور والمقدسات ومن سلب للفضة والحجارة الثمينة.



المنطقة المركزية في سومر في عصر أور الثالثة

ومهما يكن فإن ما حدث بين المدينتين السومريتين لم يكن نتيجة لنزوات شخصية وحسب ولم يكن أبداً محض صدفة بل إنه نتيجة لتطور سياسي واجتماعي في بلاد الرافدين وهو يعكس تطلعات بعض المدن السومرية إلى التوسع وفرض النفوذ على المدن الجغرافي المحيط بها .

وهكذا فإننا إذا رجعنا إلى المصادر الواردة من الطرف الآخر وجدنا كيف يعرض لوجال زاجيزي الأحداث بعد اسقاط خصمه والقضاء عليه في نهاية حكم عادل قصير لم يستمر أكثر من ثماني سنوات . فالعاهل السومري المنتصر يدعي أن الآله إنليل نقل إلى يديه السيادة على المملكة وكلّفه نشر العدالة ويتابع قائلاً في عبارات قوية الدلالة :

« ... عندما أحكم (لوجال زاجيزي) سلطانه على المدن وبسط حكمه على البلاد من مشرق البلاد إلى مغربها ، عندئذ وضعه إنليل على رأس السلطة وأعطاه السيادة على كل البلاد من البحر الجنوبي (الخليج) ، من دجلة والفرات ، إلى البحر الأعلى (المتوسط) ومن الشرق إلى الغرب . لقد أعطى البلاد الأمان ، ورواها بماء المسرّة . فليزد الآله آنو حياتي حياةً وليعط البلاد الأمن وليجعل شعوباً كثيرة العدد تخضع لي ولأكُنْ أنا الراعي الذي يسير في مقدمتها ليقودها ويرعاها » .

ألا يعبر هذا النص بوضوح عن نزعة شديدة إلى التوسع وإلى طموح إلى بناء دولة عالمية تضم العالم المعروف عند السومريين ؟ . هكذا تكونت ، كما يبدو لنا ، بذور فكرة الدولة الكبرى و (الامبراطورية) في هذا العصر السومري القديم . إلّا أن هذه المطامح بعيدة المدى كانت بعد ارهاصات أولية لسياسة ثابتة وجدت السبيل إلى تحقيقها على أيدي شروكين والأسرة الأكدية . فلئن استمرت مغامرة لوجال زاجيزي نحو ربع القرن فإن شروكين أسس دولة ، وأسرة حاكمة استمر حكمها قرناً وربع القرن .

١٠ ــ النظام الزراعي في سومر

لا تتيح لنا النصوص السومرية إمكان تقديم صورة كاملة عن النظام الزراعي في سومر . وإننا ما نزال نجهل مدى اتساع الملكية الزراعية التي ينبغي أن تكون على قدر كبير من الأهمية ، كذلك لا نعرف بشكل دقيق مساحة الملكية الخاصة . أما دياكونوف فإنه يقدر مساحة الأراضي الملكية بثلث مساحة الأراضي الزراعية دون أن يأخذ في الاعتبار الملكية الخاصة(٤) . وإننا لا نعرف كذلك

(٤) I.M. Diakonoff, Society and State in Ancient Mesopotamia- Sumer, Moseou, 1959.
[بالروسية ، مع ملحق بالانكليزية] .

طريقة توزيع أراضي المعابد إلّا في حالة واحدة، ربما يمكن عدّها ممثلة للوضع في سومر، وذلك من خلال نصوص معبد باوا (بابا) في لكشَ[٥]، وهو الثاني في الأهمية في هذه المدينة.

كان هذا المعبد يملك مساحة تعادل ٤٤٦٥ هكتاراً. خُص منها الأمير بربع الأراضي القابلة للفلاحة، ومنها كان ينفق على المعبد والعبادة. أما الباقي فقد قسم إلى حقول للاعاشة أو التموين ولرعاية العاملين عند الأمير. وهناك أراض للزراعة كانت توزع للمزارعة كان يبلغ عائدها سبع المحصول أو ثمنه. تضاف إلى ذلك البساتين وأراض مخصصة للتموين وهناك مساحات كانت تترك للصيد. وقد ربطت هذه الممتلكات بالملكة التي كانت تتصرف بحصة مقدارها ١٠١ هكتار لحاجاتها الخاصة. وللملك حصة خاصة به تعادل ٢٤٦ هكتاراً ولكن له حصص مماثلة من معابد لكش الأخرى كمعبد نينجرسو، وهو المعبد الرئيس الذي كانت ترتبط إدارته بالأمير. وإذا ما قدرنا ما يمكن أن يصيب سائر الأمراء وأفراد الأسرة الحاكمة في ذلك النظام من امتيازات وما كان للملك فوق ذلك من ممتلكات خاصة له وللعرش كان بوسعنا أن نكوّن عندئذ فكرة عن مدى القوة المادية للسلطة الحاكمة.

١١ ــ المعبد والنظام السومري

أُنشئت المدن السومرية حول المعابد التي تمثل المنشآت الأساسية في التجمع المدني. ففي أوروك مثلاً يبلغ حجم المعبد ما يعادل ٥٠٠ متر طولاً. مما يجعلنا نقدر أهمية العامل الديني والدور الذي يقوم به الكهّان في الحياة العامة.

ورغم تعدد الآلهة، فإن أهم الأرباب (آن) إله السماء، وإنانا = عشتار ربه الخصب والحب. أما إنليل فأقدم إشارة إليه أتت من موقع جمدة نصر، وهو إله الجو.

ويعتقد السومريون أن السيد الحقيقي للمدينة هو إلهها وحاميها وأن الأمير الحاكم هو ممثله فيها. فالحكم في سومر، إذن، كان تيوقراطياً (دينياً) غالباً. على الرغم من بعض المحاولات التي جرت لتعزيز المؤسسات المدنية ولتقليص سيطرة الكهّان على حكومة المدينة.

وكانت المدينة بصفة عامة تخص إلهاً من الآلهة على الرغم من الاعتراف بوجود آلهة أخرى كانت تؤدي لها فروض العبادة. وهذا الإله سيد مطلق كان يعبر عن إرادته القاطعة بعجائب وعلامات. وكانت وظيفة (الملك الدينوي) أو الأمير تفسير إرادة (الملك السماوي) والتعبير عن

(٥) هي بنت ان/انووقرينه نين ــ جرسو، حسب سولبرجر وكوبر (نفوش ملكية ــ سومرية).

هذه الإرادة بإخلاص حتى ينعم الناس باستمرار العناية الإلّهية . ولهذا كانت الآلهة تمجد بإقامة المعابد لها . وكان أكثر ما يسرها ويدخل الفرحة عليها بناء السدود والقنوات لتنظيم الري ولمنع الفيضانات المتكررة وشق الأقنية لإرواء الأراضي الزراعية واستصلاح الأراضي القاحلة وتجفيف المستنقعات .

فالواقع هو أن المثل الأعلى الذي كان يسيّر المجتمع السومري هو مثل أعلى سلمي يحركه الإيمان الديني والعمل المنظم الذي يسهم فيه المجتمع كله . وقد بقي هذا المثل الأعلى محركاً للتاريخ الرافدي قروناً طويلة رغم تقلبات الظروف والأحوال .

والمعبد فوق ما كان له من مركز سياسي وديني **كانت له وظيفة اقتصادية** : كانت المعابد تتلقى موارد كبيرة وتحتفظ بثروات ضخمة . وكان المعبد يشكل وحدة اقتصادية كاملة ويمتلك الأراضي والمزارع والحقول والحظائر والمستودعات وله مشاغل للحرف المختلفة ومخازن للتموين ومراكز للتوزيع . وبالإضافة إلى ذلك كان المعبد يدير تجارة فعّالة وينظم القوافل براً وبحراً وله مراكب نهرية أيضاً .

وقد وصلت الاتصالات التجارية للتجار السومريين إلى مناطق بعيدة فالعثور على أشياء هامة مصنوعة من البرونز والذهب والفضة والحجارة الكريمة كاللازورد (وهو حجر كريم سماوي الزرقة) والعقيق الأحمر يكشف عن علاقة واسعة جداً مع البلاد المصورة لهذه المواد في مصر وآسية الصغرى وحوض البحر الأسود وسواحل جزيرة العرب وبلاد الشام . وقد عثر على أختام أسطوانية من النماذج الخاصة بحضارة حوض الهندوس . وتؤكد نصوص من أيام الملك أورناشه أن العلاقات التجارية مع بلاد ديلمون (وهي البحرين على الأغلب) كانت وثيقة وفعّالة وقد اتسع نطاق هذه العلاقات في العصر الأكدي وبعده . وقد ساعدت الثروات التي تشكلت بنتيجة هذه العلاقات على قيام حياة مدينة في هذه المنطقة من العالم قبل أية منطقة أخرى[٦] .

ومع ذلك فأساس الثروة في سومر هو الزراعة التي هي السمة الأساسية للحضارة الرافدية في العصر السومري القديم . فقد زرعوا الشعير وأنواعاً أخرى من الحبوب كالقمح لصنع الخبز والجعة . وزرعوا النخيل وشجرة الكرمة . وإننا نجد صورة المحراث في أوروك ٤ . ولكن لم يكن قد كشف المحراث البذّار بعد ، وهي آلة زراعة تحرث الأرض بسكة المحراث وتبذر الحب في الشقوق في آن واحد . واهتموا **بالرعي** ، فربّوا الأبقار والخنازير والحمير والماعز . وقد وجدت أشكال تمثل الحمار في

---

(٦) P.Amiet, La glyptrique Syrienne, Syria 4., (1963), 57-83.

سوية أوروك ٣ . أما أهم وسائل المواصلات فهي العربة بأربع عجلات ، وفي النهر المركب مرتفع الحيزوم (مقدمة المركب) والمؤخرة .

وكان السومريون ينسجون ملابسهم من صوف الغنم ، لكنهم لم يكونوا يعرفون جز الصوف بطريقة ناجعة لعدم كفاية الأدوات القاطعة المستخدمة للجز من البرونز أو الحجر الصواني ، وكانوا يعوضون عن ضآلة الكميات بتربية قطعان كبيرة ووفيرة . واهتم السومريون بالصيد من أجل التغذية والتقدمات الدينية . ولمظاهر هذه الفعاليات الاقتصادية جذور بعيدة في حضارة بلاد الرافدين وفي العصر السومري طُور النشاط الاقتصادي وكان أهم ما حققه الحكام السومريون هو تنظيم العمل والتخصص في الصناعات والحرف والانتاج . وكانت المعابد تتصرف بأعداد وفيرة من العمال والفلاحين والرعاة والبساتنة . وتذكر النصوص ومفردات اللغة السومرية مفردات تدل على الخبازين والنجارين والدباغين والحدادين والنساجين وصانعي الفخار والصاغة وباختصار على عاملين في كل المهن الضرورية لتسيير مؤسسة اجتماعية ــ اقتصادية كبيرة ولخدمة مجتمع كبير . ففي معبد باو وحده في لكش كان يشتغل ١٢٠٠ عامل تقريباً . ويمكن أن نقدر أرقاماً مماثلة في ما يقرب من العشرين معبداً في أراضي دولة مدينة لكش . ويطابق هذا الرقم مجموع الأفراد العاملين من سكان لكَش الذين ذكر الملك أوروكاجينا أنه استولى على الحكم بمعونتهم . لكن الأرجح هو أن اليد العاملة في لكش كانت أكبر من هذا الرقم إذا حسبنا وجود مؤسسات أخرى سوى المعابد .

وقد كانت المهن مختلفة جداً ومتنوعة في تخصصاتها . فهناك حارس الأبقار ، وحارس قطيع الغنم ، أو قطيع الخنازير . وكانوا يميزون بين صيادي المياه الحلوة (النهر) وصيادي المياه المرّه (المالحة) أي البحر .

ويقوم العمال بأعمالهم اليومية بإشراف مشرف من المعبد ويرتبط المشرفون والمفتشون براهب مسؤول سانغا Sanga ، ويساعدهم كتاب يسجلون بيانات يجردون فيها الأعمال والحسابات اليومية كما يتضح من نصوص أوروك ٣ .

وما عدا عدد محدود نسبياً من العبيد الذين كانوا يكلفون القيام بأعمال في البساتين أو في المطاحن أو في مشاغل النسيج فمعظم العمال كانوا من الناس الأحرار الذين كانوا يتلقون مقابل أعمالهم قطعاً صغيرة من الأرض القابلة للزراعة وهي بمساحات متفاوتة ، لكنها إجمالاً متواضعة وبعضها لم يكن يتجاوز ٣٥ آراً = (الهكتار = ١٠٠ آر = ١٠,٠٠٠ م^{2}) . وكان على المستفيدين من هذه الإقطاعات والمنح تأدية الخدمة العسكرية في حالات الحرب . وقد نمت هذه الإقطاعات

بمرور الزمن وتملك أصحابها الحيوانات من الحمير والغنم والماعز ، وكانوا يزرعون حقولهم مع عائلاتهم وأحياناً مع بعض العبيد . وبالإضافة إلى ما كانوا يحققونه من إنتاج كان المعبد يدعم مواردهم ببعض المواد العينية أو ببعض الحصص التي كانت توزع في الأعياد والمناسبات الهامة .

فللمعابد موارد كبيرة من المستغلات الزراعية والمشاغل اليدوية العديدة ومن حصص المزارعة وعائدات التجارة والقوافل ، ومن الهدايا والتقدمات التي كان يتلقاها المعبد وكهّانه دون مقابل . وأكبر أبواب المصاريف كان مخصصاً لأجور العاملين ولتنظيم الاستيراد من البلاد القريبة والبعيدة ولضرورات العبادة ونفقاتها الباهظة . وكانت تستهلك كميات كبيرة من المنتجات في الأعياد وتسيّر المواكب في أيام تحددها التقاويم وفق مراسم وطقوس مخصوصة ازدادت دقة وتعقيداً بمرور الزمن .

وإذا كان المعبد قد تقلص دوره في الإدارة فإنه بقي ذا أهمية كبيرة من حيث كونه مركزاً للإنتاج والإنفاق والتوزيع وقد منحته ثروته قوة أضيفت إلى قوته بوصفه مركزاً دينياً . ومهما يكن فقد احتفظ المعبد بالمركز الأول بين المؤسسات المحرّكة للمجتمع السومري .

١٢ ــ القصر والنظام السومري

المركز الآخر الهام في المجتمع السومري كان القصر الملكي . وفيه كان يقيم الرجل الذي أوكلت إليه مهام إدارة المدينة والدولة ، لأن العاهل الحقيقي في النظام السومري هو (رب المدينة ، إلهها) . أما الأمير أو الملك فلم يكن إلّا الحاكم باسمه . وكان هذا المسؤول في المجتمع السومري يدعى إن EN أي سيّد ثم دعي إن ــ سي EN-Si = سيد كاهن/ مقدس ووظيفته كما يرى جاكوبسن إدارة الأراضي المسقية التابعة للآلهة .

أما لقب لوجال الذي يترجم عادة بكلمة ملك فمعناه الحرفي : (الرجل الكبير) ، وكان يطلق على من كان يملك سلطة أوسع وأعم على عدد من المدن والمناطق السومرية . وأول الذين اتخذوه هم حكام كيش . وكان الملك (لوجال) يقوم بدور الحكم بين الدول ــ المدن . وقد حمل بعض الحكام اللقبين معاً لوجال وإن ــ سي مثل أوروكاجينا .

وفي داخل المدينة كان الملك يتولى سلطة الكاهن والقاضي الأعلى . وكان عليه أن يشرف على المعابد وما يتعلق بها وعلى الرغم من أن خدمة المعابد كانت من مهام خدّامها من الكهنة ، فإنه كان على الملك أن يقوم بالمبادهة . ويشاهد ملوك سومر على الأنصاب التذكارية وقد وضع أحدهم على رأسه ما يشبه العمامة ، وهو يرفع كأي عامل التراب اللازم للبناء . وكان على الملك أن يعنى بحفر القنوات ورعايتها وهي موارد الرزق والحياة في البلاد . وينبغي العمل على حماية البلاد من الغارات

والأعداء بإقامة التحصينات . وقد زادت الوظيفة العسكرية من أهمية مهام الملك ، وشجّعت الخصومات والمنازعات المحلية والمنافسات بين المدن زعماء الدول على العمل على توطيد أركان البيوت المالكة .

وهكذا فإنه منذ أيام شروباك كان بيت الملك يضم منشآت واسعة شيدت وفق مخططات هندسية أضحت مع مرور الزمن تقليدية . وعدا عن أقسام القصر وأجنحته الرئيسة الخاصة بالملك وأسرته وإدارة الدولة كان يلحق بالقصر عمال وأرباب حرف وصنائع مختلفة وكل شيء يعطي انطباعاً عن مؤسسة حربية بالدرجة الأولى : فهناك مشاغل لصنع الأسلحة والعربات . وتطلعنا النصوص على أعداد الجيوش التي كان يمكن تجنيدها خلال الألف الثالث وهي تتراوح ما بين ٦٠٠ ـــ ٧٠٠ جندي . وهذا الرقم يتناسب مع عدد أفراد الجيش العيلامي الذي جاء وغزا أرض لكش أيام ملكها إن ـــ إنترزي (نحو ٢٣٦٤ ـــ ٢٣٥٩) .

وقد يحدث في بعض الأحيان أن يقوم تحالف بين عدد من المدن لمواجهة الخطر المشترك . وفي حالات الطوارئ كان يدعى إلى نوع من النفير العام . وكان الملوك يتباهون بتحقيق انتصارات وإيقاع أفدح الخسائر في خصومهم . وبعض الأرقام التي وصلت إلينا لا يمكن أن يصدَّق . فمثلاً يعلن إياناتوم ملك لكش في أحد النصوص التاريخية أنه انتصر على ملك أومّا الذي خسر ٣٦٠٠ رجل من قواته ، فهذا الرقم يبدو كبيراً جداً بالنسبة لحجم القوات المجنّدة في ذلك العصر . ولربما قصد الكاتب بذكره الكثرة والإشارة إلى فداحة الخسائر فهو حاصل ضرب ٦٠ × ٦٠ وهو رقم مهم في الحساب الستيني الذي كان معمولاً به في بلاد الرافدين . وفي أثر حربي هو نصب العقبان الذي أقامه إياناتوم تخليداً لانتصاراته يشاهد الجنود السومريون وقد احتموا وراء تروسهم بأغطية من الجلد ، ويبدو الملك في مقدمة جنوده المسلحين بالمدى القصيرة ويستخدمون العربات الخشبية في المواصلات . وقد استخدم الملوك هذه الوسائل والأسلحة لخدمة سياساتهم في نزاعاتهم وخصوماتهم فيما بينهم قروناً قبل أن يتدخل الأكديون لحسم الموقف وإنشاء مملكة موحدة قوية وشاملة .

١٣ ـــ فن العمارة السومرية

على الرغم من تأخر تكوين وحدة سياسية في سومر ، فإن نموذجاً حضارياً يبدو واضحاً منذ عصر مبكرٌ ترك بصماته على المنطقة ونشر أشعته عليها في الاتجاهات الأربعة .

لقد اتضح من التنقيبات الأثرية أن المدن التي كانت قائمة آنذاك من الخابور إلى الخليج تميزت بطابع مشترك وبملامح عمرانية متشابهة . فالطرق الضيقة الملتوية تفصل ما بين البيوت المتقاربة

والمتراكب بعضها بجانب بعض، وفوق بعضها الآخر، ونجد أحياناً أراضي متروكة كانت تعيش فيها الحيوانات. وكانت البيوت ضيقة بصورة عامة وقليلة المساحة. أمّا العمارة البارزة التي كانت تمثل معلماً في المدينة فهي المعبد والقصر وهما بيت الربوبية وقصر الحكم. ولم يكن للمعبد مخطط معماري موحّد في سومر. ففي تل أسمر مثلاً كان المعبد البدائي على شكل غير منتظم وبزوايا مستديرة. ثم تطورت هندسة المعبد بعد ذلك إلى الشكل المربّع ذي الزوايا القائمة. أما سور معبد خفاجة فكان إهليلجياً. لكن مهما كان شكل المخطط العام فالهندسة الداخلية واحدة ولم تتغير: مدخل يؤدي إلى بهو مزود بمذبح وحول البهو عدد من الغرف وقاعة قدس الأقداس حيث ينصب نصب المعبود. وهي حجرة مضلّعة ويسند تمثال الآلة والمذبح إلى جدار الحجرة. أما المداخل فقد فتحت في الجدار البعيد عن المذبح.

وإلى جانب المعبد ترتفع الزقورة التي ليس لها مخطط ثابت ولا يمكن تحديد عدد أدراجها ولا معرفة عدد طوابقها. ويمكن أحياناً تزيين الواجهة بالألوان، كما هو الحال في تل العُبيد حيث غُلف الباب الرئيس بطبقة من النحاس. وكان هذا المعدن هو الأكثر استعمالاً إلى جانب الذهب والفضة.

ولا تقدم لنا القصور مثل هذه الملامح الغنية التي نشهدها في المعابد. فهي أقرب إلى الحصون منها إلى أي بناء آخر. وهي في مخططها تشبه المساكن الخاصة. فلها بهو مركزي واسع وقاعة استقبال واحتفالات رسمية رفعت فيها الأعمدة كما في قصر كيش.

١٤ ــ الفنون التشكيلية في سومر

تدهور مستوى الفنون التشكيلية في سومر في هذه المرحلة من تاريخ بلاد الرافدين، سواء أكان ذلك في النحت أم في النقش بالقياس إلى ما تم إنجازه في أوروك في العصر السابق (ما قبيل المدني Protourbaine) ولكن لا يجوز تعميم الأحكام، ويمكن ملاحظة بعض الفروق المحلية من مركز إلى آخر. فالتماثيل التي عثر عليها المنقبون في المعبد المربع في أشنونة وعثر على أشباهها في تل خويرة في حوض الخابور، تبدو غير مصقولة، أسطوانية الشكل غالباً، والعيون فيها شاخصة ومنزّلة بحجارة ملّونة والرؤوس مغطاة بالشعر المستعار. أمّا التماثيل التي وُجدت في ماري وأشور والأنصاب والألواح التي اكتشفت في لكش، فلها أهمية تاريخية أكبر من أهميتها الفنية: فهي تعطينا فكرة عن ملابس العصر، ومنها على الأخص رداء له ذوائب على شكل ألسنة. واستخرجت من مقابر أور الملكية أعمال ذات قيمة فنية تعدّ أكثر رقيّاً وأكثر دقة من كل ما عُثر عليه من الآثار السومرية ومنها علبة

« القيثارة » المزنية بالأشكال الحيوانية والملونة بالألوان الجميلة المتناسقة . وكذلك « راية أور » وهي لوح موضوعة الحرب والسلم مطعم باللازورد والأصداف والحجر الكلسي الملّون بالأحمر .

ولا يصل النقش على الأختام إلى المستوى الذي بلغه في أوروك مهما كانت المواضيع التي تطورت خلال العصور ، فقد عقبت الموضوعات المجرّدة تلك التي تمثل الحيوانات والأشكال الانسانية في المواكب والولائم .

أما تطور التعدين فقد أدّى إلى تدهور في صناعة الفخار الذي لّون بالأسود والأحمر ، واكتفي لتزيينه بحزوز قليلة أضحت بعدئذ تقليدية . واتجه اهتمام الصنّاع إلى الأواني المطبخية والمنزلية من النحاس وإلى الحلي والأسلحة الاستعراضية من الذهب والفضة . واستخدم النحاس ثم البرونز لأغراض عملية ، فصنعت القدور والأواني والفؤوس والأسلحة القاطعة . ولكن هذا التجديد في شروط الحياة المادية اليومية للناس بإدخال المعدن في الصناعة ، لم يوقف من استمرار استخدام الحجر والفخار بوصفهما مادتين أوليين في الصناعة والفنون التشكيلية .

وقد نجح حكام سومر في إقامة علاقات اقتصادية مع البلاد التي استوردت منها المواد الأولية الضرورية للحياة اليومية ولحاجات الدولة ودفاعها ولتنمية الحياة العمرانية والفنية فمن عُمان (ماغان) كان يستورد النحاس ، وجُلب الذهب من أورارتو (أرمينية) وملوخا ، وحملت قوافل التجار إلى مدن سومر وقصورها العقيق بأنواعه وألوانه ، والأصداف والمرجان واللؤلؤ من بلاد الخليج العربي أو من بلاد السند في شمال غربي الهند(٧) .

١٥ ـــ التيارات الفكرية في سومر

تبدو أصالة الحضارة السومرية في كونها أول حضارة تتصل اتصالاً مباشراً بسلسلة الحضارات الإنسانية التي قامت بعدها وحملت تراثها حتى الحضارة المعاصرة .

وعلى الرغم من قدم الحضارة السومرية فإنها اكتشاف حديث ، وحدثٌ مثير لأنه كشف الغطاء عن حضارة أجيال من الناس عاشت قروناً عديدة في قرى ومدن غاصت في بحر النسيان وغلّفها ستار سميك من الغبار والتراب وغاب ذكرها عن الأجيال التي جاءت بعدها ألفي عام أو أكثر . وإنه لما يثير العجب أيضاً أن كشف الحضارة السومرية والحضارات الأخرى في بلاد الرافدين ، البابلية والأشورية ، وكذلك حضارات أقطار الشرق الأدنى القديم كان على أيدي علماء اللغات من

---

(٧) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . ط١ ، ١٩٧٣ م .

المهتمين باللغات القديمة في المجامع والأكاديميات الأوربية قبل أن تتضح أسس علم الآثار ومناهجه. ولذا كانت المسائل اللغوية ودراسة النصوص أهم ما اتجهت إليه البحوث المتعلقة بالشرق القديم وبلاد الرافدين.

والآن وبعد مضي بضعة عقود من السنين من الصعب تقدير درجة أهمية الحركة الفكرية في سومر. ولكن لا يمكن مع ذلك النظر إلى اللغة على أنها أداة مهمتها مسك سجلات المحاسبة وتدوين التقدمات النذرية. فقد عثر في شروباك (فارة)، وأداب (بسمية)، وفي (أبو صلابيخ) على نصوص حكمية ونتف من أناشيد وقصائد غنائية وقوائم معجمية، هي من أقدم ما هو معروف من التراث الثقافي في تاريخ الإنسانية، وهي تشير بإيجاز ولكنه واضح الدلالة إلى مؤلفات سابقة(٨).

ومن جهة أخرى عثر على نصوص عديدة ذات طابع ملحمي وميثولوجي من عصور سابقة تتضمن سواء في أفكارها أم في أسلوبها بقايا عريقة في القدم تدعو إلى الاعتقاد بوجود تراث سابق.

وفي الوقت الراهن يصعب التمييز بين ما هو قديم جداً والعناصر التي أضيفت فيما بعد. وقد يكون من الخطورة بمكان أن نستخرج من أعمال الألف الثالث مفهومات يمكن استخراجها من أعمال الألف الثاني أيضاً دون الوقوع في خطر عدم التدقيق في التسلسل الزمني للأحداث والتطورات.

ويحسن هنا أن نوضح أن الكتابات الملكية السومرية القديمة ذاتها يمكن أن توقع الباحث في الخطأ. فمما لا شك فيه أن هذه الكتابات لا تشكل تاريخاً بالمعنى الدقيق للتأريخ. فهي لا توضح سير الأحداث من مبتداها وفي مجرياتها إلى نتائجها وذيولها. فإننا هنا لا نجد إلّا جداول تاريخية متسلسلة وضعت من أجل المدينة ولخدمة الآلهة. وقد كتبت وتطورت في المعابد، لأن الكهنة كانوا يؤلفون الفئة المتعلمة الرئيسة في المجتمع. وقد سُجلت الوقائع، بعضها بجانب بعض دون تحقيق ولا أدنى تمحيص، إلّا أنها تتضمن بعض التصورات الدينية التي تعكس مواقف الكتّاب، وعقائد العصر.

(٨) ر. ك. بيجس، ألواح أبو صلابيخ.

R.D.Biggs, the Abu-Salabikh Tablets, JCS, 20 (1960), 70-88.

وتقارير معهد الدراسات الشرقية، شيكاغو عن التنقيبات في وادي ديالى ١٩٤٠ — ١٩٥٥.

P.Delougaz, S.lloyd, H. Frankfort, Compte Rendus des fouilles de La Diyala dans

OIP. (Chicago) 43 (1939), 44 (1940), 53 (1940), 58 (1942) 60 (1952) 72 (1955).

ويتضح من هذه الوثائق الأولية ومنها قوائم بأسماء المعبودات في مجامع الأرباب في شروباك ونيبور أن هذه الأسماء كانت معروفة منذ ذلك العصر وأنه بدأت تتشكل ملامح نظام لاهوتي للديانة الرافدية .

ويأتي في رأس هذه القوائم الثالوث المؤلف من رب السماء آن ، ورب الجو إنليل ، وإلّهة أم كبرى مقدسة باسم نين خورساج أو نين مَخ . ويأتي في المرتبة الثانية أرباب من أصل غير معروف بصورة مؤكدة مثل رب المياه إن ـــ كي/إنكي ، وهو إيا والقمر نانا (سين) والشمس أوتو والربة الأنثى إنانا التي تتجه إلى الاندماج في نيل ـــ خور ـــ ساج . ولكن قد حدث أن بعض المعبودات من درجة ثانوية اكتسبت أهمية كبرى ، وتفوقت محلياً في مراكز عبادتها مثل نين جرسو وباباو ونانشه في لكش .

إننا لا نعرف نصوصاً دينية نظرية أو تعاليم مقننة ولكن العقائد صيغت بشكل تقريري ، ورسمت في طقوس كان يطلب اتباعها بدقة . ومن أهم مظاهر الحياة الدينية المواكب المخصصة للأرباب ويرافقها إنشاد الأناشيد وترتيل التراتيل بمرافقة الموسيقا . وقد عثر على أدوات موسيقية في القبور الملكية كالقيثارة وفي النقوش على الأختام وعلى الآثار المنحوتة نجد جوقات الموسيقيين . وقد ورد في النصوص ذكر عدد كبير من الموسيقين في جداول حسابات القصر الملكي في شروباك . وهذا يدل على أن الموسيقا لم تكن مقصورة على المعبد بل كانت موجودة في القصور ، وقد وجدت آثار تدل على فعّالية موسيقية منظمة في معبد دَجَن في ماري ووجدت في القصر الملكي مدرسة لتعليم الموسيقا . إلّا أن معظم الآثار الموسيقية من العصر السومري القديم ضاع وفقد إلى الأبد .

إن الصورة التي استطاع الباحثون تكوينها عن المجتمع السومري جاءت من النصوص والأختام والآثار الفنية التشكيلية . وفيها نجد مجتمعا طبقياً على رأسه الطبقة العليا الحاكمة والحاشية المقربة من الحاكم وأسرته . وأهم ما وصلنا من فعّاليات المجتمع السومري هو ما يتصل بالطبقة العليا وعلى رأسها الحاكم ، الأمير أو الملك الذي كان يعد ممثلاً للسلطة الإلّهية وراعياً للرعية لا يحدّ سلطته سوى التقوى تجاه الآلهة وهو يعبر عن تقربه منها بإنشاء المعابد الضخمة وتقديم القرابين ، ويدافع عن أرض الإلّه ورعيته بتنظيم القوة المسلحة وإعداد الجنود وبإظهار القوة واستعراضها . ولئن كانت الطاعة هي الواجب الأول المفروض على الناس فإن طلب الحق جعل العدل مثلاً أعلى لبعض الحكام المصلحين مثل أوروكاجينا وغيره من المشرّعين الذين جاؤوا بعده في العصور التالية .

كان هذا البرنامج هو ما طمح كل حاكم سومري إلى تحقيقه ، ولكنه نادراً ما تحقق في أعمال بعض الحكّام الممتازين الذين خلدتهم الأجيال عندما أصبحوا قدوة في الحكم والتربية والمعاملات .

وهكذا فالمجتمع السومري الذي وُجد في بلاد الرافدين ما بين الألفين الرابع والثاني ق . م أضحى مجتمعاً مفهوماً بعد قراءة النصوص والألواح السومرية التي تقدم لنا القاعدة الفكرية التي نُظم هذا المجتمع على أساسها . ففي القضاء نصوص وأحكام كثيرة لحالات متنوعة ولكنها ليست مبنية على مبادئ قانونية معلّلة . أما في المعارف الطبيعية فهناك جداول تتضمن أسماء مفردة من النباتات والحيوانات ولكن دون أن تصنَّف في مجموعات وأُسر .

ويفتقر السومري كذلك إلى أي مفهوم واضح عن التطور التاريخي للأحداث ولأية نظرة مستقبلية للأشياء . والخلاصة إن الحقيقة عند السومريين قائمة على أساس ما قرَّرته الآلهة مسبقاً . وقد صاغ س . كريمر S.Kramer طريقة التفكير السومري بنظرة ثاقبة كما يلي : «إن السومري يفهم الأحداث التي تقع على مسرح العالم كأنها أمور قد تم تشكيلها وتكونها من قبل ، وهو لا يفهمها كأنها نتيجة تأثير متبادل بين الانسان ومحيطه . فقد اعتقد السومري بأن أرض سومر التي عرفها كما هي بأراضيها الزراعية وقراها ومدنها ، وبما فيها من جهاز سياسي ومؤسسات دينية واقتصادية هي كذلك منذ أول يوم للخليقة فمن اللحظة نفسها التي خلقت فيها الآلهة العالم كان قد تقرر أن تكون سومر كذلك . أما الحقيقة الواقعة فهي أن أرض سومر كانت بادئ ذي بدء أرضاً مستنقعية ولم تكن فيها إلّا قلة من البيوت والملاجئ المبعثرة ، ولم تصل إلى الدرجة التي بلغتها إلّا بالتطور التدريجي ، وذلك بعد تطور طويل استنفد حياة أجيال عديدة بذلت جهوداً كبيرة في محاولات متكررة لتحقيق مخططاتها ولإنجاز ما سعت إليه من الكشوف والاختراعات .. وكل هذا لم يكن ليخطر على بال أكثر السومريين معرفة وأبلغهم حكمة بأي شكل من الأشكال[٩] .

(٩) س . كرامر

S.N. Kramer, Mythologies of the Ancient World, New York, 1961.

الفصـــل الســادس

الأكّـدِيـون و « الأمبراطورية » الأكّـديـة

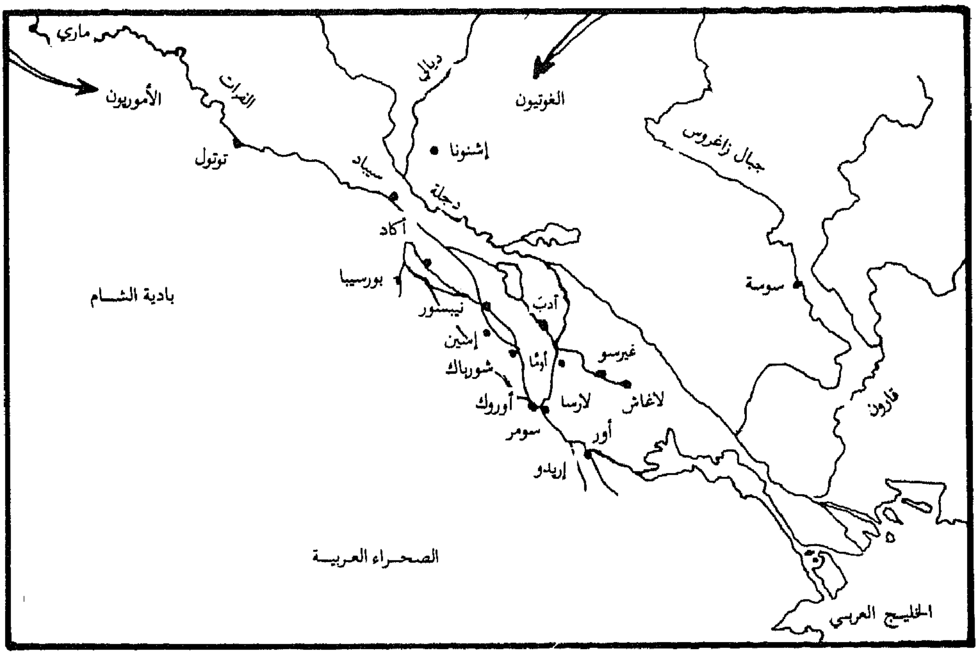
١ ــ تمهيـد

يعد نجاح المجتمعات القديمة التي تمكنت من تحقيق الاستقرار في بعض مناطق المشرق العربي في تأسيس الدول وإقامة الحكومات المنظمة المسؤولة منذ الألف الرابع ق. م من أهم الإنجازات الحضارية التي تحققت في وطننا العربي قبل أية منطقة أخرى من العالم. فقد بدأ تكوين الدويلات الأولى منذ ذلك الوقت في واديي الرافدين والنيل وفي بلاد الشام. وهكذا قامت مملكتا الشمال والجنوب في مصر، وممالك المدن السومرية في جنوب بلاد الرافدين وإبلا في سورية. ولم يكن التنظيم السياسي في الوطن العربي القديم سوى مظهر من مظاهر التطور الحضاري.

أما في بلاد الرافدين، فقد كانت الحضارة الأولى التي رأينا ظروف تكونها وتطورها محصلة مزيج من عناصر مختلفة لا نستطيع تمييزها بسهولة ولا معرفة نسبة كل عنصر مكوّن فيها. وقد تم هذا الانصهار المستمر البطيء لمجموع جهود هذه المجتمعات التي مرّت وتعاقبت على المنطقة خلال آلاف السنين دون أن نعرف ملامحها ولا هوياتها قبل معرفة الكتابة والتسجيل.

ومع الكتابة، بدأ التأريخ، وعندئذ سجل اسم أول شعب من شعوب بلاد الرافدين والشرق العربي القديم: **السومريون**. لكن هؤلاء لم يكونوا أبداً عنصراً نقياً، بل كان الاسم الذي أطلق عليهم اسماً لمجتمع مدني له ثقافة ولغة. والمجتمع المدني يتكون عادة من أصول متعددة.

فإلى جانب مجتمعات المدن كانت القبائل والشعوب بدوية الأصل تتحرك باستمرار في



سومر وأكّاد ــ الألف الثالث قبل الميلاد

المنطقة وتتقدم إلى مناطق الاستقرار وتخترقها وتندمج فيها. وقد دعيت هذه القبائل والعشائر والجماعات البدوية والمجتمعات التي تكونت منها، في مؤلفات الباحثين المشتغلين بتاريخ الشرق الأدنى القديم ولغاته، باسم الشعوب (السامية)، وهي كما رأينا تسمية اعتبارية تستند إلى الأساس اللغوي ـــ الثقافي في الدرجة الأولى وتنطلق من مفهومات توراتية عن أنساب البشر بعد الطوفان الذي يتحدث عنه (العهد القديم)، استخدمها لأول مرة بعض الباحثين الأوربيين منذ القرن الثامن عشر.

ومهما اختلفت الآراء في هذه التسمية التي لم تَعد مقبولة بالصورة التي طُرحت فيها في بادئ الأمر فإن صفة (الساميين) لا يمكن أن تعني سوى هؤلاء القادمين المنتشرين على أرض الشرق العربي القديم، والذين لم يأتوا من أي مصدر آخر سوى أطراف البوادي العربية التي كانت محطتهم الأخيرة بعد تجوال طويل وقبل استقرارهم في السهول الخصبة وفي أحواض الأنهار التي كانوا هم الذين أعطوها أسماءها: دجلة والفرات والخابور والليطاني والأردن.

فظهور (الساميين) على مسرح التاريخ، وهم في حقيقة الأمر أقدم أجيال العرب الأولين، لم يتأخر عن ظهور السومريين تاريخياً، ففي الوثائق السومرية ـــ المسمارية مفردات (سامية) تمت بصلات قربى لغوية إلى لغات (العربية القديمة) ولهجاتها، وهي تشهد على عراقة الوجود العربي في فجر التاريخ الرافدي. وقبل أن ترد كلمة (عرب)، و(عربي) في النصوص الرافدية الأشورية (الألف الأول ق. م) أُطلقت على هذه الأقوام (العربية) القديمة أسماء عرفت بها: الأكديون في الألف الثالث، والأموريون والبابليون والأشوريون والآراميون والكلدانيون في الألفين الثاني والأول ق. م.

وإنه لمن العسير أن نعيّن حداً جغرافياً بين هؤلاء وأولئك، لكن الأرجح أن الغلبة كانت للسومريين في الجنوب وعلى مقربة من شواطئ الخليج، بينما كانت الغلبة للأكديين في وسط البلاد، في ما بين النهرين، حيث استقر الأموريون الذين قدموا من أمورو (الغرب) عبر الفرات وعرفوا بالبابليين باسم مدينتهم العظيمة بابل.

على أنه لم يعرف في تاريخ بلاد الرافدين أي تمييز حقيقي بين سومر وأكَّد، فالاصطلاحان قد يدلان على فرعين من أصل بعيد، كان قد استقر منذ البدء في أرض الرافدين ثم أنشأ فيها القرى والمزارع والمدن، ووضع أسس العمران وأقام نظم الحضارة وتداول فيها الحكم والغلبة والسيادة. أما عامل الاختلاف الأساسي بين سومر وأكدّ فهو العامل اللغوي. فللغة السومرية ما يميزها عن الأكدية.

٢ ــ دولة أكَّد Akkad

توحيد بلاد الرافدين بقيادة شروكين

لم يتجاوز عمر المملكة السومرية الموحدة بقيادة لوجال زاجيزي أكثر من ربع القرن . فقد تمكن الرجل القوي ملك أكاد (شروكين) = سرجون (نحو ٢٣٣٤) من بسط سيطرته على مملكة كيش والمناطق الوسطى من بلاد الرافدين ومن دحر قوات خصمه السومري لوجال زاجيزي ملك أوروك وأومّا الذي وقع في الأسر ولا ندري كيف كان مصيره . وقد نجم عن هذا التغيير السياسي في أوضاع بلاد الرافدين تحول اجتماعي ــ ثقافي كبير . فقد ارتفعت إلى مقدمة مسرح الأحداث عناصر من سكان بلاد الرافدين لم يكن لها في العصر السومري السابق دور كالدور الذي كان يقوم به المتكلمون باللغة السومرية . وهؤلاء السادة الجدد للبلاد هم المتحدثون باللغة الأكدية . وهذه اللغة هي لغة مدينة أكاد /أغاديه Agade التي لما يعرف موقعها حتى الآن ، ويفترض أن تكون في مكان قريب من كيش المعقل القديم للعناصر (السامية) الأصل في بلاد الرافدين . ومنذ ذلك التاريخ لم تعد اللغة الأكَّدية لغة مدينة أو منطقة محدودة بل أضحت لغة الأسرة الحاكمة ، ولغة الدواوين والإدارة إلى جانب السومرية . وفي حين أضحت الأكدية لغة أقدم مجتمع مدني من أصول عربية في بلاد الرافدين كانت الإبلائية ، لغة إبلا ، لغة أقدم مجتمع مدني من أصول عربية أيضاً في شمال سورية خلال الألف الثالث ق . م . وقد استخدم كلاهما نظام الكتابة المسمارية الذي استخدمه السومريون من قبل في كتابة لغتهم السومرية .

إن انتقال السلطة في بلاد الرافدين من السومريين إلى الأكديين لم يكن نتيجة غزو أو صراع عرقي بل ربما يكون نتيجة لصراع سياسي ــ اقتصادي بين دول المدن المتنافسة في المنطقة . ولا يوجد بالواقع أي دليل تاريخي على قيام صراع سياسي بين المجتمعين السومري والأكدي . ولا يوجد في مجموع التراث الرافدي المكتوب أي نص أدبي يمكن أن يعكس صدى لأي صراع قديم من هذا النوع سوى النص المعروف بعنوان « اللعنة على أكَّد » الذي ربما كان من تأليف كهّان معابد مدينة نيبور المقدسة تعبيراً عن النقمة على موقف نرام ــ سين ، رابع ملوك الأسرة الأكدية الذي أساء معاملة المدينة المقدسة السومرية(١) . ومن المرجح أن يكون وصول الأكديين إلى السلطة في البلاد جاء نتيجة لتزايد عددهم بالهجرة الدائمة منذ قرون بعيدة وليس نتيجة لغزو أو اجتياح كما قد يتصور بعضهم .

---

(١) A.Falkenstein, Fluch Über Akkad, ZA, 57, (1965), 43-124.

لقد أضحت حركات هجرة البدو وتنقلهم في منطقة الهلال الخصيب، ما بين دجلة والفرات من جهة والنيل من جهة أخرى، واضحة للباحثين الذين اهتموا بها في الفترة الأخيرة، وقد رصدتها تقارير الدول في الألف الثاني ق . م، وأطلقت على هؤلاء البدو أسماء مختلفة . فقد أطلق الأكّديون على القبائل البدوية المتحركة من الغرب (أمورو) اسم الأموريين الذين كانوا يجتازون الفرات ويتغلغلون في بلاد الرافدين، بينما تحدث الكتّاب في الدواوين المصرية عن قبائل العمّو والهيكاخاسوت (الهكسوس)، وفي أواخر الألف الثاني شكا الأشوريون من تحركات الأخلامو ثم الأخلامو ـــ أرمايا وهم (الآراميون) .

وقد كشفت نصوص (ماري) في موقع تل الحريري على الفرات في سورية، عن كثافة العناصر البدوية العربية التي انتشرت في المنطقة في مطلع الألف الثاني ق . م .

وقد وصف الأستاذ كوبر(٢) بدقة وتفصيل تحركات القبائل البدوية وانتشارها في وادي الفرات أيام ملوك ماري (القرن الثامن عشر ق . م) . فالعناصر البدوية التي كانت تقيم بصفة دائمة على أطراف الحواضر كانت تغتنم كل فرصة مناسبة للوثوب على المدن أو للتسرب إليها لكي تنعم بخيراتها . ولا يستبعد أن يكون ما حدث في الألف الثالث ق . م شبيهاً بما حدث في الألفين الثاني والأول أثناء تحركات الأموريين والآراميين . ولئن لفتت دراسات الآنسة كنيون(٣) الانتباه إلى أهمية التحركات الأمورية واتساع نطاقها وعمق تأثيرها في بلاد الرافدين وسورية ومصر فإن استيلاء شروكين الأكدي على الحكم وانتزاعه من السومري لوجال زاجيزي لم يكن بعد حركة غزو أو اجتياح خارجي، كما كنا ذكرنا قبلاً، لأن الناطقين بالأكدية كانوا موجودين إلى جانب الناطقين بالسومرية منذ أقدم العصور . ومع ذلك فإنه قد يمكن القول بصورة عامة، إن السومريين كانوا قد اتخذوا مستقراً لهم المنطقة الواقعة جنوبي مملكة كيش بينما اختارت العناصر الأكدية الإقامة في المناطق الوسطى في كيش وحوض الفرات الأوسط .

وليس معنى هذا وجود فصل بين عناصر السكان، فإن الوثائق الاقتصادية والإدارية والدينية في لكش ونيبور وأداب وأومّا تؤكد وجود عناصر أكدية كثيفة في معظم المدن السومرية زمن إياناتوم (أور الأولى) ولوجال زاجيزي (أوروك) ويمكن عدّ هذا العاهل السومري الأخير مقدمة لتأسيس الدولة الشاملة التي حاول **شروكين** إقامتها على أرض الرافدين والمشرق القديم كله .

---

(٢) J.R. Kupper, les Nomades en Mésopotamie au Temps des Rois de Mari. Paris 1957.

(٣) K.M. Kenyon, Amorites and canaamites, London 1966.

٣ ــ شرّوكين الكبير والأسرة الأكدية

يعد شروكين أهم شخصية تاريخية في بلاد الرافدين بين نهاية العصر السومري القديم وحمورابي أي خلال خمسة قرون. وقد استطاع أن يطبع تاريخ بلاد الرافدين بطابعه لزمن طويل بوصفه نموذجاً للعاهل الفذ والقائد الفاتح الظافر. وأضحت شخصيته موضوعاً لقصص ملحمية ولأساطير غريبة تداولتها الأجيال، ولا بد أنها تعكس جزءاً من الحقيقة على الأقل قبل أن تتضخم بأفواه الرواة والقصاصين وبأقلام الكتابة والنسّاخين. فقد تحدث الإخباريون عن طفولته العجيبة جيلاً بعد جيل وتناقلوا الروايات عن إحاطة العناية الإلّهية به وعن تربيته في أحضان القداسة. وتذكرنا هذه المرويات في بعض ملامحها بطفولة النبي موسى الذي يفترض أنه جاء بعد شروكين بما يقرب من ألف عام. فلقد ولد شروكين لأب مجهول ولأم كاهنة في قرية على ضفاف الفرات، وقد أرادت أمُّه أن تتخلص منه فوضعته في سلّ من القصب المجدول وتركته في مجرى الماء. فتلقَّفه بستاني يعمل في مزرعة للنخيل وأخذه وربّاه وعلّمه حرفته. وبدأ نجم الفتى الناشئ بالصعود بعد طفولة شاقة غامضة. فبرعاية الإلّهة عشتار دخل قصر ملك كيش، أور ــ زبابا UR-Zababa، الذي اختاره ساقياً في قصره، ثم تدرج في وظائفه حتى أضحى وهو شاب من رجال القصر المرموقين. وعندما وجد الشاب شروكين الفرصة مواتية انفصل عن سيده وأسس لنفسه مقراً على مقربة من كيش في أغاديه = أكّد Akkadu.

بدأ شروكين منذ نحو (~ ٢٣٧٠) كفاحه من أجل إقامة كيان مستقل خاص به وتحت زعامته وانتصر بعد حروب طويلة ومتواصلة على «ملك البلاد» لوجال زاجيزي، وظفر بخصمه وفرض سيادته على سومر كلها بعد أن كان قد طوى تحت جناحه وسط بلاد الرافدين. ولم يجد صعوبة كبرى في إخضاع عيلام، ثم صعد الفرات واستولى على ماري ودخل مناطق سورية الشمالية (حلب) حتى جبال طوروس، وتذكر الأساطير الأكدية أن شروكين دخل الأناضول ووصل إلى موقع يدعى بورِوش خاندا لنجدة جالية رافدية من التجار كانت قد استقرت هناك. ولم تقف في طريق تحركاته نحو الغرب (غربي الفرات) سوى مملكة إبلا (تل مرديخ الآن) التي كانت أهم قوة دولية منافسة لأكّد في تلك المرحلة من الألف الثالث ق. م في المنطقة. وقد كشفت التنقيبات التي جرت في إبلا منذ ١٩٦٤ عن أهمية إبلا اقتصادياً وسياسياً إبّان التوسع الأكدي(٤).

---

(٤) ب. ماتييه: إبلا في عصر أكد P. Matthiae, Ebla à l'époque d'Akkad in CRAIBL, 1976. 190.
(عن الايطالية) Ebla, An Empire Rediscovered, 1981.
انظر أيضاً ج. بتناتو: إبلا آفاق جديدة G. Pettinato, Ebla, Nuovi Orizzonti della storia, Rusconi, Italia, 1986. p.56-61, 116-118.
C.J. Gadd, the Cambridge Ancient History I, 19, (1963) p.25.

ويعكس الوضع السياسي للمشرق العربي في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م مدى التفوق الذي أحرزته العناصر العربية آنذاك فإلى جانب أكد في بلاد الرافدين كانت ماري وإيمار على الفرات وإبلا وأجاريت وحماة في سورية الشمالية أهم المدن التي كانت تنتمي لغوياً إلى عائلة اللغات (السامية).

وعلى الرغم من أهمية هذه التغيرات فإن اسم سومر لم يغب، وبقيت المملكة تدعى سومر وأكّد. إلا أن اسم سومر كان يحمل آنذاك معنى رمزياً يدل على استمرار الازدواجية في التركيب الاجتماعي ـ الثقافي للبلاد، كما أنه يعبر عن حقيقة سياسية قديمة.

أما اصطلاح **أكّد** فلا يمكن تحديده جغرافياً. ولا يعرف حتى الآن موقع مدينة أكّد، إلا أنها تقع على الأرجح في مكان ما حول مدينة كيش العاصمة الملكية القديمة. ومن المحتمل أن تكون منطقة أكّد الأصلية كانت تمتد ما بين أشنونة وبابل. أمّا حدود النفوذ الأكدي في الشمال فلا يمكن الجزم بها بسهولة ولكن الشواهد على الإدارة الأكدية ما بين الخابور غرباً ونوزي ما وراء دجلة شرقاً. أما جنوباً فقد امتدت المملكة على سومر كلها وعلى عيلام.

ولا بد ان المعاصرين آنذاك كانوا قد شاهدوا أمراً غريباً بتوحيد أقطار الشرق الأدنى القديم وربطها بطرق المواصلات والقوافل في ظل سلطة (إمبراطورية) واحدة. فقد استطاعت الإدارة الجديدة أن تربط المناطق المختلفة بجهاز إداري مركزي. وأضحى الحكّام الذين كانوا يحملون لقب إن ـ سي في دول ـ المدن في العصر السومري القديم حكاماً إداريين محليين في الدولة الأكدية.

ولا شك أن الإدارة الجديدة واجهت مصاعب كثيرة بسبب تعدد أصول السكان ولغاتهم وعقائدهم مما قد يكون قد أدّى إلى منازعات ومصادمات محلية. ولا يستبعد أن يكون شروكين قد واجه في السنوات الأخيرة من حكمه ثورة عارمة لكنه استطاع أن يقمعها على أسوار العاصمة أكد نفسها. ولا شك أن هذا كله يوضح الأسس الضعيفة التي قامت عليها الدولة الأكدية، وبذور الانهيار التي كانت تحملها.

٤ ـ خلفاء شرّوكين

تولى الحكم بعد شروكين ولداه ريموش ومانيشتوسو بالتتابع، ولكن لا يمكن بعد التثبت ممن تولى الملك قبل أخيه، إلّا أنه من المحتمل أن يكون ريموش وهو الأصغر قد سبق أخاه إلى ولاية العرش. ولا تسمح الوثائق المتوافرة حتى الآن بترتيب الأحداث ترتيباً متسلسلاً زمنياً، فالأخوان

واجها معاً ثورات عنيفة قمعت بأقصى الشدة . وقد كانت معارضة الحكم الأكدي قوية في أيامهما وأودت بحياتهما اغتيالاً .

وتشير الأخبار إلى أن سومر وعيلام كانتا أشد مناطق الامبراطورية رفضاً للاندماج .

وكانت أور أوّل منطلق للثورة ولحقت بها لكش وأومّا اللتان تناستا عداوتهما التقليدية وتحالفتا لمناهضة الحكم السومري ولحقت بهما بعدئذ مدن أخرى ثم انتقلت الشرارة إلى عيلام . وقد اقتضى المضي في قمع الثورات إخضاع الشعوب والتوغل في الاحتلال والفتح . ومن الممكن أن يكون مانيشتوسو قد مضى بعد محاولة إخضاع عيلام إلى احتلال مناطق أبعد على الساحل الشرقي من خليج عُمان (بلاد السند) ، وهي المنطقة التي كانت تعرف ببلاد ملوخا[٥] .

وربما تدهور الموقف بشكل أشد خطراً على عهد نرام ــ سن الذي وجد نفسه مضطراً إلى مجابهة تحالف كبير من عشرين مملكة على جبهة عريضة امتدت من البحر الأدنى ، وهو الخليج ، جنوباً إلى بلاد الأناضول في آسية الصغرى شمالاً . ويمكن استقراء هذه المعلومات من المرويات الملكية الأكدية والنصوص الأدبية الملحمية الأسطورية .

ولاشك أن الصراع بين الشعوب والدول كان عنيفاً تعاقب فيه الانتصار والدمار . ويتباهى العاهل بما حققه من ظفر في منطقة حلب في سورية الشمالية ، وهو ادعاء يصعب تصديقه بسهولة بعد الكشف عن الوضع الدولي في غربي الفرات حيث كانت تقوم مدن هامة : كركميش وإيمار وحلب وإبلا .

ومع ذلك فإننا إذا قبلنا بما روته المصادر الأكدية عن الحملات التي اتجهت إلى أمورو (الغرب) ، ونحو سواحل البحر المتوسط وآسية الصغرى .. فإن علينا أن نقبل ذلك بحذر وتحفظ . فالانتصارات الأكدية لم تكن مجاناً ودون بذل جهود كبيرة . وقد أقيمت أنصاب تذكارية ومسلات في عدد من المواقع لتخليد ما تحقق من انتصارات في مناطق ديار بكر وأربيل في الجزيرة وشمال العراق . ولقد نجح نرام سن في دخول سوسة عاصمة عيلام وجعل منها واحدة من أبهى عواصم الامبراطورية ، واهتم بربطها بشبكة مواصلات تجارية تصل إلى مناطق الخليج : ديلمون ، وماجان ، وملوخا . وقد

---

(٥) جاد ،
انظر أيضاً سولبرجر وكوبر : نقوش سومرية وأكدية .
وحسب ج . أوتس ربما يعنى الاسم الجغرافي ملوخا سواحل بحر عُمان ، من جنوب شرقي جزيرة العرب وساحل مكران حتى السند :
J.Oates, Babylon, 38.

كان النفوذ الأكدي ملموساً في جنوب بلاد الرافدين، ومما يؤكد ذلك الوثائق الأكدية الكثيرة التي وجدت هناك. وعلى الرغم من المصاعب الكثيرة التي واجهها الحكم الأكدي في بلاد الرافدين وأمورو (سورية)، فإن موقف شعوب زاغروس الجبلية كان يشكل ومنذ أيام نرام سين خطراً حقيقياً. وعلى الرغم من وسائل الشدة التي اتبعها ملوك أكّد فإنهم لم يتمكنوا من حصر هذا الخطر وقهره، فلم تتقبل شعوب لولوبي وكوتي/غوتي سلطة (الامبراطورية) أبداً. وقد تسبب هؤلاء في إيجاد ظروف خطيرة استنفدت قوى الدولة وأدت إلى انهيار (الامبراطورية) وسقوطها بعد صراع دامٍ طويل.

ويجب هنا أن نشير إلى العوامل الداخلية التي عملت على إضعاف الدولة، فبالإضافة إلى الاستنزاف الشديد في القوة المحاربة على مدى سبعة وثلاثين عاماً من حكم نرام سن، كانت المعارضة التي قادتها بقايا السلطات والمؤسسات القديمة في سومر وعلى رأسها هيئة الكهنة في معابد نيبور بالغة الأثر في جرّ الدولة الأكدية إلى نهايتها.

وفي مثل هذه الظروف العصيبة قام شر كليشرّي بن نرام سين بدور مهمٍ جداً في مدّ عمر الامبراطورية فترة أخرى من الزمن امتدت ما يقرب من نصف قرن. لكن الثورة اندلعت في عيلام بظهور حكم محلي انفصل عن السلطة المركزية. وإلى ذلك العصر يعود ماشيد في سوسة من معالم دينية وتماثيل توضح المطامع التوسعية لأمراء عيلام في جنوب بلاد الرافدين. إلّا أن الخطر الحقيقي الذي كان على الملك الأكدي مواجهته هو هذا الخطر المزدوج والذي تمثل بتحركات موجات جديدة من بدو الجزيرة العربية الذين تحركوا من بادية الشام باتجاه وادي الفرات من جهة ومن الكوتيين الذين انحدروا بكثافة وقوة عبر ممرات جبال زاغروس من جهة أخرى. وقد تطلبت مواجهة هذه الأخطار اتخاذ مزيد من الاستعدادات الدفاعية وإنشاء خطوط ومراكز للمراقبة على الجبهتين الشرقية والغربية كلتيهما. إلّا أن تحركات الكوتيين اتخذت طابعاً مدمراً بدءاً من نحو ٢٢٣٠، إلى ان سقطت الدولة نهائياً نحو ٢١٦٩ ق.م.

٥ ــ حضارة بلاد الرافدين في العصر الأكدي

إنه لمن السابق لأوانه تقويم العمل الذي أنجزه ملوك أكّد ومدى شموله. وإن غياب آثار العاصمة الأكدية حتى أيامنا هذه في باطن الأرض يجعل من العسير التعرّف بسهولة على دور أكّد في تاريخ بلاد الرافدين والشرق القديم بشكل صحيح. وإن ما بين أيدي الباحثين من آثار أكّدية لا يتعدى بعض النصوص الرسمية والروايات الأسطورية التي صاغها كتّاب من عصور متأخرة عن

منجزات العصر الأكدي. وبعض النصوص الاقتصادية والإدارية من المناطق البعيدة التي كانت تابعة للدولة الأكَّدية: كمناطق سومر وعيلام وديالى والخابور. ومن الواضح أن هذه المجموعة من النصوص، على أهميتها، غير كافية لتكوين صورة مفصلة ودقيقة عن تاريخ العصر الأكدي.

ومع ذلك فإننا لسنا بحاجة إلى نصوص كثيرة من أجل تأكيد العمل الأساس والمركزي للأسرة الأكدية، وهو تأسيس أسرة حاكمة استطاعت توحيد بلاد الرافدين بكل أقاليمها تحت إدارة مركزية. فبدءاً من ~ ٢٣٥٠ ظهرت دولة كبرى موحدة ضمت بلاد الرافدين: سومر وأكّد ومناطق الشمال وعيلام وأقاليم عديدة مجاورة. ولئن أقرّت الإدارة الجديدة لبعض المناطق بخصوصيتها، فقد فرضت على الجميع سياسة الدولة الواحدة المشتركة. وهي من ملامح عصر جديد أثّر بوضوح في مواقف المدن الرافدية التي لم يكن باستطاعتها آنذاك الخروج عن نظام الوحدة والاعتراف بضرورته الاستراتيجية سياسياً واقتصادياً.

وكان **الجيش** أحد الأدوات الهامة الجديدة التي فرضت بها الدولة سياستها. فقد انتهى عصر الكتائب المسلَّحة التي كانت تتقدم بصفوف متراصة وهي تحتمي بتروسها الثقيلة. وقد أدّى التسلح الجديد للجيش الأكدي إلى تبديد هذه الصفوف تحت ضربات السهام التي كانت تخرق الصفوف وتدع فرصة للمشاة من حملة الرماح المسنونة والبلطات القاطعة للدخول بين أعدائهم للفتك بهم قتلاً وطعناً وذبحاً.

وعمل الملوك الأكَّديون على إعداد جيوش مسلّحة بالأقواس والنبال وبالأدوات القاطعة، نظمت بطريقة تجعلها قادرة على التحرك السريع وهو ما كان يفرض تفوقها على القوات المعاصرة. ويمكن تقدير عدد أفراد جيش شروكين الذي قاده في حملته على بلاد أمورو (غربي الفرات) بـ ٥٤٠٠ جندي. ويتباهى ريموش بأنه استطاع أسر ٥٧٠٠ من السومريين الذين ثاروا ضده. ويدعى كذلك بأنه قتل ١٧٠٠٠ عيلامي وحمل منهم ٤٠٠٠ إلى الأسر. وكان يتراوح عدد أفراد الجيش الأكّدي ما بين ٦٠٠٠ ــ ١٧٠٠٠ جندي.

ويمكن لهذه الأرقام أن تعطينا فكرة عن تطور قوة الجيش الأكدي وتناميه بخاصة في عصر نرام سن. فقد طوّر هذا الملك مفهوم الملكية، وبعد لقب (ملك كيش) الذي كان يحكم مدينة فرض فيها نفسه حكماً بين ملوك بلاد الرافدين وأمرائها الآخرين اتخذ نرام سن لقب (ملك الجهات الأربع)، الذي يمكن أن تكون له دلالة عالمية. ومن أجل التأكيد على فكرته ادّعى الربوبية. ولكننا

لا ندري ما إذا كانت قد نظمت طقوس لعبادته . ومهما يكن فإن هذه الأفكار تتضمن تطوراً كبيراً في أفكار المجتمع تجاه فكرة الملكية ، والنظام الملكي .

٠ التطــور الاقتصــادي

تقلصت قوة المعبد اقتصادياً في العصر الأكّدي ، في حين ازدادت نسبة الملكية الخاصة . وزادت أملاك الملك والقصر . فقد اشترى مانيشتوسو أراضي كثيرة ، وقام بتوزيع مساحات واسعة منها على أنصاره وحاشيته من الأكديين .

وكان من الواضح أن الدولة كانت تتطور من مجتمع محدود تسيطر عليه الهيئة الدينية إلى نظام ملكي زمني تراجع فيه دور المعبد إلى المرتبة الثانية بعد القصر .

وقد استعان الملوك بجهاز من الموظفين والكتاب ووضعت قواعد لتدرج السلطة ولتسلسل العلاقة بين المسؤولين الإداريين في المراكز البعيدة والعاصمة . وكان لبعض المدن إداراتها المحلية ومجالسها مثل أور وأشنونة . وربما كان لبعض المدن نشاطها الاقتصادي الخاص بها . إلّا أن اتساع الدولة واختلاط السكان فيها أدّيا إلى تزايد الحاجات اليومية وإلى تطور الحِرَف والمهن لتأدية الخدمات المختلفة ومنها مهن رفيعة كالطب . وكانت الأجور تدفع بكميات معلومة من الحبوب والدقيق والزيت . وتطورت العلاقات التجارية مع مناطق بعيدة وبخاصة ديلمون وماجان وملوخا ، وكذلك العلاقات مع منطقة غربي الفرات .

٠ التطــور الديني

لم تؤثر هذه التعديلات التي طرأت على حياة المجتمع في العصر الأكّدي تأثيراً كبيراً في الأشكال والصيغ التقليدية للمعتقدات الدينية . فالبانتيون السومري المشترك لم يختف مع الاستقلال السياسي للمدن . بل على العكس من ذلك كان مبدأ تعدد الآلهة سبيلاً للإقرار بوجود آلهة متعددة ومتزامنة من الإرث السومري القديم ومن المعبودات الأكدية الجديدة وهو ما شجع عليه الملوك الأكّديون . وقد أدمجت عبادة الآلهة السومرية بعبادة إلهة أكدية مماثلة لها . ففي نصوص شروباك السومرية نصادف الاسم القديم (إل) الأكدي ، بينما تبرز أهمية (إنليل) السومري في نصوص أكدية . وفي ظروف التغيير العام السياسي والاجتماعي والثقافي التي رافقت تراجع السومريين وصعود الأكديين اكتسب اثنان من المعبودات (السامية) شمش ، وإشتار احتراماً كبيراً وموقعاً هاماً في النصوص الميثولوجية والأدبية التي صيغت فيما بعد بوصفهما مرادفين للمعبودين السومريين القديمين أوتو وإنانا .

١٠ الفن في العصـــر الأكّدي

يمكن القول إن حضارة بلاد الرافدين في العصر الأكدي هي حضارة العصر السومري ولكن بروح جديدة. وقد تبدّت ملامحها في الفن أكثر مما تبدّت في النصوص الأدبية. وقد اختار الفنان موضوعاته مما كان معروفاً من قبل في سومر ولكنه تناولها بأسلوب جديد. واستوحى النحاتون من الاتجاهات السابقة، ولكن العصر كان يطرح موضوعات مختلفة. فلوحة نرام سن، الموجودة الآن في متحف اللوفر في باريس، تقدم أفضل مثال على ذلك. وترمز اللوحة إلى انتصارات نرام سن. وقد استطاع الفنان الأكدي أن يعبر عن الفكرة بإبداع وبراعة في التنفيذ، وجرّ أشخاص اللوحة باتجاه واحد صاعد. ويبدو الملك الشخصية البارزة بينهم بجلال غير مألوف في الآثار السومرية السابقة. وفي اللوحة عمقٌ وبُعد لامتناهٍ تظله سماءٌ حرّة رائعة.. وعلى الرغم من استمرار التأثير السومري، فليس معنى ذلك أن العصر الأكدي كان خالياً من فنانين عباقرة ومن موضوعات مستجدة مثيرة للإبداع. وإذا ما تتلمذت أكّد على سومر كما يردد الباحثون المختصون، فإن العصر الأكدي كان حلقة جديدة في تاريخ بلاد الرافدين اتصلت بحلقات بعدها في العصر البابلي والأشوري حين عبرّت حضارة هذه البلاد عن خصائصها الذاتية في النحت والعمارة وسائر الفنون.

٦ ــ مملكـة أكّـد أوّل «امبراطـوريـة» فـي التـاريـخ

تجربـة الـدولـة الكبـرى

يسجل تأسيس هذه المملكة الكبرى (الامبراطورية) على يد شروكين، في القرن الرابع والعشرين ق.م نحو ٢٣٣٤ ق.م منعطفاً فاصلاً في تاريخ المشرق العربي القديم. فلأول مرة وصلت القبائل والشعوب التي كانت تتكلم لغات ولهجات (سامية)، وهي أقدمُ لغاتِ (العربية الأولى)، إلى ممارسة سيطرة سياسية دائمة على أرض بلاد الرافدين كلها، وفقد السومريون دور السيادة. وهكذا حلّ العصر الأكادي محل العصر السومري القديم إلّا أن هذا الانتقال في السيادة قد يحتاج إلى بعض الإيضاح.

فمن دراسة النصوص والوثائق لا نستطيع أن نسجل أي تعارض ما بين الساميين والسومريين بصفتهما من العناصر المكّونة للمجتمع الرافدي القديم. فالتمييز بينهما يبنى على أساس لغوي لا على أساس عنصري. حتى ان التعارض اللغوي يبدو كذلك وهمياً، لأن كتّاب الدولة الأكّادية استمروا غالباً في استخدام اللغة السومرية إلى جانب الأكدية.

أما أهمية هذا الحدث التاريخي، وهو التغيير السياسي الذي تمّ على أيدي الاكاديين، فتكمن

في انفجار الأفق الجغرافي المعهود منذ القديم أي في تجاوز الحدود التي توقف عندها السومريون . فقد قاد شروكين جيشه الظافر من بلاد البحر الأدنى ، الخليج (العربي) إلى البحر الأعلى (المتوسط) ، ومن سلسلة جبال زغروس إلى جبال طوروس والأناضول . وعلى الرغم من أنه لم يتوصل بالفعل إلى توحيد كل هذه المناطق تحت سلطة مركزية واحدة ، فإن نفوذه الفعلي يبدو أنه شمل أراضي في بلاد الرافدين والجزيرة امتدت إلى عيلام وحوض نهر ديالى وإلى شمال العراق وحتى حوض الخابور . وقد كان لدى المعاصرين للأحداث آنذاك انطباع بأن عصراً جديداً قد بدأ ، وأنهم بصدد اكتشاف عالم جديد لم يكن معروفاً من قبل . وبدا إنجاز شروكين الذي تحقق بسهولة كأنه بركة من الآلهة ، وتمثل الملك في أذهان الناس مثلاً للفاتح المظفر ، وارتسمت له صورة مثالية قدوة ، حرص العواهل المتعاقبون بعدئذ على محاكاتها في أشور وبابل (شروكين الثاني ، ونبوخذ نصّر) .

إلاّ أن المرحلة التي جاءت بعد شروكين في تاريخ الدولة الأكادية كانت أقلَّ بريقاً . فالدولة لم تعرف الاستقرار والأمن والطمأنينة وكان على شروكين نفسه أن يحمل السلاح طوال مدة حكمه . أما خلفاؤه من أبنائه وأحفاده فكان عليهم أن يواجهوا الثورات المتكررة وربما كان مصير ثلاثة من العواهل الأكاديين الموت قتلاً . ولقد انتهى حكم نرام سين الذي يمثل عهده الذروة في الدولة الأكادية إلى كارثة . ورأت التقاليد الموروثة في هذا العاهل الصورة الكاملة للملك المشؤوم . إلّا أن هذه الصورة قد تكون من وضع خصوم الأسرة الأكادية الحاكمة ومعارضيها . ومهما يكن فإن الرجال الذين تعاقبوا على الدولة الأكادية كانوا يتمتعون بمؤهلات ممتازة للحكم في ظروف بالغة الخطورة .

على أنه من الصعوبة بمكان كبير التعرف على تلك الظروف بدقة لعدم توافر الوثائق الكافية وما تزال الوثائق المباشرة الضرورية للبحث مدفونة في مكان ما من أرض وسط بلاد الرافدين بين أنقاض أول عاصمة لأول مملكة مشرقية ــ عربية كبرى في التاريخ . ولكن ما يتوفر حتى الآن من الوثائق التي يعود إلى زمن ما بعد شروكين قد يسمح بتسجيل بعض الملاحظات :

إن أول ما قد يمكن ملاحظته هو حدوث **تغيير إداري جذري** . فالمناطق ذات الأغلبية الأكادية كانت تدار من السلطة المركزية مباشرة . أما المناطق التي ضُمت إلى المملكة مثل جنوبي بلاد الرافدين وعيلام فقد احتفظت بنظمها بعد أن أُفرغت من مضمونها السابق ؛ ولئن بقي رؤساء المدن السومرية يحملون الألقاب الرسمية القديمة نفسها ، فإنهم لم يكونوا في ظل الحكومة الأكادية أكثر من حكّام محليين . والواقع هو أن الطبقة النبيلة القديمة كسر جناحها واستبدلت بها طبقة **ارستقراطية من كبار** الموظفين .

ولا بد أن مصالح بعض الأفراد والجماعات قد مُسّت واستدعى ذلك ظهور بعض الردود والثورات التي قد يكون سبقها ورافقها نمو المشاعر العدائية والنزعات الإقليمي والمحلية. ولا يستبعد بالاستناد إلى ما ورد في إحدى الحوليات وبعض نصوص العِرافة وقوع ثورة عامة ضد شروكين في نهاية حكمه وأنه ربما حوصر في عاصمته لكن الملك الذي كان تقدّم في السن استطاع الانتصار على الحلف الثائر على أبواب عاصمته نفسها. وإذا كان هناك من استنتاج يجدر ذكره فهو أن **تأسيس المملكة الكبرى لم يكن أمراً يسيراً هيّناً** ولم تمر التطورات دون مصاعب. فلقد بدت الدولة على الرغم من اتساعها وعظمتها قابلة للمساس بها وعرضة للاهتزاز المفاجئ الخطير. لكن بمقابل ذلك كان هناك عامل دائم وأساسي للاستقرار الطويل وهو الجيش.

لقد أضحى **الجيش** على أيدي الأكاديين مؤسسة دائمة، مسلحاً بصورة أكثر فعّالية من الممالك السومرية المنهارة، وبخاصة الأقواس التي كانت تعد آنذاك سلاحاً بعيد المدى بالقياس إلى الأسلحة اليدوية التي كانت تستخدم آنذاك في المواجهة المباشرة. ولقد تعزّز في ظل الحكم الأكادي وإدارته القوية مفهوم وحدة العالم تحت سلطة واحدة: **ملك واحد لعالم واحد**، ويتلخص ذلك في اللقب الملكي «ملك الجهات الأربع» الذي اتخذه نرام سين لنفسه، الذي جعل اسمه مسبوقاً برمز الآله. مما جرّ عليه نقمة سدنة معابد نيبور ومواجهتهم.

ومهما يكن فإن نشوء الدولة الأكادية وقيامها وامتدادها وتوسعها، إنما يمثل مرحلة حاسمة جديدة في تاريخ المنطقة تركت بصماتها على المراحل التي تلتها. فعندما انهار حكم الأسرة الأكادية أمام نيران الغزو الكوتي نحو ٢١٦٩ ق.م. كان قد خلّف بعدَ حكم استمر قرابة قرن ونصف القرن واقعاً جديداً في الجغرافية السياسية للمشرق العربي القديم يتمثل في مملكة كبرى ودولة امبراطورية لها قوة عسكرية فائقة وتحكمها سلطة شرعية تكونت لها تقاليدها ومراسيمها. وتتميز هذه السلطة **بإدارة مركزية** معترف بها في رقعة واسعة من المنطقة. هذان هما الوجهان البارزان من وجو التغيير اللذان ظهرا في تلك المرحلة ثم لازما كل المراحل التالية من تاريخ بلاد الرافدين إلى نهايته.

لقد كانت **تجربة** الدولة الأكدية إذن تجربة غنية بالأحداث والخبرات وحفلت بصراعات داخلية شديدة وعنيفة أرهقت قوى الدولة. وكان للدولة أعداء خطرون شديدو المراس من الأقوام والشعوب المحيطة بها. وكان على ملوك أكّد التحرك في مدى جغرافي واسع والتفكير في إدارته وحمايته وهو ما لم يكن معهوداً من قبل. وقد عاشت هذه التجربة بصلابة مدة تجاوزت القرن، أمّا الإخفاق

الذي لحقها آخر الأمر فينبغي أن يعزى كما يرى الأستاذ ب غاريلّي[٦] إلى شدة الظروف أكثر مما يمكن عزوُه إلى أخطاء الرجال الذين حملوا أعباء تلك المرحلة .

(٦) P.Garelli, le Proche-Orient Asiatique · P.U.F. (1969), p.92.

الفصـــل الســابــع

عصـر الإحيـاء السـومـري
لكَـش: غـوديـا وعصـره
أور الثـالثـة: أورنمـو وشـولـغـي

١ ــ بـلاد الـرافـديـن بعـد انهيـار الحكـم الأكـدي

بعد شركلّيشري دخلت بلاد الرافدين في مرحلة من الفوضى لم يكن بالإمكان أن تعرف فيها فعلاً حدود سلطات الملوك والأمراء العديدين. ويصف أحد النصوص الوضع السائد قائلاً «إنه لم يكن يعرف من هو الملك ومن هو ليس بملك» وفي هذا التعبير دليل واضح على انهيار السلطة. على ان العنصر الجديد الذي تغلّب على البلاد يتمثل بالكوتيين/Guti الذين لم يكونوا جديرين بالحلول محل الأكديين في قيادة دفة الحكم والدولة في بلاد الرافدين. وقد بدأ دور الكوتيين بالتخريب وقطع الطرق وإتلاف المحاصيل وإحراق المدن. وقد شجعت هذه الظروف الجديدة الحركات الانعزالية والاستقلالية المحلية. فعادت الحكومات السومرية إلى الظهور في لكش وأوروك وكذلك في عيلام. وقامت بالوقت نفسه مملكة أكدية صغيرة جديدة كانت نواتها منطقة نهر ديالى.

في هذه الظروف المستجدة عادت العواصم السومرية القديمة مثل مدينة أور التي ازدهرت في ظل الأسرة الحاكمة الثالثة في مدينة أور (٢١١٢ ــ ٢٠٠٤) وظهر فيها ملوك بارزون مثل أورنمو الذي كان من أوائل المشرعين وشولغي وأمار سوين (أمارسين). كما ازدهرت مملكتا إيسن ولارسا في أواخر الألف الثالث، وقام تنافس شديد بينهما استمر إلى القرن الثامن عشر.

إلّا أن تراجع العناصر الأكدية واسترداد السومريين لدورهم السابق لم يكن نهائياً ، فقد حملت موجات جديدة من التحركات البدوية أفواجاً كثيفة من الأموريين في البادية العربية السورية إلى مختلف أنحاء الهلال الخصيب في بلاد الرافدين ودلتا النيل في أواخر الألف الثالث ومطلع الألف الثاني ق . م .

٢ ــ الكَوتيون والغزو الكَوتي

عمت بلاد الرافدين بعد شركليشري فوضى سياسية ــ اجتماعية شاملة انعكست أخبارها في الوثائق والنصوص الرسمية في بعض دواوين الدول السومرية . ومهما اختلف الرأي في درجة الانقسام الذي حصل بعد سقوط الحكم الأكدي ، فإن المؤكد هو فقدان السلطة الملكية المركزية وظهور النزعات الاستقلالية المحلية وانتشار العناصر الغريبة المنحدرة من المناطق الجبلية الشمالية . وأهم هذه العناصر الطارئة على البلاد الكوتيون/الغوتيون (Guti) . والغوتيون شعب جبلي أصله من بلاد الكوتي Gutium الواقعة في جبال زاغروس على الحدود الشرقية لبلاد الرافدين . وقد بدأوا بمهاجمة البلاد وتهديد أمنها منذ أيام نرام سين ولكنه استطاع الانتصار عليهم ونجح شركليشري في إيقاف تهديدهم خلال مدة حكمه . ولكنهم تمكنوا من اجتياح البلاد والهبوط إلى السهول بعده .

ولم يكن الكوتيون جديرين بتسلّم مقدرات البلاد بعد الأكديين . ولربما لم يكونوا هم أنفسهم ليهتموا بشيء أكثر من جني ثمرات الغزو في بادئ الأمر . ولكن يبدو أن سير الأحداث والفراغ الذي خلّفه انهيار السلطة الأكدية مما شجعهم على القبض على زمام الأمور . لكن حكمهم لم يكن إلّا صورة باهتة للامبراطورية الأكدية المنهارة . وقد مكنهم التدهور السياسي في البلاد من الحكم بصورة متصلة مدة ١٢٥ عاماً تعاقب خلالها على السلطة ٢١ ملكاً منهم . ولا يمكن القول إن هذه المدة الطويلة كانت كلها عصراً من الفوضى . إنه من المؤكد أن الكوتيين قاموا في بادئ الأمر ولسنوات طويلة بقطع الطرق وسلب الأرياف والاستيلاء على المحاصيل والأرزاق ، وبحرق المدن وتهديمها . ولكن المدن السومرية القديمة استطاعت أن تنهض من هذه الفوضى وتوصلت إلى استئناف نشاطها السياسي والاقتصادي والثقافي طوال مدة السيطرة الكوتية التي يبدو أنها ضعيفة وشكلية أحياناً وجزئية لم تنتشر إلّا على رقعة محدودة ، ومتناوبة غير دائمة . وقد فرضت الثقافة الأكدية نفسها على الغالبين . فقد اتخذ بعض زعماء الكوتيين أسماء أكّدية وادعى بعض الملوك لقب « ملك الأقطار الأربعة » . لكن هذا لم يكن إلّا مجرد ادعاء لفظي أجوف ، ولم يكن بذي معنى حقيقي .

فقد تمكن أمراء سلالة أوروك الرابعة من الإفلات من سيطرة الكوتي . واستطاع أمير (ENSi)

لكش الذي تخلص في ظروف الغزو الكوتي من كل نفوذ للأكديين في آخر أيام دولتهم، أن يعزز استقلاله وأن يبتعد عن أي ارتباط جديدة تجاه الحكام الجدد لبلاد الرافدين. وكانت عيلام قد انفصلت واستقلت منذ وقت طويل. واستمر مع ذلك وجود مملكة أكدية صغيرة حول مدينة أكَّد وصل نفوذها إلى حوض نهر ديالى، مدة ثلاثين عاماً بعد الغزو الكوتي، ولكننا لا نعرف الظروف التي انتهت فيها هذه الدولة.

وقد بدا منذ نحو الربع الأخير من القرن الثاني والعشرين ق.م (٢١٢٠) أن الكوتيين لم يعودوا يمثلون قوة يعتد بها في بلاد الرافدين، بعد أن تحولوا إلى عامل من عوامل الاضطراب يرتبط بذكريات مقيتة. وعندئذٍ قدر ملك أوروك السومري أوتو ــ خيجال أن اللحظة أضحت مواتية لتصفية الوضع، فقام بمهاجمة الملك الكوتي تيريقان وانتصر عليه، وقاده أسيراً إلى أوروك. وقد عبّرت عن الانتصار على «تنين الجبل» كتابة بأسلوب ملحمي يؤكد فيها محرّر البلاد أوتو خيجال أنه تلقى تأييد إنانا ودموزي وجلجامش. وسارع العاهل المنتصر إلى إعلان نفسه ملكاً على الأقطار الأربعة، وهو اللقب القديم الذي يدعى حامله حكم العالم. لكنه اهتم عملياً بإعادة النظام إلى نصابه في المناطق التي كان يسيطر عليها.

وبعد إحلال الأمن في البلاد السومرية سرعان ما دخلت أرض الرافدين في مرحلة جديدة شهدت فيها نهضة اقتصادية وثقافية تثير الدهشة، ولا يمكن تفسيرها إلّا إذا قدرنا أن التطور كان يسير قدماً وسط الأحداث العنيفة التي مرت في العصر الأكدي ثم أيام الغزو والكوتي.

٣ ــ غوديا حاكم لكش

في الوقت الذي اختفى فيه آخر ملوك أكَّد، حكم في لكش الـ(إن ــ سي) أورباو (أوربابا) UR-BABAU الذي عثر على تمثال له صغير الحجم وعلى نصوص تمجِّد ما قام به من أعمال عمرانية. وقد خلفه على الحكم أصهاره الثلاثةوأهمهم **غوديا** Gudea الذي خلفه بعده ابنه وحفيده. واستطاعت هذه الأسرة أن تحكم في النصف الثاني من القرن الثاني والعشرين في بعض مناطق بلاد الرافدين الجنوبية. في الفترة الأخيرة من السيطرة الكوتية.

نجح **غوديا** في تكوين نواة دولة سومرية جديدة قبل ملوك الأسرة الثالثة في أور. وتميز عهده بالعودة إلى الطقوس المكرّسة لعبادة الآلهة السومرية التقليدية. واسترد الدين مكانته في الحياة اليومية وفي التراث المكتوب في تلك الفترة. وفي النصوص التي خلفها حاكم لكش يعلن أنه كان ينفذ إرادة الآلهة التي اعتقد أنها اختارته لقيادة بلاده وإدارة دفة الحكم فيها. وفي العقلية السائدة كان يعتقد أن

الآلهة كانت تتدخل مباشرة وتحضر بنفسها حفلة التتويج . وكان يجري التعرف على إرادات الآلهة ورغباتها بتفسير النبوءات والظواهر العجيبة وهذا مما كان يعطي للكهنة دوراً خاصاً في المدينة والدولة . وكان اتصال الآلهة بالملوك أمراً ممكناً ، حسب التقاليد الجارية ، ولكن لم يكن من الممكن أن يتجلى الآلهة للناس العاديين .

وفي بعض الظروف الخطيرة كان يسيطر القلق البالغ عندما تتأخر الإرادة الآلهية عن الانكشاف لجلاء أمر ما أو للنصح في اتخاذ موقف معيّن تجاه حدث خطير . وكان غوديا بين عواهل الشرق الأدنى القديم شديد الانهماك بهذه الممارسات ويخشى دائماً أن تغيب عنه هذه العناية الآلهية التي كان يؤمن بها .

وضمن هذه المفاهيم الخاصة بالعقلية الرافدية في تلك المرحلة كان الملوك والحكام يتصورون أنهم هم مسؤولون عن أعمالهم في الحكم تجاه آلهتهم . وتشير المبادئ السائدة إلى أن الآلهة كانت تريد من الحكام أن يعملوا على ترسيخ النظام وإقامة العدل ونشر الخير والازدهار ، ويكون ذلك بالعمل على إرضاء الآلهة . وكان واجب الملوك توفير الظروف المناسبة لذلك ويؤدي هذا بالتالي إلى تحسين ظروف المعيشة للناس وتحقيق أسباب السعادة والتقدم . فالملوك الصالحون هم الذين يعملون لخير رعيتهم . وقد كشفت التنقيبات الأثرية في لكش عن جملة من الوثائق الهامة منها الأختام الأسطوانية الفخارية والتماثيل المتعددة الجميلة . والدقيقة التي تمثل غوديا وهو في وضع العابد المتأمل الحكيم . وقد عثر على معظم هذه التماثيل في المعابد رغبة من صاحبها بوجوده الدائم على مقربة إلٓهه ليستمد منه الرضا والرضوان .

وما يثير الدهشة قبل كل شيء المستوى الرفيع **للنحت** السومري في ذلك العصر . ويوجد في متاحف العالم اثنا عشر تمثالاً لحاكم لكش غوديا وعدد منها من حجر الديوريت . ولئن كان بعض هذه الأعمال يفتقر إلى الأبعاد المتناسبة فبعضها الآخر يعدّ أعمالاً فنية رفيعة وله قيمة عالمية . وتشاهد على بعض النصب والأواني المنقوشة والمنحوتة مشاهد دينية . ولبعضها من الأهمية ما يتجاوز الأهمية التاريخية وحسب ويمكن عدُّه من آثار التراث الإنساني الرفيع . ويقدم بعض هذه النقوش نماذج من التزيينات التي كانت تزين بها المعابد السومرية في ذلك العصر الذي زاد فيه الاهتمام بالحياة الروحية بعد الشدة التي مرت بها البلاد إبّان الغزو الكوتي الذي نشر الخراب والدمار .

وقد اختفت من الوجود ، وياللأسف ، مجموعة المباني الدينية التي شيدت في تلك الفترة . ولم يبق إلّا قوس وبعض الجدران من معبد نين جرسو ، ولكن يشاهد على أحد تماثيل غوديا مخطط المعبد

ومنه يمكن التعرف على هندسته وأقسامه . ولا شك أن أعمال التنقيب العشوائية في القرن الماضي قد أدت إلى تخريب أجزاء كان من الممكن إنقاذها لو اتبعت الأساليب الصحيحة في التنقيب .

وقد ترك الحاكم الحكيم غوديا للأجيال تقريراً عن الجهود التي بذلها ليجعل المعبد الذي أقامه للمعبود نين جرسو في لكش عنواناً للعظمة والإبداع الفني . فقد استحصل على الخشب من جبال الأمانوس والحجارة المقطوعة للبناء من عيلام وجبال أمورو . وجلب الذهب والنحاس والديوريت والعقيق والبخور والخشب الثمين وربما الأبنوس من بلاد ماغان/مغان وملوخا ، وقد يقصد بهما عُمان ووادي الهندوس/السند . وقام غوديا بإرسال بعثات إلى عيلام لاستجلاب الأيدي العاملة والحجارة اللازمة للنحت والبناء .

ونستخلص من هذا النص معلومات هامة عن العلاقات بين المناطق وعن التنظيم السياسي والاقتصادي للدولة وعن سير القوافل التجارية في جو يسوده الأمن والنظام . ويشكر غوديا للعناية الإلّهية حمايتها للطرق من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى وهو المدى الجغرافي التقليدي للتحركات البشرية وللفعاليات التجارية بين مناطق الشرق العربي القديم .

وفي نص آخر ما يفيد أن بناء المبعد كان إنقاذاً لإرادة إلّهية : فقد قرئ على أحد الأختام الأسطوانية نص مسماري يتضمن أن غوديا رأى في الحكم الإلّه يدعوه إلى بناء المعبد . وقد فسّر له كهنة الربّة (نانشة) الحلم وباشر العمل فيه لتوه ، بعد إجراء الطقوس الدينية الاحتفالية التي شملت الطهارة والصلاة والعبادة وتقديم القرابين . وقد أقيمت احتفالات كبيرة بعد إنجاز العمل . وينقل إلينا هذا النص تعبيراً صريحاً عن عمق الشعور الديني لدى السومريين ويقدم لنا جانباً من مظاهر العقلية السومرية ومنهج التفكير الذي طبع الحياة الرافدية بطابعها إلى نهاية مراحل تاريخها القديم .

٤ ــ بلاد الرافدين في عصر أسرة أور الثالثة : أورنمو وشولغي

أعيد تنظيم جهاز الدولة في بلاد الرافدين ببطء وبصورة تدريجية بعد الصراع الذي أدّى إلى إنهاء حكم الغوتيين وبعد أن استقرت الأمور بيد أورنمو على إثر انتصاره على ملك أوروك أوتو خيجال/مفتتحاً عصراً جديداً في تاريخ بلاد الرافدين . وقد تمكن أمير أور الظافر من السيطرة على وادي الرافدين بعد تغلبه على آخر عصابات الكوتيين وعلى دولة لكش ، لكنّه لم يدَّعِ لنفسه لقب « ملك الأقاليم الأربعة » واكتفى بلقب « ملك سومر وأكّد » . وهو إذ وجد نفسه حاكماً على بلاد خربة في أوضاع مزرية أخذ يعمل بأقصى سرعة ممكنة على ترميمها ومن أجل نشر ألوية النظام فيها . ثم التفت إلى تنفيذ المشروعات الكبيرة : بناء معبد أور المدرّج المرتفع (الزّقورة بطول ٦٠ م

وعرض ٤٢ م) على شرف الإله نانار وإعادة حفر القنوات المهملة، وشق طريق مائية لتصل مباشرة ما بين نيبور وأوتورنجال Uturungal لتفادي مرور المراكب بلكش وأومّا .

ويعد أورنمو واحداً من أقدم المشرّعين في تاريخ العالم . فقد سنَّ قانوناً هو أسبق من قانون حمورابي بأكثر من قرنين ونصف القرن لفرض النظام في المجتمع السومري الرافدي ، بعد تفشي الاضطراب وعمت الفوضى كل جوانبه واضعاً للمجتمع قواعد للسلوك الأخلاقي وللعلاقات الاجتماعية .

ومن أهم مبادئها الرحمة بالضعفاء وكفالة الأرمل واليتيم أي من لا معيل له . ونظّم التشريع المقاييس المعتمدة من الدولة وذلك لضبط العلاقات التجارية والمعاملات المادية بين الناس . وأوجد نظام المكافآت المالية بدلاً من الإقطاع الزراعي . وأحلّ مبدأ التعويض المالي في العقاب والجزاء ، محل مبدأ الذَّحْل أي المعاملة بالمثل . وأظهر أورنمو أنه كان حاكماً حازماً ومستنيراً . وضع للدولة الرافدية في أواخر الألف الثالث ق . م أسساً كان على خلفه شولغي أن يتابعها .

بعد مصرع أورنمو الذي مات قتلاً خلفه ابنه **شولغي** الذي حكم مدة طويلة وتميز عهده بالحكمة والشجاعة والإدارة الناجحة وبالدبلوماسية البارعة ، وتشبه بالعاهل الأكدي نرام سين ولُقب بملك الأقطار الأربعة .

ويعد شولغي المنظِّم الحقيقي لمؤسسات الدولة في عصر الإحياء السومري . وقد أتيحت الفرصة لتحقيق إنجازات كبيرة بامتداد حكمه مايقرب من نصف القرن . وقد كشفت نتائج التنقيبات الأثرية عن مدى اتساع العمل الذي قام به شولغي وشموله ، وعن تنوع فعّاليات المجتمع في بلاد الرافدين ومناطق المملكة في أيامه .

وقد تم حتى الآن نشر أكثر من ثلاثين ألف لوح من النصوص المتصلة بتلك الفترة . ومن أهم الذين اشتغلوا بنشر النصوص السومرية من أور سولبرجر (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦) وجاد وكريمر (١٩٦٣ و ١٩٦٦) . إلّا أن بعض جوانب التاريخ السياسي ما تزال غامضة .

ويبدو أن شولغي كان يسيطر على بلاد الرافدين بسهولة ويسر وكذلك بلاد عيلام ، وامتد نفوذ مملكته شمالاً إلى الفرات الأوسط بما فيه ماري وتوتول وإلى أشور شمالاً وإلى جبيل على المتوسط غرباً . ولم يواجه الملك مشكلات أمنية في مملكته سوى في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية حول أربيل القريبة من القبائل الجبلية التي اعتادت في الماضي الإغارة على البلاد .

وقد مضى الملك في اعتماد وحدات معترف بها للأوزان والمقاييس وفي توحيد التقويم ووسع شبكة المواصلات وشجع حركة القوافل ونظم البريد وحددت المواقف التي يُتوقف عندها . وعمل على إعادة تنظيم الجيش وتعزيزه بالفصائل والكتائب الجديدة من حملة الأقواس بعد أن استخدم هذا السلاح في المنطقة لأول مرة زمن شروكين الأول الأكدي ، وجعله تحت إشرافه وبقيادة ترتبط بالعاصمة أور .

ولم يكن على ولديه أمار سوين (أمار سين) ، وشو سوين (شوسين) ، اللذين تعاقبا على الحكم بعده سوى المحافظة على كيان المملكة ومؤسساتها ولم يقع في عهدها سوى توسع طفيف في حدود البلاد . وكانت المملكة مبنية على أساس ملخصه ربط المدن القديمة التي تمتعت بإدارة خاصة بها ، مباشرة بالقصر الملكي والإدارة المركزية . وبعد أن قسمت البلاد إلى مناطق إدارية جعل على رأس كل منها حاكم إداري مدني (إن ـــ سي) ، وهو اللقب السومري القديم وإلى جانبه حاكم عسكري (شاجن) . وكانت الحكومة تعين من قبلها موظفين لهم مسؤوليات محددة؛ ومن أهم الوظائف المعروفة من النصوص الإدارية : نجا ووش (Nga Ush) = دركي (جاووش) ونوبندا وهو المراقب المالي . ومشكيم وهو المفوّض ، وسوكال وهو الوزير أمّا سوكال مخ فهو رئيس الديوان الملكي وهو بمثابة وزير القصر . وجالا هو الراهب الكاهن المكلّف بالإشراف على مجموعة العمّال في المشاغل . ومن الوظائف الكبرى زاريقم وكانت توكل إليه إدارة المناطق الأكثر أهمية من الناحية الأمنية والدفاعية مثل أشور وسوسة . ولم يكن يعين على إدارة مثل هذه المناطق إلّا الشخص القادر الموثوق .

وقد تطورت فكرة الدولة وترسخت مفاهيمها في هذا العصر ؛ فكانت عبادة الملك وتقديسه مقياساً للتبعية والولاء للحكومة المركزية ولسلطة الملك . وكان التبرير الشرعي لحكم المناطق المغلوبة التي ضمت إلى المملكة مثل عيلام وماري يقوم على أساس أن الملك هو الذي يمثل الإلّه إنليل . لكن شرعية هذه السلطة لم تكن لتحتاج إلى أي تفسير في أور وفي المنطقة السومرية الأصلية التابعة لها لأن الحكم فيها شرعي بالوراثة .

وكانت المشكلة الأمنية من أخطر ما كان يشغل بال السلطة في سومر . فقد عمل شو سوين[1] على بناء خط دفاعي برّي ـــ مائي عظيم يشمل ما بين دجلة والفرات في مكان يقع شمال بغداد ويمتد بطول يبلغ ٢٧٥ كم تقريباً ، لإيقاف تحرك البدو الأموريين باتجاه مناطق العمران محققاً إنجازاً هندسياً عسكرياً رائعاً . وقد اضطر شو سوين كذلك أن يوجه قواته شرقاً لوقف تحركات

(١) C.J.Gadd, Babylonia 2120-1800, CAH I, 2, 909-10
J. Oates, Babylon, p.48.

اللولوبيين . وعلى الرغم من المصاهرات التي عقدها بتزويج بعض بناته من بعض أمراء أنشان في فارس الواقعة في جنوبي إيران فإن القوات السومرية اضطرت إلى خوض الحروب في هذه المنطقة . وللقيام بهذا النشاط العسكري الواسع اضطر الملك إلى تجنيد العيلاميين وأسرى الحرب لحماية مدن المملكة القريبة من شواطئ الخليج . وقد أدّى هذا النشاط الحربي للدولة إلى ازدياد أهمية قائد الجيش في تلك المنطقة الهامة وصار يتمتع بلقب الوزير الكبير وهو لقب احتفظ به لأنفسهم ملوك عيلام بعد استقلالها عن مملكة سومر وأكّد .

وكان الملك السومري في أور هو رأس السلطة الإدارية ، وهو مصدر التشريع ورأس القضاء ، ويدّعي تمثيل السلطة الإلٓهية . وقد يقوم الحكام في المناطق بالنيابة عنه لكنه يبقى هو السلطة الاستئنافية العليا . وبعد تعزيز السلطة الملكية أضحى القضاء في سومر منفصلاً عن المعبد وانتقل إلى دائرة اختصاص الأمير أو الملك . وتشكلت هيئة قضائية ؛ وكان القضاة يستمعون إلى أقوال المتخاصمين والشهود من الطرفين قبل إصدار الحكم . وقد وجد ما يوازي المحكمة العليا في نيبور . ومن أهم موظفي القضاء الكاتب العدل الذي حدّد له راتب معيَّن ، وكان يقوم بتسجيل القسَم وبتحرير الوقائع ويصوغ الحكم . وقد تم الكشف عن نصوص قضائية كثيرة في التنقيبات التي جرت في عدد من مراكز الحضارة الرافدية القديمة وأدّى ذلك إلى القاء مزيد من الضوء على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقوانين والقواعد الناظمة لها .

٥ ــ انهيار مملكة أور الثالثة وسقوطها

بعد موت شولغي تتابع على الحكم أبناؤه أمار سين وشو سين ثم إبي سين . وربما تكون الترتيبات لوراثة الحكم على هذا الشكل قد تمت إثر مؤامرة قامت ضد العاهل المسنّ[٢] .

وقد استبعد أولاد أمار سين الثماني عشر من تولي الحكم بعد أبيهم ، وتوج عمهم إبي سين في المدن الثلاث نيبور وهي المدينة الدينية الرئيسة التي يتوج في معبدها الملوك عادة ، وفي أوروك منبت الأسرة المالكة ، وفي أور العاصمة السياسية[٣] . وقد استطاع أمار سوين وشو سوين المحافظة على وحدة المملكة دون مشقة كبيرة . إلّا أن الحدود الشرقية كانت مصدراً للقلق ، وقُمعت بالقوة ثلاث

---

(٢) انظر سولبرجر E.Sollberger, Sur la Chronologie des rois d'ur III etquelques problêmes Connexes, Afo, 17 (1954-56), p.10-48.

(٣) T.Jacobden, the reign of Ibbi-Suen, JCS, 7 (1957) p.36-47.

محاولات للثورة ، واستردت الدولة هيبتها ، إلّا أن الاضطرابات ازدادت من جهة الغرب مع تعاظم حركات الأموريين .

وكان شوسين قد حاول إبعاد الخطر بإنشاء خطوط تحصينات دفاعية دائمة على الحدود . ويبدو أن هذا النظام الدفاعي كان مجدياً لأن إبي سين عندما تولى السلطة لم يكن الغرب هو همّه الشاغل بل الحدود الشرقية التي عادت إلى الثورة والاضطراب . وقد لجأ الملك إلى أساليب مختلفة لتخفيف التوتر . فبالإضافة إلى الحملات التأديبية لمواجهة الأخطار المحتملة من منطقة جبال زاغروس ، حاول الملك التقرب من بعض القبائل بعقد مصاهرات . إلّا أن الأحداث تسارعت بعد ذلك بتحرك الأموريين واستفحال الأوضاع الداخلية في البلاد .

تكرر ذكر الأموريين في النصوص السومرية في تلك الفترة باسم مارتو (Martu) بعد أن اجتازوا الحدود الدفاعية وأخذوا ينتشرون في بلاد سومر . وقد نهبت المحاصيل وقطعت المواصلات وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعات وانهارت المدن الواحدة بعد الأخرى. واضطر إبي سين إلى تحصين العاصمة أور والمدينة المقدسة نيبور . وسلّم القيادة في المناطق المهدّدة إلى إيشبي — إرّا Ishbi-Erra . وقام الملك بنفسه بقيادة حملة خاسرة على عيلام الثائرة وكانت تلك السنة التاسعة من حكم إبي سين هي بداية النهاية . فاغتنم **إيشبي إرّا** الفرصة وانفصل في منطقة إيسن (Isin) عن الدولة وأسس إمارة مستقلة مبتدئاً أسرة حاكمة جديدة .

لم تؤد الحملات المتعاقبة ضد عيلام من جهة وضد الأموريين من جهة أخرى إلى تخفيف ضغط التطويق الخارجي حول سومر . ولم تجد التدابير التي اتخذت في الداخل لمنع التدهور المتسارع فسقطت أخيراً بقايا تلك الدولة ، بانهيار الأسرة المالكة في أور نحو ٢٠٠٣ تحت وطأة هجمات العيلاميين والأموريين وشعوب زاغروس من الأشداء الجبليين (SU) . ودمرت مدينة أور الجميلة التي خلدت ذكراها نصوص أدبية حزينة تعد من أقدم مراثي المدن في التاريخ .

لا يرجع **سقوط أور الثالثة إلى أسباب داخلية** بقدر ما كان للأسباب الخارجية من تأثير في إضعاف الدولة ودفعها إلى حافة السقوط والانهيار . فآخر الملوك السومريين من أسرة أور الثالثة ، إبي سين ، لم يكن أقل فعاليّة من أسلافه ، ولكن كان عليه أن يواجه ضغوطاً من أطراف وجهات متعددة . فالبدو الأموريون كانوا يتحركون من جهة الغرب (سورية) باتجاه الفرات دون أن يكون للتحصينات التي أقيمت هناك أي تأثير في إيقاف تقدمهم . فقد استطاعوا التسرب إلى ماري وإلى إيسن ولارسا . إلى أن سقطت أور بدورها . وعادت البلاد إلى وضع يشبه ما كانت عليه من

الانقسام بعد سقوط آكد وقبل عصر أور الثالثة . ونشب التنافس والنزاع من جديد بين المدن : ماري على الفرات ، أشمونة ، على نهر ديالي ، ثم إيسن ولارسا وبابل في المنطقة الوسطى ، وأشور في الشمال على نهر دجلة . ولئن ظهر بعض النفوذ للعيلاميين مؤقتاً في لارسا ، فقد كانت أصول معظم الأسرات الحاكمة في هذه المدن من القبائل الأمورية التي اجتاحت البلاد في الوقت الذي كان في الأموريون قد أقاموا أسرات حاكمة عديدة في أنحاء سورية : ماري وحلب وإيمار وقطنة وغيرها . .

لقد خلّفت أور الثالثة وراءها آثاراً هامة في تاريخ بلاد الرافدين ، وبخاصة في الميدان الثقافي ، فبذُلت جهود كبيرة ومنظمة من أجل الحفاظ على وجود ثقافة كانت على وشك الدمار والإبادة ، فقام الفنانون والكتاب والنسّاخون بنسخ المؤلفات والأعمال الفنية والأدبية دون كلل أو ملل . ففي هذا العصر جمعت الملاحم والأساطير والنصوص القديمة وصنفت في مكتبات المعابد والقصور . ورممت المعابد والزقورات وأهمها زقورة أور ، وارتفعت مكانة الكهنة الذين عملوا على دعم الأسرة الحاكمة وتأييدها . وأعيدت صياغة الأناشيد ومنها أناشيد لتأييد الملك . وكان لدى حكام أور الثالثة تصور واضح للحكم والإدارة الدولة .

فقد أقيمت دولة كبرى حقيقية (إمبراطورية) ، لم تشمل بلاد الرافدين فقط بل امتد نفوذها إلى سورية وأعالي الفرات وعيلام أيضاً . وبالقياس إلى (امبراطورية) أكّد التي كانت عسكرية بالدرجة الأولى كانت أور الثالثة بيروقراطية . فالإدارة المركزية الأكدية فُرضت بالقوة ، ولكن بعض المدن السومرية احتفظت ببعض استقلالها عنها . إلّا أن الحكم السومري في عصر أور الثالثة أقام سلطات إدارية في المدن مرتبطة بالعاصمة . وأما الحكام المحليون الذين احتفظوا بلقب إن ـــ سي القديم فقد كانوا مسؤولين أمام الملك الذي عينهم . أما الجهد في التنسيق والتوحيد بين مختلف أجهزة الدولة ونظمها ومؤسساتها فيمكن تلمسه في آثار تلك المرحلة في جميع مظاهر الحضارة : في الدين والتشريع والاقتصاد . ففي الجانب الديني عمد حكّام أور إلى جعل المعبد الرئيس في أور معبداً وطنياً عاماً . ووحدت القوانين في تشريع واحد هُو تشريع أورنمو ، أما في الاقتصاد فقد أوجدت الدولة مؤسسات جديدة عامة لم تكن معروفة من قبل ومنها (مخزن) للدولة مستقل عن خزانة الملك وخزائن المعبد في موقع (دريهم) القريب من أور لخزن المواد الأولية . وكانت المدن الأخرى ملزمة بتمويل هذا المخزن وإغنائه بالمواد والأموال . وإلى جانب ذلك شجعت الدولة الملكية الخاصة .

إلّا أن جهود ملوك أور لم تؤت ثمارها بعد قرن من الحكم الراسخ المتصل ، ولكنها مهدت السبيل إلى تحقيق انجازات أكبر في العصر البابلي .

٦ ـــ بلاد الرافدين بعد سقوط أور الثالثة : الوضع السياسي والاجتماعي

إن ما يمكن قوله لوصف ما حدث في بلاد الرافدين بعد سقوط أسرة أور الثالثة ، هو أن البلاد عادت إلى الانقسام والتبعثر وتعدد مراكز السلطة والتنافس على النفوذ . فقد ضاعت المقاطعات الشمالية والشرقية وحاول بعض الملوك (في أشنونة ، ودير) إنقاذ الموقف المتدهور واغتنام الفرصة المناسبة لوراثة تركة عهد أور الزاهر المنصرم ، ولكن لم يظهر فيهما من كان قادراً على النهوض بعبء المرحلة الصعبة . فانقادت الآمال إلى إيشبي إرّا الذي كان موظفاً كبيراً في ماري ثم أعلن نفسه حاكماً في إيسّن (٢٠١٧ ــ ١٩٨٥) ، وعرف كيف يقود المناورات السياسية في تلك الآونة المضطربة ، وجعل التكهنات تحوم حول حقيقة نواياه . ثم أعلن نفسه ملكاً على البلاد بعد سقوط إبي سين نهائياً[٤] . فظهر عندئذ بمظهر البديل المنقذ واكتسب بسرعة تأييد نيبور وكهنة معابدها الكبرى . ونحت أور نحو نيبور وقدّمت للعاهل الجديد التأييد المعنوي والمادي وأموالاً وفيرة وما إن استتب الحكم في الجنوب حتى التفت إيشبي إرّا إلى مكافحة الجماعات المسلّحة وإلى إعادة فتح طرق المواصلات والقوافل بين مختلف المناطق . وقد أضحت تفصيلات الأحداث التي مرت في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ بلاد الرافدين معروفة بصورة موثوقة ومثيرة للدهشة بعد نشر الوثائق الهامة المكتشفة في تنقيبات أوروك ونيبور . (بخاصة دراسات إدزارد وفالكنشتاين)[٥] . ويمكن بها أن تبدو تلك الأحداث التي هزّت في حينها بلاد الرافدين وكأنها تغيير في السلطة ضمن الأسرة الحاكمة لا تغيير لنظام الحكم ، الذي كان من أول مظاهره انتقال مركز الثقل من أور إلى إيسن . والمهم هو أن إيسن استطاعت أن تمد في عمر الحكم السومري خمسين سنة أخرى .

ويبدو أن أيام حكم إيدين ــ دجن ، وهو الملك الثالث في الأسرة الجديدة (١٩٧٤ ــ ١٩٥٤) كان هادئاً فقد انصرف إلى تشييد المعابد والمؤسسات الدينية واهتم بالآداب ودعا إلى الإشادة بعودة الأمن إلى ربوع البلاد . ومع ذلك فإن الضعف كان مختفياً وراء الستار الظاهري لاستمرار السياسة السابقة ودوام مؤسسات الأسرة المنهارة ، ولم يكن بالإمكان تجاهله فقد بدأت علاماته تظهر منذ أيام إشمي ــ دجن (١٩٥٣ ــ ١٩٣٥) .

---

(٤) هورست كلنجل ، حمورابي ملك بابل وعصره ص٣٢ (بالألمانية) .

(٥) D.O. Edzard, Die Zweite Zwischen zeit Babyloniens, Wiesbaden (1957).
A. Falkenstein, Su der Inschriftfunden der Grabung in Uruk-Warka 196-1961, Baghdader Mitt. 2, 1963, 1-82.

وتشير بعض الاحتمالات إلى أن إيسن لم تتمكن من مد رقابتها الفعلية على بلاد الرافدين الجنوبية كلها . ويبدو أن لكَش ولارسا كانتا قد خرجتا من يديها ، وقد نجم عن هذا وضع خطر هدد مركز إيسن ، لأن ازدياد أهمية لارسا أدى إلى انقطاع طريق التجارة البحرية إلى الخليج .

وقد عمدت الدولة إلى اتباع سياسة مرنة في علاقاتها مع المدن الأخرى فخففت الإدارة المركزية هيمنتها عن بعض هذه المدن ، وهو أمر له دلالته ويكشف عن تطور عميق في كيان الدولة الرافدية . ومن جهة أخرى فقد قرر إشمي دجن منح بعض الامتيازات المالية لمدينة نيبور ذات الأهمية الدينية والتاريخية وتخفيف بعض الأعباء الضريبية عن بعض الفئات من الطبقة الدنيا (أردو) ، وهي الفئات التي يطلق عليها في السومرية Zikaru = ERUM في الأكدية[٦] وتعني مجموعات من السكان لم يتحدد وضعهم الاجتماعي القانوني ، ولكنه تدنى إلى ما يقرب العبودية . وهم الأشخاص الذين يجمعون من قبل المعبد أو القصر ويقسمون إلى مجموعات للقيام بأعمال مختلفة في الزراعة والنقل والبناء والخدمة العسكرية ، ويشرف عليهم عادة موظف كبير شاجن أو إن ـــ سي . وليس لهم عادةً الحق في تغيير أماكن إقامتهم وعلى أكتافهم قامت المشروعات الكبرى في سومر . وربما كان بين أفراد هذه الفئات الشغّيلة من أبناء الشعب أناس من الأحرار (أويلو) هبط مستواهم المادي إلى درجة من الفقر هددت وضعهم الاجتماعي القانوني وأخضعتهم لشرائط العمل اليومي المتاحة التي أخذت تفرض في تلك الفترة وضع الانسان الطبقي في مجتمع بلاد الرافدين مع وجود تمايز حقوقي بالنسبة لأفراد تلك الطبقة . وهو الوضع الذي انعكس على التشريع في بلاد الرافدين فيما بعد حتى في قانون حمورابي .

ولكي نتفهم بشكل أدق وضع تلك الفئات الاجتماعية ، قد يكون من المجدي تلخيص تركيب المجتمع السومري كما كان عليه بعد عصر أور الثالثة كما يلي : كان المجتمع منقسماً إلى طبقتين كبيرتين ، **الأحرار** ومنهم أقلية ارستقراطية عليا من كبار الموظفين والتجار **والعبيد** ، ولكن بدأت تنشأ بعض الفروق ضمن الطبقة الواحدة في أواخر الألف الثالث ق . م . نظراً لتطور الأوضاع الاقتصادية . والنصوص القانونية السومرية تذكر أناساً يدعون (بالسومرية) **ماشدا** وهم الذين يرد ذكرهم بالأكدية موشكينو (م) . وقد تحدد وضع هؤلاء في قانون لبيت عشتار ملك إيسن (١٩٣٤ ـــ ١٩٢٤) ثم في قانون حمورابي . ويتمتع الناس من هذه الطبقة بحقوق قانونية أدنى مما يتمتع به الموسرون من أبناء الطبقة العليا (الأحرار) . وقد ظهرت الكلمة الدالة على الطبقة

---

(٦) انظر ر . لابات رقم ٥٠ معنى الاصطلاح في المسمارية .

R. Labat, Manuel d'Epigraphie Akkadienne, 50.

(الوسطى) الجديدة في نصوص شروباك الإدارية ثم عمت في عصر أور الثالثة (عصر الاحياء السومري) .

أما **العبودية** فقد كان مصدرها الأحكام القضائية بإسقاط حرية الفرد . والضائقة المادية التي قد تدفع بعض الناس لبيع أنفسهم أو بيع أولادهم ، وكان ذلك مألوفاً كحلٍّ يلجأ إليه لفك عسر أسرة فقيرة على حساب ترابطها العضوي في بيت واحد . وعلى الرغم من قسوة شرط العبودية من حيث المبدأ فإن شرائط حياة العبيد في سومر القديمة كانت أفضل بكثير من شرائط العبودية في العالم الإغريقي الروماني . فالاصطلاحان وردوم (Wardu(m)) وأُمتوم = أَمَـة (Amtu(m)) يدلان في القانـون السومري ـــ الأكدي على من يكون عليه القيام بأعمال الخدمة في البيت أو في الحقل . إلّا أن الحقوق الشخصية للفرد من هذه الطبقة كانت محدَّدة في النصوص القانونية فيمكنه الزواج من شخص حر ، ويحق له التملك والترافع أمام القضاء أما مصيره فهو مرهون بمزاج سيّده وطريقة تصرفه .

أما العبيد الذين كانوا يرسفون فعلاً في العبودية فهم أسرى الحرب والأشخاص الذين لم يكن لهم وضع قانوني واضح . وقد أرغمت الظروف التي كانت تعيش فيها الفئات الاجتماعية المضطهدة بعض الملوك المصلحين على إعادة النظر في الأنظمة الادارية والقوانين وأهم هؤلاء لبيت عشتار . إلّا أن المسألة الاجتماعية بقيت قائمة وتشير النصوص (من نيبور مثلاً) إلى استفحال مشكلة الديون وإلى الضعف الذي أخذت تتردى فيه إيسن تجاه الأوضاع الداخلية وتهديد القوى الجديدة التي أخذت تتغلغل في بلاد الرافدين وبخاصة التغلغل الأموري وتشكل أسرات حاكمة جديدة وبخاصة في لارسا وأشور وبابل . مما كان يؤذن ببدء عصر جديد .

الفصـــل الثـامـن

الأمـوريـون
الـدولـة البابليـة الأولـى
وعصـر حمـورابـي

١ ـــ بـلاد الـرافـديـن بيـن الانقسـام والوحـدة

بدأت تتضح منذ العصر الأكدي بعض الخصائص الثابتة التي لازمت بلاد الرافدين في تاريخها القديم من خلال الأحداث التي رافقت الصراع السياسي على السلطة ونتائجه. وقد لا تكون هناك أية طريقة للتعرف على تلك التطورات التي مرت بتاريخ المنطقة سوى البحث في ما جرى من ثورات وصراع حربي ومن تداول الأسرات والأفراد الأقوياء على مراكز الحكم وتناوب النظام والفوضى في البلاد والوحدة والانقسام.

فبعد الاضطرابات التي رافقت الغزو الكوتي استطاعت أور أن تحقق نوعاً من الاستقرار لقرن من الزمان في ظل أسرة أور الثالثة. لكن التوازن ما لبث أن اختل وعاد التنافس من جديد بين المدن، وبخاصة بين إيسن ولارسا، في الوقت الذي كانت فيه بابل تصعد لاحتلال الدور الأول على يد الأسرة البابلية الأولى التي بلغت ذروة مجدها في عصر حمورابي (١٧٩٢ ـــ ١٧٥٠).

وعلى الرغم من وجود عوامـل متعـددة هددت أمـن مدن بلاد الرافديـن من الشرق (العيلاميون) ومن الشمال (الحثيون). فإن ضغط البدو من داخل البلاد وبخاصة من بادية الشام باتجاه الفرات كان مستمراً. وقد تسربت هذه القبائل البدوية بأعداد متفاوتة في الكثافة على المناطق

الممتدة ما بين أمورو (سورية) والخليج (البحر الأدنى) . وكان العبء الملقى على عاتق حكومة إيسن بالغ الدقة ، كما كان الأمر أيام الحكومات السابقة في بلاد الرافدين .. فما أن كانت تغفل عيون أهل الحضر (المدن) لحظة عن مراقبة تحركات هؤلاء البدو ، وما أن يدوم أي ظرف مساعد على انتشار الفوضى والاضطراب حتى كانوا يتحركون للغزو .. وهكذا تسربوا إلى مختلف المناطق(١) . وهكذا استطاعت أسرات أمورية أن تستقر في لارسا وبابل وأشور وأماكن عديدة أخرى .

وقد أخذت مملكة إيسن تتصدع بعد انحلال سلطتها عن بعض المدن مثل أوروك ولم يبق لها من نفوذ في المناطق التي تبعد عن محيط المدينة بعد أواسط القرن التاسع عشر .

وهناك مؤشرات تدل على قيام منازعات على الملكية فقطعة الأرض مثلاً يمكن أن تتبع في آن واحد القصر أو المعبد أو مالكاً آخر . وقد تكررت في هذه الفترة عمليات نقل الملكية من المعابد إلى الأفراد . ولم يقتصر هذا الأمر على أور بل شمل أيضاً منطقة ديالي . وبدأ ملك إشنونة يفقد سيطرته على بعض المدن التي كانت تابعة له والتي أخذت تتحول إلى إمارات مستقلة . وفي إطار هذا التغيير الذي عم بلاد الرافدين برزت في مطلع الألف الثاني ق.م مراكز القوى الجديدة وهي لارسا ، وأشور ، وبابل .

لارسا

صعدت لارسا إلى مكانة رفيعة في تاريخ بلاد الرافدين منذ مطلع الألف الثاني وبخاصة عندما استطاع ملكها جُنجُونوم (نحو ١٩٣٠) أن يمد نفوذه إلى منطقتي ديالي وعيلام وعندما احتل أور فرض نفسه ملكاً على سومر وأكد .

وقد تمكن ملك لارسا بالسيطرة على أور من التحكم بالطريق التجارية التقليدية إلى الخليج (ديلمون) . وبدأت ترد على البلاد البضائع المرغوبة من الحجارة الثمينة والمعادن والعاج والنحاس . وقد بلغت قيمة إحدى الصفقات من النحاس ١٣٠٠٠ مينا . وكان من أول ملامح هذا التغيير الاقتصادي أن التجارة انتقلت إلى أيدي المموّلين الأثرياء بعد أن كانت تدار من قبل الدولة أيام أور الثالثة . وصار من الممكن معرفة الأسلوب الذي كانت تدار به الأعمال التجارية من الوثائق العديدة التي تم الكشف عنها . فالتجار الكبار كانوا يفرضون الأرباح المطلوبة على عملائهم المنتشرين في مدن ومناطق متعددة دون أن يتحملوا معهم الخسائر . وكانت الضرائب عالية جداً ويصل مقدار

---

(١) كوبر : البدو في عصر ملوك ماري Kupper (J.R), les Nonades en Mésopstamic an Temps des rois de Mari, paris (1957).

بعضها إلى ١٨ وزنة من الفضة أي ما يقرب من نصف طن. وهذا يدل على مقادير الثروات التي تكونت لدى الطبقة الغنية القوية التي أخذت تسترد نفوذها في مدن كثيرة مثل لارسا ونيبور وكيش وسيبار وبابل. ومن أهم الأسرات التي قامت بدور كبير في الحياة الاقتصادية في ذلك العصر أسرة إيدين لاجامال[٢] في دلبات القريبة من بابل. وكانت تملك الأراضي الواسعة والتجارة الرائجة وتتصرف بالمحاصيل والأموال، مما جعل لها نفوذاً قوياً إلى جانب الدولة.

على أن سلالة لارسا وإن استمرت ما يزيد على قرنين فإنها أخذت تضعف أيضاً منذ أواسط القرن التاسع عشر، بعد أن كان ملك لارسا نور أدد قد نجح في الوقوف في وجه ملك إيسن إنليل باني.

وفي هذه الفترة ظهرت أشور بزعامة شمشي أدد في شمال البلاد، ومدينة بابل في وسطها، والتي أخذت تنمو وتتطور من محطة للقوافل تابعة لمعبد نيبور إلى إمارة مستقلة بزعامة سومو أبوم (نحو ١٨٩٤).

أشـور: شمشـي أدد الأول

يمثل شمشي أدد الأول (١٨١٤ ــ ١٧٨٢) مرحلة حاسمة في تاريخ بلاد الرافدين فهو مؤسس الدولة الأشورية القديمة. فلم تكن أشور حتى ذلك الوقت سوى منطقة بعيدة تقع على هامش المنطقة المركزية في تاريخ بلاد الرافدين خلال الألف الثالث ق. م وهي سومر وأكّد. ولم يكن لأشور دور سياسي كبير في البلاد ولكن كان لها دور اقتصادي هام ولها فعالية تجارية وصلت إلى سورية والأناضول. وكانت لها مع ذلك علاقات وثيقة ومتصلة مع المناطق الجنوبية فقد كانت تعيش على كل حال في وسط اجتماعي وثقافي (في اللغة والدين) مشابه لما مرّ ببلاد الرافدين. ومما يلفت النظر أن المعبود السومري إنليل لم يكن له إلّا دور صغير في المعبد الأشوري. وهناك اختلاف في فن العمارة عما في الجنوب. ففي أشور تتوفر الحجارة، بينما كان الطين هو المادة الأساسية للبناء والعمارة في أكاد وسومر. وقد تطورت الكتابة المسمارية في الشمال حيث تشكل الخط الأشوري بينما أخذت كتابة بابل منحى آخر إلّا أن الاختلاف بين النموذجين طفيف وشكلي وتتمثل الوحدة الثقافية أساساً بالوحدة اللغوية بعد أن أضحت اللغة الأكدية اللغة المشتركة لكل بلاد الرافدين على أنقاض اللغة السومرية التي أخذت تتراجع بعد أن انتهى دور سومر السياسي نهائياً في هذا العصر.

---

(٢) كلنجل، حمورابي، ص٥٩

H. Klengel, Hammurapi.. p.59.

ويمكن القول إن حكم شمشي أدد في أشور يمثل منعطفاً تاريخياً ومثالاً واضحاً على النجاح الذي حققته العناصر الأمورية في شمال بلاد الرافدين كما كان دور حمورابي في جنوبها .

ينتمي شمشي أدد إلى عشيرة أمورية من تلك القبائل والعشائر الأمورية التي كانت تحركت من أمورو (غرب الفرات) منذ أواخر الألف الثالث ق . م وبدايات الألف الثاني نحو بلاد الرافدين كلها ، طلباً للمرعى والاستيطان .

وفي ظروف المنازعات المستمرة التي تحدثنا عنها بين المدن البارزة ومتضاربة المصالح والأهواء لم يكن لهذه المدن القوة الكافية لإيقاف التسرب المستمر للبدو الأموريين . وقد استطاع هؤلاء أن ينتشروا بأعداد كبيرة وعلى نطاق واسع في بداية الألف الثاني ق . م واحتلت أسرات قوية عروش مدن هامة : ماري على الفرات وأشنونة على سفح زاغروس بينما استقرت قبيلة أمورية في مطلع القرن التاسع عشر في ضاحية صغيرة على ضفاف الفرات وهي بابل وقد كانت آنئذ قرية صغيرة لا تزيد على كونها محطة قوافل تجارية .

وفي هذا الانتشار الأموري الواسع كان أحد شيوخ العشائر وهو إيلا ـــ كاكابو يحكم مملكة صغيرة هي ترقة (تل العشارة) الواقعة شمال ماري . وعلى إثر صدام محتمل مع ماري من الممكن أن يكون إيلا ـــ كاكابو قد اضطر في ظروف قاهرة إلى الخروج مع أسرته متجهاً شمالاً عبر إيمار إلى منطقة الجزيرة وحوض البليخ والخابور . وتلقي نتائج التنقيبات والنصوص المسمارية التي عثر عليها في تل ليلان في حوض الخابور في شمال شرقي الجزيرة ضوءاً على تحركات شمشي أدد . فقد اتضح الآن في ضوء هذه النصوص المكتشفة حديثاً (١٩٨٧) أن تل ليلان[٣] هو موقع (شباط إنليل) المقر الأول للملك الأشوري شمشي أدد قبل أن يستقر حكمه في مدينة أشور على أنقاض حكم الأسرة الأكدية القديمة فيها .

وما تزال أحداث هذه الفترة محفوفة بالغموض ، فبحسب قائمة الأسرات الحاكمة في أشور من الممكن أن يكون شمشي أدد قد اتجه إلى بابل وأقام فيها فترة من الوقت ، وقد تكون مدينة إيكالاتوم مرحلة أخرى في طريقة قبل الاستيلاء على أشور . وقد أثرت إقامة شمشي أدد في بابل تأثيراً قوياً على توجهاته لإقامة علاقات حميمة بين أشور وبابل . ومن مؤشرات هذا التأثر الثقافي بالجنوب انتشار عبادة إنليل في أيامه .

---

(٣) يدير بعثة التنقيب دكتور هارفي فيس (من جامعة يال) . عثر على ١٢٠٠ وثيقة مكتوبة بالمسمارية (الأكدية) حتى الآن ومنها وثائق دبلوماسية هامة لما يتم نشر محتواها بعد .

عمل الملك بعد ذلك على مد نفوذه إلى منطقة الخابور ثم اتجه إلى الفرات الأوسط حيث كانت ماري هي المدينة الأهم وملكها آنذاك هو يخدُن ليم الذي لقي مصرعه في ظروف غامضة واضطر ابنه زمري ليم إلى الفرار واللجوء إلى حلب حيث حموه يريم ليم . وتفيدنا النصوص المنشورة بأن منطقة الجزيرة والفرات حتى مصب البليخ كانت قد أصبحت منطقة نفوذ أشوري فعلي ويفهم من نصوص أخرى أن شمشي أدد قد استطاع كالفاتحين الأكديين قبله أن يصل إلى لبنان والبحر المتوسط(٤) .

ولكن التوسع الأشوري أوقف غرباً عند حلب وجنوباً عند أشنونة . والمهم أن أشور غدت أهم قوة في شمال بلاد الرافدين والجزيرة لكنها لم تكن قادرة على بسط سلطة فعلية على مناطق الجبال حيث كان الجبليون في زاغروس يتمتعون بقوة كبيرة . وبدا شمشي أدد كأنه خليفة ملوك أكّد .

وقد أوكل الملك الأشوري إلى أولاده بعض المهام فجعل إشمي دجن المفضَّل عند أبيه حاكماً على إيكالاتوم بمواجهة ملك أشنونة ولمراقبة تحركات قبائل زاغروس بينما عيَّن ابنه الآخر يسمخ أدّد نائباً للملك في ماري ومهمته مراقبة حركة البدو على الفرات وتحركات ملك حلب الذي كان يتزعم الحلف الأموري في سورية الشمالية . وقد قسمت الدولة إلى وحدات إدارية (مقاطعات وولايات) ، على رأس كل منها حاكم يساعده عدد من الموظفين ، وتولى الملك حكم العاصمة والإدارة المركزية . ولم يستقر في عاصمته وكان كثير التنقل بين الصغيرة والكبيرة . وتدل الوثائق الباقية على أنه كان ملكاً قوياً وإدارياً بنجاح باهر من قائد جماعات مسلَّحة محاربة إلى عاهل مسؤول ومؤسس لأسرة حاكمة ودولة . لكنه اهتم كثيراً بالمحافظة على مستوى استعداد قواته التي أقام لها ثكنات عسكرية دائمة وجنّد البدو من الخانيين في جيشه الذي ربما بلغ عدد أفراده ٦٠٫٠٠٠ جندي . وكان تنظيم الدولة الأشورية ومؤسساتها شبيهاً بما كان معروفاً في ذلك العصر في الدول المعاصرة والمجاورة .

نجح شمشي أدد خلال حياته في المحافظة على قوة الدولة حتى اضطرت أشنونة نفسها إلى الاعتراف بنفوذه . ولكن بعد موته خرقت أشنونة تعهداتها وهاجمت رابيقوم على الفرات دون أن يستطيع إشمي دجن التدخل . واستطاع ملك ماري زمري ليم العودة إلى عرش آبائه بدعم من ملك حلب . وهكذا تقلصت أشور إلى حدودها الأولى وعاد المشهد السياسي إلى الانقسام من جديد :

---

(٤) النصوص الأشورية القديمة : E. Ebeling, B. Meissner,.. Die Inschriften des altassyrischen Könige 1926, Leipzig, p.22, N° 1.

حلب وماري وأشنونة كل منها يشكل دولة هامة في المنطقة . لكن التطورات التي [illegible] بعدئذ أفسحت المجال لصعود بابل بعد أن تولى الحكم فيها حمورابي .

٢ ــ حمورابي ملك بابل وإعادة توحيد بلاد الرافدين

يعود الفضل إلى الأسرة الأمورية في بدء عصر جديد من إعمار بابل وفي انتشال ديانة المجتمع البابلي من الغموض الذي كان يلفّها . وكان على مدينة بابل أن تنتظر حكم الملك الثالث من ملوك هذه الأسرة سابيوم (١٨٤٤ ــ ١٨٣١) حتى يشاد فيها معبد للآله المحلي في منطقة بابل مردوخ .

وعندما صعد سين مبلّط والد حمورابي العرش كانت قد اختفت الأصول المتواضعة للمدينة وأضحت بابل مركز حكم قوي ولها السيطرة على مدن سيبار وكيش وبورسيبا وعلى أراض واسعة حولها . وصارت مدينة محصنة مزدهرة وبلغت حداً من القوة جعلت ملكها يعتقد بأن الأوان قد آن للتدخل في الصراع الدائر على النفوذ في المنطقة ، فبدأ بمهاجمة لارسا التي كانت آنذاك أكثر مدن بلاد الرافدين أهمية . لكن المحاولة آلت إلى الإخفاق وكان من الممكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة للدولة الناشئة ، إلّا أن سين مبلّط كان دبلوماسياً حصيفاً . وقد استطاع ببراعة أن يجنب مملكته النتائج التي تترتب عادة على كل إخفاق في ميدان القتال . وكان من نصيب ابنه الذي خلفه العمل على تحقيق مطامح أبيه .

بعد موت سين مبلّط ملك بابل كانت أشور في شمالي بلاد الرافدين على وشك تحقيق وحدة البلاد كلها بقيادة شمشي أدد الأول . وعلى كل حال كان ملك أشور آنذاك يستطيع التصرف من موقع قوي بعد أن سيطر على أشور ونينوى وسيطر على ماري وهدد طريق الفرات إلى بابل .

وكان الجيش الأشوري قد اشتد بأسه بما كان يملكه من أدوات الحرب والحصار كالأبراج العالية والكباش لضرب الأبواب وبمن كان يرفده من المهندسين الذين كانوا يبنون الحصون المتحركة والمخازن لحفظ الأسلحة ويخرقون الأنفاق إلى داخل المدن المحاصرة . وبخاصة بممارسة الحرب . وجسّد في صناعته الحربية الأداة الرائعة التي آلت إليها الكتائب الأشورية في الألف الأول ق . م . وكان على قيادة هذا الجيش ، وهو أمر في غاية الأهمية الملك شمشي أدد الذي كان يتمتع بقدرة رائعة على التنظيم ويملك حساً سياسياً مرهفاً ليس أقل مما كان يملكه سين مبلّط أو ابنه حمورابي الذي ورث عن أبيه عرش بابل وتولاه بجدارة هي من صفاته الخاصة بالإضافة إلى ما كسبه من أبيه من الحذر والصلابة والصبر . وقد التزم حمورابي بادئ الأمر الهدوء تجاه أشور محافظة على معاهدة التحالف التي

كان هو نفسه قد طلب عقدها من قبل، ولكن كل شيء تبدل عند موت شمشي أدد الأول. فانهار التوازن القائم في بلاد الرافدين ودخلت البلاد في مرحلة جديدة من الصراع.

ففي ماري رجع زمري ليم (١٨٨٢ ــ ١٧٥٩) إلى عرشه، وأما ملك أشور إشمي دجن (١٧٨١ ــ ١٧٤٢) فسم يكن قادراً على مواجهة الهجوم الذي اندفع نحو حدود بلاده من شعوب الشمال والشرق وقبائلهما. وما أن أرغم على اتخاذ موقف دفاعي حتى فقد المبرِّر لأي ادعاء بالهيمنة. وهكذا تعدد المتنافسون عى زعامة بلاد الرافدين وأضحوا أربعة: ماري غرباً، أشنونة شرقاً، لارسا جنوباً وبابل في الوسط. وعلى الرغم من موقع بابل الضعيف بشكل واضح فإنها هي التي فازت بقصب السبق آخر الشوط. إذ استطاع حمورابي أن يقهر خصومه الواحد بعد الآخر بعناده الذي يلا يروض وبالحذر الذي يجمع إليه شيئاً من الحيلة ولا يخلو من الخبث، وبما يتصف به من الصبر والقدرة على توقيت قراراته وعدم استباق الأشياء، وذلك بعد أن زرع الخلاف فيما بينهم مستعيناً بالواحد منهم لقهر الآخر، فحليفهُ اليوم قد يضحي ضحية من ضحاياه غداً.

وهكذا خرجت في بلاد الرافدين دولة كبرى جديدة إلى الوجود بعد خمسة وعشرين عاماً من العمل الدؤوب. وصار بإمكان بابل أن تمارس سيادة سياسية لا منازع لها فيها إلى جانب ما أحرزته من تفوق ثقافي ومكانة دينية احتفظت بها طوال ألف عام كانت لها فيها القيادة البارعة والدور السياسي الأول وأضحت بعمرانها الباهر لؤلؤة الشرق العربي القديم وأعظم مدنه الآبدة.

ولقد أطلق ملوك بابل على كل سنة من سني حكمهم اسماً يحمل ذكر أهم الأحداث التي وقعت في تلك السنة. وبذلك يمكن تتبع ما حصل من تقدم سياسي واجتماعي وثقافي.

وقد عرفت بابل في أيام حمورابي أول عصر ذهبي من عصور تاريخها الطويل. فقد امتدت مملكته حتى الخابور إلى حوض البليخ وشملت حوض نهر ديالي ووادي دجلة الأعلى. وحل اسم بلاد بابل محل (سومر وأكّد). وانتهى دور سومر السياسي نهائياً ولكنها بقيت شعلة تضيء موكب الحضارة وطريقة في التفكير وأسلوباً في الحياة اليومية والتقاليد. ومنذ أيام شروكين ونرام سين وشولغي لم تعرف بلاد الرافدين شخصية بمثل أهمية حمورابي الذي جمع إلى الحيلة الدبلوماسية القوة المسلحة لإخضاع خصومه ولفرض سياسته عليهم. وهكذا نجح في فرض وحدة أرض الرافدين عليهم الواحد بعد الآخر: لارسا، أشنونة، ماري وأخيراً أشور.

لم يكتف حمورابي بالوحدة السياسية إذ أتبعها بالوحدة التشريعية والقانونية فقد أصدر **مدونة** جامعة للقوانين كان يهدف بها إلى توحيد القضاء، ولم تكن هذه المدوّنة بالحقيقة قانوناً جديداً

ولكن مجموعة من القرارات القضائية التي يمكن أن تعدّ مرجعاً يبدو أنها استوحيت من النصوص القديمة التي كان أصدرها أورنمو ملك أور (٢١١٢ ــ ٢٠٩٥)، ولبيت عشتار ملك إيسن (١٩٣٤ ــ ١٩٢٤). وكان التشريع يصدر عادة عن الملوك لا من هيئات تشريعية، أو من مشرّعين كما في بلاد اليونان. فالملك حمورابي يعدد في مقدمة القانون، كل صنائعه في مدن مملكته وما خص آلهتها من إكرام.. ويبدو في نص مقدمة القانون نفس ملحمي وأسلوب خطابي غنائي لخدمة الأهداف الدعائية للحكم البابلي.

وقد عثر على نص قانون حمورابي، منقوشاً على مسلّة من حجر الديوريت الأسود وفي أعلاها نحت يمثل الملك البابلي يتلقى الشريعة والسلطة الملكية من الإلّه الشمس (شمش)، أثناء عمليات التنقيب التي كانت تقوم بها بعثة فرنسية عام ١٩٠٢ في سوسة في عيلام. وكان الملك العيلامي شوتروك ناخونته قد استولى على المسلة ونقلها إلى عاصمته بعد دخوله بابل عام ١٢٠٠ ~. ويبدو أنه كان للقانون أكثر من نسخة. وكانت تنقل فقرات منه على ألواح الطين بصيغ مختلفة.

وقد نقل هذا الأثر الرائع إلى متحف اللوفر في باريس. وهو يعد من أهم آثار الأدب البابلي القديم ومن أهم النصوص المسمارية وقد حظي من الباحثين بأكبر الاهتمام ونقل إلى اللغة الفرنسية لأول مرة عام ١٩٠٢ (الأب شيل) ثم ترجم إلى اللغات الأخرى.

٣ ــ المجتمع في قانون حمورابي[٥]

يتكون المجتمع في قانون حمورابي من ثلاث فئات: الناس الأحرار (أويلو (م)) و(الموشكينو (م)) والعبيد (ورد و(م)). ومن الطبقة العليا أفراد من الأسرة الحاكمة وأرباب المهن المستقلة كالأطباء والبنائين والفنيين وكبار الموظفين ورجال الجيش. وكانت تدفع لهم لقاء أعمالهم أجور عينية أو أنهم يتلقون حق الانتفاع بأراضي التاج.

أما الموشكينوم فهم أقرب إلى الناس الأحرار منهم إلى العبيد، ولم يتضح وضعهم تماماً بصورة دقيقة في المجتمع البابلي. وكانوا يخضعون لأوضاع قانونية فرضت عليهم وأدّوا أعمالاً زراعية وخدمات كان يسخرون لأدائها. وهم بصورة عامة فقراء ومستغلون. ولكن كان لهم دور كبير في الحياة اليومية والعامة.

وكان العبيد في أدنى درجة من السلم الاجتماعي ولكن وضعهم القانوني لم يكن ليدعو إلى

(٥) انظر: قانون حمورابي تحقيق فينه ١٩٧٣ (بالفرنسية)؛ أيضاً، هـ. كلنجل: حمورابي وعصره ١٩٧٨ (بالألمانية).

اليأس. كان يمكن للعبد أن يعمل وأن يقتصر وأن يوفر لنفسه شيئاً من المال من حصيلة جهده الذي لم يكن دائماً دون أجر أو ثمن. وكان بوسع العبد قانونياً أن يتزوج حرّة وأن يكون أولادهما أحراراً. ولم يكن الاستعباد لسداد الدين موجوداً في بابل إلّا لفترة محددّة تنتهي بانتهائها فترة العبودية مهما كان عن ذلك الأجل المحدّد وضع المدين تجاه الدائن. وقد يمكن أن تكون العبودية عقوبة تفرض على شخص حر. أما أسرى الحرب فإنهم يصبحون عبيداً. وليس لهم من أمل للنجاة سوى الهرب أو أن يشتري العبد الأسير تاجر عابر سبيل يقوم بعدئذ بإعادة ذلك الانسان العاثر الحظ إلى وطنه أو بلده.

وقد اهتم قانون حمورابي بالأسرة وجعلها أساس المجتمع. والفكرة الأساسية هي أن الزواج لا يكون شرعياً إلّا بعقد مسجّل. ولا تحمل صفة الزوجة في الأسرة سوى امرأة واحدة. وهناك بعض الحالات التي يعترف فيها للرجل بالزواج من امرأة أخرى. وكانت الرابطة الأسرية قوية ويتدخل أهل الفتى الخاطب وأهل الفتاة المخطوبة في الإعداد المادي والاجتماعي والقانوني لترتيبات الخطوبة والزواج. ويقدم أهل الفتى هدية الزواج (ترخاتوم) لخطيبة ابنه ويقدم أهل الفتاة هدية مقابلة (بيبلوم) وتبدو المصاهرات في قانون حمورابي كأنها تحالف اقتصادي بين أسرتين.

وقد عُني القانون بوضع قواعد معترف بها للعلاقات بين الزوجين وبين الأولاد وأبيهم وما يترتب على ذلك من نتائج مادية.

ونظم القانون قضايا التجنيد والجيش وحدد الوضع القانوني للجنود المحترفين الذين كانوا رجالاً أحراراً. ويتلقى الجنود العاديون والرماة القناصة وجنود الكتائب الخاصة من الدولة أي من الملك، قطعة أرض وبيتاً، وتكون لهم عائدات هذه الاقطاعة ما داموا يقومون بخدماتهم. وليس من حقهم أن يقدّموا بديلاً عنهم للجيش، وإذا ما وقع الواحد منهم في الأسر يمكن للابن البكر أن يتمم الخدمة مكان أبيه وأن يتمتع بانتاج الاقطاعة الممنوحة. وإذا لم يكن هذا الابن قد بلغ السن المناسبة للخدمة تحتفظ الأم بجزء من الأرض حتى يستطيع الابن أن يحمل السلاح وأما الحقول والأراضي التي يموت عنها مستثمروها أو يتركونها فيعاد توزيعها من جديد. ومن نافلة القول أن نذكر ما يستلزمه مثل هذا النظام من مقدرة في جهاز التسجيل العقاري والإداري. وفي تتبع الوثائق المتوافرة يمكن أن نرى المسائل المتعلقة بحيازة الأرض تغطي معظم المراسلات المتبادلة بين حمورابي وحكام الأقاليم الإدارية. وإن الخطر الذي يهدد مثل هذا النظام هو أن المستثمر كان ينتهي إلى تملك العقار على الرغم من التحفظات الشديدة في قانون حمورابي.

٤ ـــ الحياة الاقتصادية

كانت التجارة في بلاد الرافدين تدار بأيدي كهنة المعابد قبل أن تنتقل فعاليتها إلى القصر. وهذه الممارسة امتياز لم يتخل عنه الملك البابلي. لكن النشاط التجاري كان يقوم به التجار (تامكارو). ومنهم أولئك التجار الأشوريون الذين غامروا في اختراق شعاب الأناضول حتى كبادوكية. ولقد نمت الحركة التجارية بعد ذلك واتسعت وانطلقت قوافل التجار براً وبحراً إلى الشرق إلى الغرب وإلى الشمال وإلى الجنوب ذهاباً وإياباً. وازدادت أهمية المواصلات وازداد حجم رؤوس لأموال الموظفة في التجارة إلى الحد الذي تطورت فيه إلى العمل المصرفي. وصار التاجر يرسل مندوبين عنه ليقوموا بإنجاز أعماله ووكلاء مبعوثين يقدّم إليهم أمواله ليشتغلوا بها ويتعاملوا باسمه في كل أنحاء الشرق القديم المعروف بينما كان يدير هو نفسه من مقره شبكة العمل الواسعة ويراقب حركة البضائع وسوق الانتاج والحسابات التي ترد عليه من كل مكان. وهو يدخل في مضاربات على المواد المطلوبة كالشعير والفضة، ويقرض القروض. وفي جو هذه الفعالية الاقتصادية المكثفة في هذا المجتمع النشيط كان الغني يزداد غنىً ويكسب أرباحاً هائلة بينما يرزح الفقير تحت وطأة الديون والخسائر المستمرة. وكان بعض ملوك بلاد الرافدين يدركون النتائج المحتملة لمثل هذا الانقسام الاجتماعي ويعملون على تدارك ما يمكن أن يترتب عليها في الحياة الاجتماعية وفي أوضاع البلاد. وهكذا كان يؤدي الاستياء العام إلى اتخاذ اجراءات واستصدار قرارات منها إعلان إعفاء من الديون يكون في بعض الأحيان شاملاً أنحاء المملكة كلها أو مقصوراً على بعض مناطقها أو مدنها، وما تكرار اللجوء إلى هذه التدابير إلّا الدليل الواضح على قلة جدواها وعلى استمرار التحرك الاجتماعي. وفيما يلي سنتعرف على أهم مظاهر الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين وهو التجارة.

٥ ـــ التجارة في بلاد الرافدين حتى عصر حمورابي(٦)

للتجارة أساساً عدة وجوه وعناصر:

١ ـــ **البضائع** فالسؤال عن بضاعة معينة هو السبب الأساسي في نشوء التجارة. وبما أن بلاد الرافدين من الناحية الطبيعية أرض زراعية فقد كانت منذ بدايات الاستيطان البشري فيها محتاجة لاستيراد بضائع ومواد لا تملكها، وبشكل خاص الأحجار والمعادن والأخشاب.

٢ ـــ **العاملون في التجارة**: ويشمل ذلك التجار وكل من يعمل في خدمتهم.

---

(٦) بحث التجارة في بلاد الرافدين حتى عصر حمورابي للدكتور عيد مرعي.

٣ ـــ **المؤسسات التجارية** .

٤ ـــ **الطرق التجارية** والأماكن والبلدان التي تُمارس معها التجارة .

٥ ـــ **القوانين والأنظمة** التي تخضع لها العمليات التجارية .

كل هذه العناصر متداخل بعضها مع بعض ولا يمكن فصل عنصر عن الآخر . ولكن هذه العناصر تختلف باختلاف البلدان والفترات الزمنية . وإننا سنتحدث عن أهم مراحل تطور التجارة في بلاد الرافدين قبل أن نتحدث عن التجارة في عصر حمورابي .

والدلائل الأولى على التجارة في بلاد الرافدين هي دلائل أثرية فقط . ففي الألف السادس قبل الميلاد استورد انسان شمال بلاد الرافدين حجر الأوبسيديان (السبج : Obsidian) اللازم لصنع آلات يدوية من أماكن أخرى . من المحتمل أن شاتال هيوك Çatal Hüyük الواقعة في الأناضول كانت في السابق مركزاً لتجارة الأوبسيديان . في شمال بلاد الرافدين استورد الانسان في عصر حلف (الألف الخامس قبل الميلاد) هذا الحجر من منطقة بحيرة وان ، وأصدافاً من المحيط الهندي . ويشير استيراد الأصداف من المحيط الهندي إلى أن الخليج العربي كان منذ أقدم العصور طريقاً للتجارة .

أمّا الفرات ، وبدرجة أقل دجلة ، فكانا أيضاً طرقاً تجارية ، حيث توجد صور لسفن على الأختام الأسطوانية المبكرة .

وفي عصر العُبيد (الألف الرابع قبل الميلاد) كان اللازورد يُستورد من منطقة باداخشان في أفغانستان .

وكان جنوب بلاد الرافدين يستورد النحاس منذ وقت مبكر ، حيث يرد ذكره في أقدم الألواح المسمارية من فارة Farà وأُروك Uruk (الوركاء) ، (بداية الألف الثالث قبل الميلاد) .

أقدم ذكر كتابي للتجارة في بلاد الرافدين يرد في أسطورة « إنميركار Enmerkar » وفي أسطورة « إن أراتّا En from Aratta » : « الحاكم في جنوب بلاد الرافدين يحصل على فضة وذهب وعقيق أحمر ولازورد من إيران مقابل حبوب » . في الأسطورة الشعرية السومرية « إنكي Enki وتنظيم الكون » الحديث عن سفينة من ملوخّا Meluhha (بلاد السند) تنقل ذهباً وفضةً ولازورداً إلى نيبور في جنوب بلاد الرافدين .

كل هذا يشير إلى أن الغنى الكبير بالذهب والمعادن الأخرى والأحجار الكريمة في عصر جمدة

نصر وحتى امبراطورية سلالة أور الأولى نشأ عن الاستيراد من الشرق والجنوب الشرقي أي من إيران والمنطقة الواقعة على الخليج العربي .

تجارة بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد

تركزت تجارة بلاد الرافدين في هذا العصر مع البلدان الواقعة إلى الشرق والجنوب والجنوب الشرقي منها . وكانت الأحجار تستورد من الهضبة الايرانية ، واللازورد من منطقة باداخشان في أفغانستان ، والذهب والنحاس والعاج وخشب الأبنوس من ماجان وملوخّا .

١ ــ في العصر السومري القديم

تبين القبور الملكية من أور أن أشياءً كثيرةً قد استوردت من الخارج في عصر سلالة أور الأولى . من هذا ومن الحقيقة القائلة إن أور أيضاً كانت فيما بعد في عصر سلالة أور الثالثة ميناءً بحرياً هاماً ، يمكن الاستنتاج أن أور كانت تقع على مقربة من الخليج العربي ، وكانت مركزاً لتجارة الاستيراد من الجنوب . وإن النصوص ما قبل الصارجونية المكتشفة في مدينة لكش تعطي صورة ملونة عن تجارة هذا العصر ، حيث تذكر استيراد النحاس من ديلمون (البحرين) والقصدير من الشمال والخشب من عيلام وديلمون ، هذه النصوص تذكر أيضاً مواداً مستوردة من سورية مثل مستحضرات وزيوت الأشجار الابرية .

هذه التجارة كانت تتم في مجتمع تلعب فيه الدولة والمعبد دوراً مسيطراً في الاقتصاد . كانت التجارة في لاجاش في يد حاكم المدينة وزوجه ، وتدار من قبل شخص يُكَلف بذلك ويسمى التاجر الكبير dam-gàr-gal . كان تحت تصرفه تجار يقومون برحلات تجارية بتكليف منه أو من حاكم المدينة .

كانت التجارة في هذه الفترة غالباً تجارة مقايضة : مثلاً منسوجات وحبوب مقابل نحاس من ديلمون إلى جانب ذلك كانت هناك بضائع تُدفع أسعارها بالفضة .

٢ ــ في العصر الأكادي

يفتخر شروكين الملك الأكادي وحفيده نرام سين في كتاباتهما بأنهما جلبا بضائع من بلدان عديدة تمتد من لبنان وحتى ديلمون وماجان ولكن فيما إذا كان ذلك يدخل ضمن نطاق التجارة يبقى موضع تساؤل . من المفيد هنا ذكر العمل الأدبي « شار تامخاري Šar tamhàri » (ملك المعركة) : « التجار الذين كان لديهم صعوبات ومشاكل مع أحد الأمراء في الشمال الغربي دفعوا

شروكين لأن يقوم بحملة عسكرية إلى بوروشخاندا Purušhanda » . هذا يمكن أن يشير إلى العلاقات التجارية التي كانت تربط هؤلاء التجار مع آسية الصغرى . ولكن حتى الآن لا توجد أية براهين أو أدلة تؤكد صدف ما ورد في هذا العمل الأدبي . وربما كُتِبَ هذا العمل الأدبي في العصور التالية .

لكن من الثابت والمؤكد أن مدينة أكاد كانت في هذا الوقت مركزاً تجارياً مهماً ترسو في مينائها سفن من ديلمون وماجان وملوخّا . هذه الأسماء الثلاثة تظهر عادة في وثائق ونصوص بلاد الرافدين بهذا الترتيب .

لقد ثبت نتيجة الأبحاث العلمية والحفريات الأثرية أن ديلمون هي البحرين . وتظهر ديلمون في النصوص المختلفة العائدة إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد . وقد لعبت دوراً مهماً كمحطة تجارية للسفن الذاهبة والقادمة من بلاد الرافدين ، وبخاصة في مجال تجارة النحاس . وكانت مشهورة بتمورها الجيدة في عهد سلالة أور الثالثة . والتجار الذين كانوا يمارسون التجارة مع ديلمون كان يُطلَق عليهم « المسافرون إلى ديلمون » . هذا يدل على تواصل العلاقات مع هذه البلاد .

ماجان هي على الأرجح المنطقة الواقعة على المخرج الشرقي للخليج العربي ، إما على ساحل مكران الشمالي أو في منطقة عُمان .

أما **ملوخّا** فهي في نظر معظم العلماء منطقة وادي السند الحالية ومنطقة غوجرات Gudcherat .

وترد أقدم إشارة إلى ملوخّا عند شروكين الأكادي : « شروكين ملك كيش انتصر في ٣٤ معركة ، دمر أسواراً حتى شاطئ البحر . سفن من ملوخّا ، سفن من ماجان وسفن من ديلمون جعلها ترسو في ميناء أكاد » .

٣ ــ التجارة في عصر سلالة أور الثالثة

يذكر جوديا Gudea حاكم مدينة لاجاش (قبل بداية حكم سلالة أور الثالثة بقليل ، في كتاباته أنه جلب بضائع ومنتجات أجنبية من مناطق مختلفة : ديوريت وأخشاباً من ديلمون وماجان ، عقيقاً أحمر ولازورداً وذهباً ونحاساً من ملوخّا ، ألباستر وأخشاباً وأحجاراً من سورية ، نحاساً من المناطق الجبلية الواقعة شرق دجلة (مثل كيماش Kimaš) . كذلك استوردت بضائع من عيلام عبر طريق برّي .

وكانت أور تملك ميناءً خارجياً على البحر حيث كانت السفن تأتي إليه من ماجان . ومن المواد المستوردة المعادن المختلفة والأخشاب الثمينة والأحجار الكريمة .

ويُذكر بعض النصوص أن إدارة المعبد في أور كانت تعطي بضائع إلى تجار وذلك بغرض الحصول على بضائع أجنبية بدلاً عنها ، كانت تُعطي بشكل خاص المنسوجات الصوفية والجلود وزيت السمسم من أجل شراء نحاس من ماجان ومواد أولية أخرى .

كانت أور تستورد أيضاً منتجات مختلفة من شمال بلاد الرافدين مثل البصل والقار والجبس (الكلس) . ومن الجدير بالذكر أن عدد التجار في هذه الفترة كان كبيراً . ولكن المعابد الكبرى في أور كانت المستفيد الأساسي من هذه التجارة .

تجارة بلاد الرافدين في الألف الثاني قبل الميلاد

حدث في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد تحول في اتجاه تجارة بلاد الرافدين الخارجية .

كانت بلاد الرافدين سابقاً تتاجر بشكل أساسي مع المناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب والجنوب الشرقي منها . أما الآن فقد انتقل مركز ثقل تجارتها الخارجية من تلك المناطق إلى منطقة البحر المتوسط الشرقية وبخاصة سورية .

أما الأسباب التي أدت إلى هذا التحول فكانت تطورات حدثت في تلك المناطق وفي بلاد بابل بالذات في العصر البرونزي المتوسط (٢١٠٠ ــ ١٦٠٠ ق . م) .

وقد شهدت المستوطنات الايرانية التي لعبت في الألف الثالث قبل الميلاد دوراً بارزاً في تجارة اللازورد من أفغانستان إلى بلاد الرافدين انحطاطاً في هذه الفترة ، يبدو بارزاً من خلال المواقع الأثرية المكتشفة .

وحصل في وادي السند أيضاً تدهور وانحطاط بسبب عوامل جيومورفولوجية (تضاريسية) وفيضانات . كذلك فقدت ديلمون في الخليج العربي أهميتها التجارية .

انهارت في بلاد سومر وأكد امبراطورية أور الثالثة . وعلى الرغم من أن حمورابي استطاع في أواخر سنوات حكمه أن يوحد بلاد بابل في امبراطورية واحدة ، إلا أن حلفاءه لم يستطيعوا المحافظة على وحدة هذه الامبراطورية طويلاً . تأسست في الجنوب على شاطئ الخليج العربي سلالة حاكمة تدعى بسلالة بلاد البحر .

وأصبحت عيلام قوية وبالتالي أصبح الطريق إلى الجنوب، إلى الخليج العربي بالنسبة لبلاد بابل أكثر صعوبة. فأسماء ديلمون وماجان وملوخّا بدأت بالاختفاء تدريجياً من النصوص البابلية القديمة.

وتحولت سورية في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد من مورِّد للمواد الأولية وهدف للحملات التجارية والعسكرية المصرية والرافدية إلى شريك فعّال في تجارة الشرق القديم. كان ذلك نتيجة لتطورات أدّت إلى قيام وحدات سياسية على الأرض السورية.

١ ـــ عصر إيسن ـــ لارسا

حدث في هذا العصر تحول كبير في الحياة التجارية. أصبح التجار يتاجرون ليس فقط أو بشكل رئيس لحساب القصر أو المعبد، ولكن أيضاً لحسابهم الخاص. استوردت كميات كبيرة من النحاس وأحجار كريمة وعاج وأشياء أخرى قيمة من ديلمون وماجان. واستورد العاج أيضاً من ملوخّا. وكان هناك تجار يسافرون إلى ديلمون لعقد الصفقات التجارية. أخذ دور المعبد في التجارة بالتراجع التدريجي.

كان العصر في عهد ريم سين Rim sin آخر ملوك لارسا يلعب دوراً هاماً في التجارة إلى جانب التجار الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص. كانت شؤون القصر التجارية تدار من قبل وكيل التجار (وكيل تامكاري Wakil tamkàri)، الذي كان موظفاً يُعين من قبل الملك في كل مدينة. كانت التجارة الخارجية إلى حد كبير بيد القصر. ولكن كان للتجار الذين يعملون لحسابهم الخاص نشاطاتهم أيضاً. وأهم المواد المستوردة التي تذكرها النصوص هي النحاس والقصدير والخمر الذي كان يستورد من سورية. ووسيلة الدفع في التجارة كانت الفضة.

٢ ـــ أشور

لعبت في العصر نفسه (عصر إسن ـــ لارسا) أشور في شمال بلاد الرافدين دوراً بارزاً في التجارة، وبشكل خاص في التجارة مع الأناضول. تبين لنا النصوص المسمارية المكتشفة في كول تبه Kül tepe في كبادوكية في الأناضول، والمكتوبة بلهجة أشورية قديمة، بشكل واضح قيام علاقات تجارية نشطة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ما بين أشور والأناضول.

لقد أسس الأشوريون في تلك الفترات مستوطنات تجارية متعددة في الأناضول. أهم تلك المستوطنات كانت كاروم كانيش (Karum Kanis̀) وحالياً كول تبه، والتي كانت بمثابة المركز الرئيس للأشوريين في الأناضول.

تعالج الوثائق الصادرة عن التجار الأشوريين الذين كانوا يأتون إلى هنا مسائل اقتصادية بحتة. فهي تعطينا معلومات عن النشاطات التجارية المختلفة من بيع وشراء وأسعار ونقل وما إلى ذلك.

من خلال تلك الوثائق أصبح معروفاً أن أشخاصاً من سورية، من إبلا ومن تدمر، كانوا يسافرون إلى كاروم كانيش بغرض التجارة.

وكانت تجارة أشور مع بلاد الأناضول تقوم على تصدير القصدير والمنسوجات من أشور إلى الأناضول. وكانت أشور تحصل على القصدير من شمال غرب إيران ومن منطقة بحيرة أورمية، وعلى المنسوجات من بلاد بابل. تذكر النصوص المكتشفة المنسوجات حسب أنواعها ومصدرها.

ومقابل القصدير والمنسوجات كان التجار الأشوريون يحصلون على الفضة وأحياناً على الذهب من الأناضول.

كان التجار الأشوريون ينقلون بضائعهم إلى الأناضول بوساطة قوافل تجارية تتألف من الحمير، والتي كانت وسيلة النقل الوحيدة في ذلك الوقت. على الطريق إلى الأناضول كان يجب على التجار الأشوريين أن يدفعوا جمارك في أماكن متعددة حيث تمر قوافلهم. كذلك الأمير المحلي في الأناضول، الذي تقوم بجانب مدينته المستوطنة التجارية الأشورية، كان يطالب بجزء من البضائع وله الحق بشراء ١٠٪ منها بسعر مُخفَّض.

ولكن على الرغم من ذلك كان التجار الأشوريون يجنون أرباحاً كبيرة من جراء الصفقات التجارية مع الأناضول.

ومن الجدير بالذكر أن التجار الأشوريين كانوا يتاجرون لحسابهم الخاص وليس لخدمة قصر أو معبد.

بالإضافة للعلاقات التجارية التي كانت تربط أشور مع الأناضول فقد امتدت اتصالاتها التجارية أيضاً نحو الجنوب إلى بابل وأشنونة، وكان للتجار الأشوريين اتصالات دائمة مع سيبار.

٣ ـــ ماري ودورها التجاري

بسبب موقعها الجغرافي على الفرات الأوسط لعبت مدينة ماري (حالياً تل حريري) دوراً بارزاً في التجارة والمواصلات التجارية ما بين جنوب بلاد الرافدين وسورية وإيران وآسية الصغرى. ويذكر أحد نصوص إبلا في حملة عسكرية له ضد ماري. وهذا يشير إلى غنى هذه المدينة في العهد الأكادي.

عاشت ماري أقصى درجات ازدهارها في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهي الفترة المعروفة لدينا بشكل أفضل من الفترات السابقة بسبب اكتشاف الأرشيف الملكي.

يضيء أرشيف ماري لنا جوانب عديدة من حياة تلك المدينة ومنها الجانب التجاري. ونعرف من خلال نصوص ذلك الأرشيف مدى امتداد العلاقات التجارية التي كانت تربط ماري بمدن ذلك العصر وبلدانه مثل: ديلمون في الخليج العربي، حاصور في شمال فلسطين، جُبيل وأوجاريت على الساحل السوري، كركميش وإيمار وحلب في شمال سورية حاتوشا في الأناضول، ألاشيا Alaŝia (قبرص) وكابتارو Kaptaru (كريت) في البحر المتوسط من مواد التجارة التي كانت ماري تستوردها أو تعبرها إلى بلاد بابل الخمر الذي كان يُستورد من سورية وبشكل خاص من مدينتي إيمار وكركميش ويُنقل عبر الفرات بالسفن، والأخشاب بأنواعها المختلفة كأخشاب الأرز والسرو والصنوبر، وزيوت هذه الأشجار ومنتجاتها وأحجار الجواريش.

كل ذلك كانت تصدره سورية إلى ماري وبلاد بابل. كذلك كانت ماري تحصل على الخيول من كركميش وقطنة، وعلى زيت الزيتون من حلب. وأحياناً كانت الحبوب تجد طريقها من سهول سورية الشمالية إلى ماري.

كان النحاس يمر في طريقه من قبرص إلى ماري وبلاد بابل عبر المدن السورية، وكذلك بعض منتجات جزيرة كريت.

من المواد التجارية المهمة في ذلك العصر القصدير الذي كان يصل ماري عبر أشور من شمال غرب إيران. وكانت ماري تسد حاجتها من ذلك المعدن ومن ثم تصدر كميات كبيرة منه إلى البلدان والمدن السورية المختلفة مثل كركميش، حلب، قطنة، أوجاريت وحاصور. من المحتمل أن القصدير المصدَّر من ماري كان يصل أيضاً إلى جزيرة كريت عن طريق أوجاريت التي تعيد تصديره.

وكان القصدير يستخدم في ذلك الوقت في صناعة البرونز وذلك بمزجه مع النحاس.

كانت الطرق التجارية التي تربط سورية مع بلاد الرافدين تمر عبر ماري. أحد هذه الطرق كان يتجه إلى الشمال الغربي بمحاذاة الفرات حتى إيمار، وبعدها ينعطف نحو الغرب إلى حلب ومن ثم إلى ساحل المتوسط. وكان الطريق الثاني يخترق الصحراء العربية السورية ماراً عبر تدمر ليصل سهول حمص ومن ثم سواحل المتوسط، أو يخرج من تدمر باتجاه الجنوب الغربي ماراً بالقريتين

(ناشالا Nasala) نحو منطقة دمشق ومنها إلى فلسطين . وكان الحمار وسيلة النقل الوحيدة في هذا العصر ويرد ذكره بكثرة في نصوص عديدة من ماري .

كانت ماري تجني أرباحاً جمة من الجمارك التي تفرضها على السفن والقوافل التجارية التي تعبر أراضيها .

وتبين لنا مجموعة من نصوص أرشيف ماري أن محطة لمراقبة المواصلات التجارية كانت قائمة على الفرات على الحدود الشمالية من مملكة ماري . مهمتها كانت جباية الجمارك من السفن العابرة حسب حمولتها من البضائع وحسب نوعية تلك البضائع .

محطات المراقبة والجمارك لم تكن قائمة فقط في مملكة ماري وإنما أيضاً في بلاد بابل ، حيث تذكر إحدى الرسائل البابلية القديمة اسم محطةٍ على الفرات تدعى باصو Basu ، ليست بعيدة عن سيبار وبابل . وكان على السفن التي تعبر الفرات في تلك المنطقة أن تدفع جمارك عن البضائع التي تنقلها . هذه المحطة كانت تمارس نشاطها منذ عهد حمورابي على الأقل . كان يدير تجارة القصر في ماري ، كما في بلاد بابل ، موظف ملكي يدعى بوكيل التجار (وكيل تامكاري) . وكان مسؤولاً أيضاً عن جباية المكوس (الجمارك) .

تذكر لنا نصوص من أرشيف ماري عدداً من التجار وتلقي أضواء على نشاطاتهم التجارية المختلفة ، وتبين بشكل واضح أنهم كانوا يقومون برحلات تجارية إلى المدن المختلفة مثل كركميش وحاصور ، كذلك تبين لنا تلك النصوص أن ماري كانت تجتذب تجاراً من مناطق متعددة ، من كركميش ومن إيمار ، كانوا يأتون إليها حاملين معهم منتجات بلادهم .

من كل ذلك نستنتج أن ماري كانت مركزاً تجارياً مزدهراً في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وازدهارها التجاري مكّن ملوكها من تمويل المشاريع العمرانية الضخمة مثل القصر الملكي .

٤ ــ بلاد بابل

معلوماتنا عن التجار والتجارة في بلاد بابل في العهد البابلي القديم تقيها بشكل رئيس من قانون حمورابي ومن نصوص بابلية قديمة من مدينتي لارسا وسيبار .

يظهر التاجر (بالأكادية تامكاروم Tamkàrum) في الفقرات ٣٢ ، ٢٨٠ ــ ٢٨١ حتى قانون حمورابي تاجراً مسافراً ينتقل من مكان إلى آخر في رحلات تجارية مختلفة . ولكن في المواد

٩٩ ـــ ١٠٧ يتبين أن التاجر كان يبقى غالباً في مركزه التجاري ويدير أعماله دون الحاجة إلى السفر . كان يعطي بضائع أو نقوداً إلى ممثل تجاري (شامالوم Šamallüm) يقوم بتنفيذ الرحلات التجارية المطلوبة ، وعلاقته معه منظمة بشكل قانوني . وكان يجب على الـ « شامالوم » أن يعيد للتاجر ، بعد انجاز رحلته وبعد حسم المصاريف ، رأس المال والفوائد والأرباح .

يتضح من هذا أن التاجر كان يعطي الـ « شامالوم » رأس المال قرضاً بفائدة .

ويعد تقديم القروض الدرجة العليا في التطور في ممارسة الأعمال التجارية وتذكر مواد عديدة من قانون حمورابي التاجر مقدماً القروض العينية والنقدية (المواد ٤٩ ـــ ٥١ ، ٦٦ ، ١١٥ ـــ ١١٩ ، ١٥١ ـــ ١٥٢) . كذلك تبين عدة نصوص بابلية قديمة نشاطاته في هذا المجال .

كان التجار يمارسون نشاطاتهم التجارية ، وبشكل خاص التجار الذين يتعاملون مع الخارج ، بتكليف من القصر ، ويشغلون أنفسهم أيضاً بالتجارة الخاصة .

كان التجار يستثمرون أرباحهم من التجارة في شراء الأراضي والبيوت . وفي عدة نصوص بابلية قديمة يظهرون بوصفهم شارين أو باعة لبيوت وحدائق وملكيات خاصة .

تذكر إلى جانب التجار النصوص البابلية القديمة من مدينة سيبار الـ « ناديتو naditu » (كاهنات الإله شَماش) كممارسات للأعمال التجارية مع بيع وشراء وإقراض . واستغل الـ « ناديتو » كالتجار أرباحهن من التجارة في شراء الأراضي والبيوت والعقارات . بالإضافة إلى ما تقدم كانت توجد في بلاد بابل شخصية أخرى مهمة لعبت دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية ، ويرد ذكرها كثيراً في النصوص البابلية القديمة ، ألا وهي وكيل التجار (وكيل تامكاري) .

وكان وكيل التجار موظفاً ملكياً يُعيَّن لإحدى المدن . وكانت وظيفته إدارة الصفقات التجارية للقصر الملكي . وكان مسؤولاً عن جمع الضرائب ، ويجب عليه أن يورد للقصر بدلاً عن ذلك كمية محددة من الفضة . وبعبارة أخرى كان وكيل التجار عملياً المدير المالي للمدينة .

كان لدى بلاد بابل المنتجات الزراعية والحيوانية للتصدير مثل زيت السمسم والجلود والصوف . كذلك فإن صناعة النسيج البابلية كانت تتمتع بسمعة طيبة في الخارج . والأنسجة البابلية كانت تُصدر إلى أشور ومن هناك إلى الأناضول ، كذلك فإنها كانت تُصدر إلى قطنة في وسط سورية .

كان تجار من أكاد يسافرون حتى الأناضول ، وكان التجار الأشوريون يأتون إلى بلاد بابل .

كانت بلاد بابل تستورد من الخارج المعادن كالنحاس من قبرص ومن ديلمون ، والقصدير من شمال غرب إيران . ولعبت مدينة سيبار دوراً مهماً في تجارة هذا المعدن وبشكل خاص تصديره نحو الجنوب . من المعتقد أن بلاد بابل شاركت في تجارة القصدير وتصديره من شمال غرب إيران إلى المدن السورية ، وذلك بعد احتلال ماري وتدميرها ، والتي كانت تقوم بدور الوسيط في ذلك ، من قبل حمورابي ملك بابل .

تتحدث رسالة من عهد ما بعد حمورابي عن نقل القصدير من بابل عبر الفرات إلى مدينتي إيمار وحلب السوريتين . بالإضافة إلى المعادن كانت بلاد بابل تستورد من سورية الأخشاب المختلفة والخمر وزيت الزيتون والخيول والعسل .

كان الفرات يخدم كوسيلة اتصال مهمة ما بين سورية وبلاد بابل ، حيث كانت السفن تمخر مياهه ناقلة البضائع المختلفة من شمال سورية إلى المدن البابلية .

وكانت المواصلات المائية مهمة جداً في بلاد الرافدين وبخاصة في الوسط والجنوب . ويشير قانون حمورابي في عدة مواد منه إلى الملاحة وبناء السفن (المواد ٢٣٤ ــ ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧) . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية المواصلات المائية في بلاد بابل .

كانت الطرق البرية تسير عادة بمحاذاة الأنهار . يصف أحد النصوص الطريق البري الخارج من لارسا في جنوب بلاد الرافدين والممتد حتى ميناء إيمار على الفرات في شمال سورية .

من المعتقد أن حمورابي ألحق الضرر بتجارة بلاده عندما دمر مدينة ماري التي كانت تلعب دوراً بارزاً في التجارة ما بين سورية وبلاد الرافدين . وربما كان الدافع الأساسي لتدميرها هو إتاحة الفرصة لمدينة بابل كي تحل محلها في هذه التجارة .

بالنسبة لعلاقات بلاد الرافدين مع مصر في هذه الفترة لا توجد حتى الآن أية دلائل على ذلك . ولكن من المعتقد بأن بعض المواد مثل اللازورد والقصدير كانت تصل مصر من بلاد الرافدين أو عبرها .

في العصر البابلي المتوسط والعصر الأشوري المتوسط

بعد انقطاع في التواتر الكتابي دام أكثر من قرن من الزمن تشهد النصوص والرسائل من نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبخاصة رسائل تل العمارنة ، على اتصال نشيط بين كل منطقة غرب آسية ومصر .

وبدأت رسائل تل العمارنة وهي رسائل مسمارية باللهجة البابلية . في الظهور للعيان منذ عام ١٨٨٧ في تل العمارنة وسط صعيد مصر ، نحو ٣٠٠ كم جنوب القاهرة . وهي عبارة عن مراسلات البلاط المصري مع أمراء سورية وفلسطين وملوك الدول القوية في الشرق القديم في ذلك الوقت .

وبالإضافة إلى أنها تعطي معلومات وفيرة عن الوضع السياسي في تلك الفترة فإنها تلقي أيضاً أضواءً على العلاقات الاقتصادية والمواصلات التجارية التي كانت تربط ممالك تلك الحقبة ودويلاتها .

يتضح من الرسائل أنه لم تكن هناك صفقات تجارية بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما كان هناك تبادل هدايا بين فراعنة مصر وأمراء وملوك سورية وبلاد الرافدين .

وكان التبادل يتم على أساس القيمة الحقيقية للبضائع ، والنوعية كانت تفحص بدقة ، ومحاولات الخداع والغش يرد ذكرها في الرسائل . فعندما يتلقى ملك أو حاكم هدية من ملك أو حاكم آخر ، عليه أن يرسل له هدية قيمتها توازي قيمة الهدية التي تلقاها . بمعنى آخر كان هناك تبادل تجاري اتخذ صفة تبادل الهدايا .

وكان ملوك بابل يرسلون إلى فراعنة مصر اللازورد وأحجاراً كريمة أخرى كانت تستورد من المناطق الواقعة إلى الشرق من بلاد الرافدين .

أما الفراعنة المصريون فكانوا يبعثون بدورهم إلى ملوك بابل الذهب بكميات كبيرة والأخشاب (خشب الأبنوس) والعاج .

وكانت مصر تحصل على الذهب من منطقة ما بعد الشلال الأول على النيل في الجنوب . فكانت مصر مشهورة بغناها بالذهب حتى أن ملوك بابل كانوا يعتقدون أن الذهب موجود في مصر كالتراب .

كانت بلاد أشور ترسل إلى مصر الخيول والعربات . وكان النحاس يصل إلى مصر من قبرص المعروفة بغناها بهذا المعدن منذ العهد البابلي القديم . ولقد أخذت هذه الجزيرة اسمها من غناها بالنحاس .

وكان النحاس يدخل في صناعة البرونز وذلك بخلطه مع القصدير . والقوافل التي كانت تسافر بين بلاد الرافدين ومصر كانت تسلك الطريق البري الذي يخترق الصحراء العربية السورية

ماراً عبر تدمر وقطنة أو عبر تدمر ونَشالا Naŝala (القريتين) ومن ثم يلتقي الطريق القادم من الشمال من حلب وحمص والمتجه نحو دمشق وفلسطين ذاهباً إلى دلتا النيل .

وكانت توجد على هذا الطريق محطات عديدة للاستراحة وللتزود بالماء والمؤن . ويمكن بناءً على عملية حسابية دقيقة القول إن القافلة التجارية كانت تحتاج في رحلتها من بابل إلى أخيت أتون (العمارنة) نحو ثلاثة أشهر . علماً بأن الحمار كان وسيلة النقل المستخدمة في القوافل في هذه الفترة .

من الجدير بالذكر أن رحلات القوافل كانت تتوقف في فصل الصيف بسبب الحر الشديد ونضوب مياه الكثير من الآبار الموجودة على طرق المواصلات .

كذلك فإن فصل الشتاء كان يشل حركة القوافل بسبب البرد والأمطار والوحول الناتجة منها والتي تعيق حركة المواصلات على الطرق .

لعبت سورية في هذه الفترة ، كما في الفترات السابقة ، دوراً بارزاً كعقدة مواصلات مهمة للتجارة . وكانت أوجاريت ميناء سورية البحري ، تبين النصوص المختلفة بشكل واضح الصفة العالمية لهذا الميناء . وكان التجار الأجانب يقيمون هناك ، وامتدت الاتصالات التجارية حتى آسية الصغرى ومصر وكويت .

كان التجار على ما يبدو مرتبطين بالقصر بعلاقة وثيقة ، وكانت الدولة تفرض ضرائب أو جمارك على البضائع التجارية . وحاول الحكام حماية حقوق تجارهم من خلال عقود واتفاقات مع الحكام الآخرين . كانت علاقات أوجاريت مع كركميش في هذه الفترة قوية . وكان تجار من كركميش يسافرون إلى أوجاريت ، لشراء بضائع بغرض تصديرها إلى بلاد بابل وبلاد أشور .

يذكر عدد من رسائل تل العمارنة الصعوبات والعقبات التي كانت تعترض القوافل التجارية في تنقلاتها بين حواضر الشرق القديم . من ذلك يتبين أن الاعتداءات على القوافل كانت تحصل ليس فقط في مناطق الصحراء والبوادي ولكن أيضاً في المناطق الحضرية أو الموجودة تحت سيادة الدولة .

كان الملوك والحكام يحتجون لدى بعضهم بعضاً بسبب الاعتداءات على القوافل التابعة لهم أو سلبها وقتل أفرادها .

وكتب مرة ملك بابل الكاشي بورنا بورياش Burnaburiaŝ بهذا الخصوص إلى الفرعون المصري مطالباً إياه بالتعويض عن قافلة بابلية تعرضت للسلب والنهب في منطقة خاضعة للسيادة

المصرية (فلسطين) . كذلك فإن ملك كركميش طالب حاكم أوجاريت مرات عديدة بالتعويض عن تجار من كركميش قتلوا في أوجاريت . وتبين نصوص أوجاريت أيضاً أن التجار المارين في شمال سورية كانوا يتعرضون أحياناً للسلب والنهب والقتل .

بالإضافة إلى ماتقدم فإن سوء العلاقات السياسية بين الدول كان يؤدي إلى إعاقة حركة القوافل التجارية أو توقفها أو الاعتداء عليها .

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الحمار كان وسيلة النقل الوحيدة المستخدمة في القوافل . وتوجد في الواقع بعض الاشارات من هذه الفترة إلى الجمل كحيوان مدجن . وقد ورد ذكره في نصوص ألالاخ المكتشفة في الطبقة السابعة والعائدة إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن السابع عشر قبل الميلاد . ولكن استخدامه كحيوان نقل في القوافل تم في الألف الأول قبل الميلاد .

٦ ـــ انهيار النظام الدولي وسقوط بابل

كان النجاح الذي حققه حمورابي نجاحاً شخصياً للعاهل الذكي الذي استطاع العمل على بعث نهضة البلاد وتجديد حضارتها التي أرسيت قواعدها في عصر أكّد ثم أور الثالثة . أما الوحدة السياسية فقد تحققت بصعوبة وبعد سلسلة طويلة من المؤامرات والحروب ولم تؤد إلى نتائج ملموسة إلّا في السنوات الأخيرة من حكمه . وهي إن حققت للبلاد عظمتها فقد أنهكت قواها بمقدار ما امتدت واتسعت .

وعلى الرغم من الجهود الرائعة التي بذلها حمورابي في تنظيم الاقتصاد بتشجيع التجارة والعمل وحفظ حقوق الأفراد بقوة القانون العام ، فإن الأزمة الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية بقيت حادّة . وقد اضطر خلفه سمسو ـــ إيلونا إلى استصدار مرسوم ثان بإلغاء الديون . وبدأ انحدار القبائل الكاشية من الفرسان الجبليين والرعاة من أطراف سلسلة جبال زاغروس نحو السهول بحثاً عن المراعي والعمل في الحقول . وقد اضطرب حبل الأمن في بعض المناطق وتكررت حوادث قطع الطرق والسلب والنهب . وقد قامت ثورات في بعض المدن مثل لارسا واستمرت سنتين . وكان الخطر القادم متوقعاً من جهة البحر ، أي من المناطق الجنوبية الواقعة على الخليج . ولذا فقد لجأت بابل إلى إنشاء التحصينات الدفاعية على خطوط طويلة تمتد بين سيبار وبابل ثم واتت الفرصة أشور التي خرجت عن سلطة الحكومة المركزية لتكوّن مركز ثقل سياسي ـــ عسكري في شمال بلاد الرافدين .

أما في داخل البلاد فقد انهار النظام الزراعي ولم تعد للإقطاعة الممنوحة للجنود صفة

شخصية ، وأضحى لبعضهم موارد عمل أخرى سوى الوظيفة ، وتملّك بعضهم ممتلكات شخصية وصاروا يستأجرون أراضي من ممتلكات الدولة . واقتصرت خدمة الملك على تأدية غلالِ قطعةٍ من الأرض . وتتضح هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بابل والمناطق المجاورة في حوض الفرات من دراسات عددٍ من كبار الباحثين(٧) : (سولبرجر وشلختر ولاند سبرجر وإيفانس) في دارساتهم المتتابعة للنصوص التي نشرت من عهد الملك إبي — إيشوه (١٧١١ — ١٦٨٤) . وكانت هذه من المؤشرات التي أنذرت أخيراً بسقوط النظام البابلي من الداخل قبل أن تجهز عليه غزوات الشعوب الغربية التي اجتاحت المنطقة في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م .

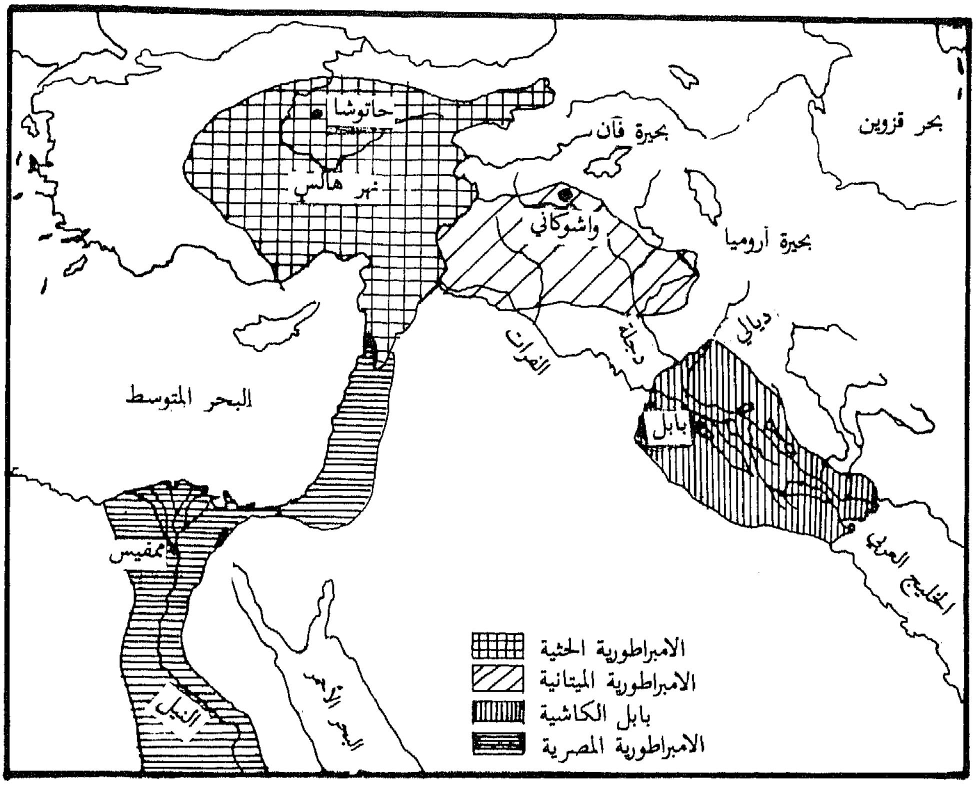
---

(٧) انظر E.Sollberger, thirty two datet Tablets in the reign abi Eshuh, JCS, 5, (14517, 17-97
L.Schlechter, ICS, (1953) 81-99; B. Landsberger
JCS, 9 (1955) 121-131; G.Evans J.C.S, 14 (14 (1960) 34-42.

الفصـــل التـاســع

بـلاد الـرافـديـن فـي النصـف الثـانـي مـن الألـف الثـانـي ق . م
القـوى الجـديـدة فـي الـشـرق الأدنـى القـديـم
الحوريـون ـــ الكاشيـون ـــ الحثيـون

يستطيع الباحث المدقق أن يلمح بوادر انقلاب الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المنطقة والظهور المبكر لقوى التغيير في أرض الرافدين منذ عصر حمورابي . فالعناصر **الحوريّة** كانت قد استقرت بكثافة وقوة غربي دجلة . أما القبائل **الكاشية** فقد أخذت تنحدر بانتظام من جبال زاغروس للبحث عن عمل . وكانت بعض الجماعات المسلحة تهاجم السهول والحقول وتنهبها . أما في القرن السابع عشر فقد بدأ تحرك كثيف لهذه القبائل وكان غزواً حقيقياً ، يبدو أنه نجم عن دفع القبائل الهندو ــ أوربية (الآرية) للقبائل الكاشية التي نزلت عندئذ إلى سهول وادي الرافدين وانتشرت في منطقة بابل ثم تبعهم الفرسان الآريون الذين اختلطوا بالشعوب القديمة من الحوريين والكاشيين ورافقوهم في زحفهم وانتشارهم نحو الغرب (سورية) حتى وصلوا إلى كنعان (فلسطين) . ولكن حدة الهجوم كانت تضعف كلما توغل نحو الغرب ، وتوقف عند بوابات الأناضول حيث أخذت الأوضاع هناك بالاستقرار في ظل أسرة حاكمة هي أسرة كوسار التي وضعت أسس مملكة كبرى هي (الامبراطورية) **الحثية** . لكن الوضع العام في المنطقة اضطرب ، وشارك الحثيون في تسعير حدّة التوتر وبلغ ذلك ذروته بتحرك الملك الحثي مورشيلي الأول نحو سورية الشمالية فاجتاح مدينة حلب وأعمل فيها السلب والنهب ثم توجه إلى مدينة بابل نفسها ودخلها . لم يكن لهذا الهجوم سوى نتائج مؤقتة وبقي دون تأثير حاسم فالقوات الحثية اضطرت إلى التراجع



الشرق الأدنى القديم في القرن ١٥ ق. م

لانشغال العاهل الحثي بالمشكلات الداخلية . لكنه خلف آثاراً عميقة وبعيدة المدى فقد غرقت بابل في بحران الفوضى . وأما فلسطين وسورية فلم تكونا بمنجاة من آثار التمزق والانقسام العام في المنطقة فبعد إخراج الهكسوس من مصر اندفعت القوات الفرعونية المصرية عبر سيناء لملاحقتهم والتوسع حتى الفرات . .

١ ــ التوازن الدولي الجديد في الشرق الأدنى القديم

عندما انتصف الألف الثاني ق . م (نحو ١٤٥٠) كانت الأوضاع الدولية قد تغيرت تماماً وتبدّل مصور الشرق الأدنى القديم بصورة كلية . أما القوى الدولية الأساسية بعد ذلك التغيير فهي : **امبراطورية ميتاني (الحوريون) ومملكة بابل الكاشية ، والامبراطورية الحثية ، والامبراطورية المصرية** (الدولة الحثية) . أما أشور فلم تكن سوى قوة ثانوية كانت تمر في مرحلة من التراجع والانكماش . وهكذا استطاعت تلك الشعوب التي كانت تعيش في السابق في مواقع ومناطق متطرفة على هامش الحياة الدولية ، أن تنتقل إلى واجهة المسرح الدولي للقيام بأدوار أساسية طوال ثلاثة قرون .

كانت تلك هي الدول الكبرى التي توزعت النفوذ في المنطقة وقامت فيما بينها علاقات متشابكة تفاوتت ما بين النزاع والعلاقات الدبلوماسية والتجارية ، ولأول مرة في التاريخ يحدث تغير نوعي في العلاقات الدولية بنشوء احتكاك مباشر بين القوى الدولية بعد توازن استمر أمداً طويلاً بوجود فراغ كبير كان يفصل في السابق بين الممالك والدول . أما التوازن الجديد فقد نشأ عن تزاحم هذه القوى واحتكاكها وتصارعها ثم اقتسام النفوذ في المناطق الاستراتيجية للمحافظة على أمن كل دولة من الدول ولحماية المصالح الاقتصادية والتجارية لكل منها . وكان الوضع شديد الحساسية لدرجة أن أي صدع يحدث في أية زاوية من زوايا البناء كان يؤدي إلى انهياره برمته . وبوسع الباحثين أن يرجعوا إلى الوثائق الوفيرة عن هذه المرحلة من التاريخ وهي تتضمن مجموعات وثائق المحفوظات في القصور الملكية المكتوبة باللغة البابلية والخط المسماري على ألواح من الطين . وقد وجدت مجموعة من هذه النصوص في موقع تل العمارنة (أخيت أتون) في صعيد مصر . وهناك الوثائق الاقتصادية والسياسية المكتشفة في أجاريت ، وكذلك الوثائق الدبلوماسية والحوليات التي عثر عليها في الديوان الحثي في حاتوشا (بوغازكوي) العاصمة الحثية وسط الأناضول ، وفي أشور وبابل . أمّا الثغرة الكبيرة التي تحول دون رسم صورة كاملة للوضع الدولي في المنطقة في تلك الفترة فسببها عدم العثور على موقع العاصمة الميتانية **وأشوكاني** الذي ما يزال غير معروف حتى الآن .

وبانتظار هذا الكشف الخطير فإن الوثائق المتوافرة حالياً بين أيدي الباحثين كافية للتعرف

على التطورات السياسية والدولية في تلك المرحلة من التاريخ . وقد تراوحت العلاقات بين القوى الكبرى بين درجات متفاوتة فكانت تصل أحياناً إلى عقد مصاهرات كزواج العاهل المصري الفرعون أمنحوتب الرابع (إخناتون) من الأميرة الميتانية نفرت ـــ تي (نفرتيتي) . وربما كانت أميرة من إحدى إمارات سورية الشمالية ، ويظن أنها أثرت في تكوّن معتقدات الفرعون الشاب وقناعاته الدينية . وكان انشغال مصر في أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة بظروفها الداخلية آنذاك فرصة أتاحت للامبراطورية الحثية التحرك في المناطق السورية بصورة مثيرة للقلق وقادت مصر من جديد إلى التصدي بقيادة حورمحب أولاً ثم بقيادة فراعنة الأسرة التاسعة عشرة سيتي الأول ثم رعمسيس الثاني لهذا التحرك الحثي .

كانت تلك هي الدول الكبرى في المنطقة في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م ؛ لكن كانت توجد أيضاً دول عديدة أخرى في سورية وبلاد الرافدين تابعة لهذه الدولة الكبرى أو تلك . ولم تكن الحدود السياسية ثابتة على حال واحدة خلال ذلك العصر ، فقد رأينا كيف كانت تتغير ظروف التوازن الدولي ويتغير رسم الحدود تبعاً لفعاليات الدول والعلاقات القائمة فيما بينها .

وإذا كان من الصعب التعرف على الحدود السياسية للدول بشكل صحيح فإنه ليس من السهل تحديد الحدود العرقية واللغوية بدقة في خارطة المنطقة . وإننا إذا ما نظرنا إلى أحوال السكان من الزاوية الاجتماعية ـــ الثقافية فإننا نجد معظم السكان في الريف من الفلاحين والريفيين وهم مستقرون أو أشباه البدو ، في مرحلة وسط بين البداوة والحضارة . أما في المدن فنجد التجار والصناع موزعين على أحياء المدينة وأسواقها بحسب صنائعهم . ويتكلم معظم هؤلاء السكان لهجات (سامية غربية) كنعانية ـــ آرامية في غرب الفرات وأكادية بلهجة أشورية أو بابلية في أشور وبابل . ونجد في المناطق الانتقالية قبائل أمورية عديدة وهذه لها لهجاتها التي تختلف قليلاً أو كثيراً عن الأكدية أو الكنعانية . وهناك تجمعات حورية مبعثرة في مناطق كثيرة ولكن معظم الحوريين ينتشرون على شريط يمتد من زاغروس إلى الأمانوس . وينبغي مع ذلك أن يذكر أن السكان كانوا مختلطين ومتداخلين بصورة عامة ولم يكن هناك فصل بين المجتمعات على أساس لغوي . فبينما كان يكثر عدد الحوريين في وادي الخابور كان أكثر السكان من الناطقين بلهجات تنتمي إلى العائلة اللغوية السامية (العربيات القديمة) . وبينما كنا نجد عناصر حورية في ألالاخ في سهل العمق في وادي العاصي الأدنى فإن العناصر الأمورية كانت تنتشر في حلب وفي وادي الفرات وبخاصة في منطقة ماري وبلاد بابل .

وقد تمكنت العناصر **الحورية** في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة وشمال سورية أن تشكل دولة كبيرة هامة في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م هي مملكة ميتاني بعد أن تضاءلت قوة مملكة

بابل . وكانت هذه الدولة تتألف من مجموعة كبيرة من الدويلات والامارات ترتبط برأس الدولة وهو ملك ميتاني ارتباطاً شخصياً واهياً أحياناً وشبيهاً بالارتباط الاقطاعي . وكان على رأس الدولة والمجتمع أرستقراطية آرية بالإضافة إلى العناصر الحورية القديمة . وقد كوّنت هذه الدولة مع مملكة أشور التي كانت تابعة لها أكبر قوة سياسية في غربي آسية خلال القرن الخامس عشر ، امتدت من جبال زاغروس شرقاً إلى الأمانوس غرباً ومن كيليكية شمالاً إلى جبال لبنان جنوباً .

ولكن في الربع الأخير من هذا القرن دخل عامل جديد في معترك الصراع في سورية الشمالية عندما أخذت الامبراطورية الحثية في مدّ نفوذها نحو الجنوب بعد أن تنامت قوتها مما أدّى إلى الاصطدام المباشر مع مملكة ميتاني وإلى إيجاد الظرف المناسب لتوطيد التحالف الميتاني ـــ المصري .

٢ ـــ الحوريون : دولة ميتاني (١)

١ ـــ أصول الحوريين

لا يزال معنى اسم « الحوريين » حتى الآن غير معروف . فمحاولات التفسير العديدة التي أجريت تفتقر إلى برهان مقبول . ربما كانت هناك علاقة مع كلمة « خُورادي huradi : عسكري ـــ حارس » ، التي ترد في اللغة الحورية والأواراتية والأشورية الحديثة والأوجاريتية ، وذلك في حال كون هذه الكلمة حورية الأصل . وقد كشفت الحفريات التي بدأت في عام ١٩٠٦ في العاصمة الحثية حاتوشا Hattuša (حالياً بوغازكوي Boğazköy ، بوغازكالي Boğazkale) عن وجود اتفاقيات دولية مكتوبة باللغة الأكادية . وقد تمكن الباحثون من نصوص هذه الاتفاقيات من معرفة وجود أرضٍ أو بلادٍ تسمى « أرض حوري » و « أناس من حوري » .

الحوريون في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد من المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال الشرقي من بلاد الرافدين ، ووقعوا تحت تأثير كبير للثقافة السومرية ـــ الأكادية ، ولعبوا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد دوراً مهماً في نقل هذه الثقافة إلى سورية وآسية الصغرى .

إن معلوماتنا عن الحوريين في عهد الامبراطورية الأكادية قليلة والمعروف أنهم عاشوا على أطراف الأراضي الزراعية في بلاد الرافدين . ولكن من المؤكد أنه مع نهاية هذا العهد حدثت موجة أولى من الاستيطان الحوري في شمال الأراضي الواقعة إلى الشرق من دجلة .

وبعد سقوط الامبراطورية الأكادية قامت الدولة الحورية الأولى المعروفة لدينا . وترك لنا أحد

(١) أعد البحث عن الحوريين د . عيد مرعي .

الحكام الذي كان يحمل اسماً حورياً تقليدياً « أتال شين Atal-Šen » وثيقة مكتوبة على لوح من البرونز باللغة الأكادية . يسمى أتال شين نفسه هذه الوثيقة « ملك أُوركيش Urkeš ونَوار Nawar » . هاتان المدينتان معروفتان من نصوص أخرى ولكن يصعب حتى الآن تحديد موقعهما بدقة (ربما كانت أُوركيش تل عامودة في منطقة الخابور) في الجزيرة السورية . من المحتمل أن أتال شين حكم في عهد الكوتيين (نحو ٢٠٩٠ ـــ ٢٠٤٨ ق . م) أو فيما بعد في العقود الأُولى من عهد سلالة أور الثالثة .

تظهر مدينة أُوركيش في وثائق دينية كمركز لـ « ملك الآلهة » كوماربي Kumarbi . ومن المعتقد أن نشوءها يرجع إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد . لذلك فمن الممكن أن هذه المدينة قد كانت مركزاً للحوريين في منطقة شرق دجلة وأعالي الخابور . والوثائق العائدة إلى عهد سلالة أور الثالثة تجعلنا نعرف أن المناطق الجبلية إلى الشرق والشمال من بلاد الرافدين كانت مأهولة في تلك الفترة بسكان يتكلمون اللغة الحورية .

قاد الملك السومري شولغي (٢٠٩٤ ـــ ٢٠٤٧) وهو الملك الثاني من سلالة أور الثالثة ، عدة حملات عسكرية إلى شمال منطقة شرق دجلة . وقد أسفرت هذه الحملات وصول عدد كبير من الأسرى الحوريين إلى بلاد سومر حيث جرى استخدامهم في أعمال الزراعة وهذا واضح من أسمائهم التي ترد في نصوص عديدة ، وقد انتهت سيطرة ملوك سلالة أور الثالثة على شمال منطقة شرق دجلة في عهد إبي سين Ibbi-Sin (في أواخر الألف الثالث ق . م) . ومن المعتقد أن ملكاً من أُوركيش وسع امبراطورية أُوركيش الحورية في ذلك الوقت .

ويدعى هذا الملك تيش أتال Tiš-atal ، ويظهر اسمه في وثائق عديدة . وقد خلف لنا وثيقة مكتوبة باللغة الحورية ، وهي أقدم وثيقة مكتشفة حتى الآن بهذه اللغة .

يعطينا أرشيف مدينة ماري الواقعة على الفرات الأوسط معلومات عن وجود دويلات حورية في شمال سورية (أورشوم وخاشوم) وشمال بلاد الرافدين وحتى في منطقة شرق دجلة وجبال زاغروس .

ويذكر لنا أرشيف الطبقة السابقة من ألالاخ على المجرى الأسفل لنهر العاصي أسماء أشهر باللغة الحورية وعدداً كبيراً من أسماء الأعلام الحورية ، ليس فقط بين الأشخاص العاديين وإنما أيضاً بين الأشخاص العاملين في القصر الملكي . وترد كذلك أسماء حورية في النصوص المكتشفة في تل شاغار بازار (في الجزيرة) وتل الرماح (مدينة كرانا Karana قديماً) (في وسط بلاد الرافدين)

كذلك فإن منطقة أرابخا Arrapha (منطقة كركوك حالياً) بعاصمتها نوزي Nuzi كانت في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد مركزاً لاستقرار العناصر الحورية. ومما تقدم يتضح أن العناصر الحورية كانت منتشرة في مناطق عديدة من بلاد الرافدين وسورية منذ القرون الأولى من الألف الثاني ق. م. وبعد موت شمشي أدد الملك الأشوري القوي تبعثرت منطقة أعالي بلاد الرافدين إلى وحدات سياسية عديدة تُحكم من قبل أُسرٍ حوريةٍ مختلفة. في هذا الوقت كان طور عابدين والجزيرة مناطق حورية. ومن المعتقد أنه بعد سقوط ماري انتشر الحوريون بشكل سريع في وادي البليخ والفرات الأوسط وربما وادي العاصي الأوسط.

٢ ـ (امبراطورية) ميتاني وعلاقاتها بالدول المعاصرة لها

بدايات نشوء امبراطورية ميتاني غير معروفة حتى الآن. ويقتضي الحديث عن ميتاني التطرق إلى الحثيين لفهم مجريات ما حدث بشكل أفضل.

بعد أن وطد الحثيون سيطرتهم في هضبة الأناضول اتجهت توسعاتهم إلى شمال سورية حيث المدن الغنية والأراضي الزراعية الخصبة.

هنا كانت تقوم مملكة يمحاض Yamhad بعاصمتها حلب وألالاخ على العاصي كمقاطعة مهمة. إلى جانب ذلك كانت هناك كركميش (جرابلس حالياً) والدويلتان أورشوم وخاشوم، اللتان كانتا تحكمان من قبل عناصر حورية. يضاف إلى ذلك الحوريون الذين كانت قاعدتهم تقع إلى الشرق من الفرات.

الهدف الأول لحملة الملك الحثي حاتوشيلي الأول (حوالي ١٥٦٠) Hattušili I ضد شمال سورية كان، حسب وثيقة تركها هذا الملك، مدينة ألالاخ التي استطاع احتلالها وتدميرها. لكن حملته ومحاصرته مدينة أورشوم كانت غير ناجحة حيث لم يوفق في احتلالها. وفيما بعد قاد الملك الحثي حملة ضد خاشوم واستطاع احتلالها.

أما السيطرة على شمال سورية فكانت تعني بالدرجة الأولى السيطرة على حلب التي تشكل القوة الأساسية فيها. لكن حاتوشيلي لم يتمكن من تحقيق ذلك، وربما فقد حياته عندما زحف عليها. كان ذلك مهمة خليفته مورشيلي الأول Murshili I الذي استطاع احتلال المدينة الذي كان ضربة قاسية للامبراطورية الحورية (الميتانية) التي كانت متحالفة معها منذ أيام حاتوشيلي الأول. ومن هنا فمن الطبيعي أن يكون الحوريون الهدف التالي للملك الحثي مورشيلي الأول.

بعد احتلال حلب دمر الحثيون « كل مدن الحوريين » . هكذا يرد في أحد النصوص الحثية . لكن من غير الواضح ما إذا كان المقصود بذلك المنطقة المحيطة بحلب أو مدناً واقعةً شرق الفرات .

مع ذلك لا يمكن الكلام عن اخضاع الحوريين . لكن من المحتمل أن مورشيلي الأول اجتاز الفرات ليؤمن الجناح الأيسر لحملته العسكرية إلى بابل في عام ١٥٩٥ ، وبالتالي اصطدم بقوى حورية كانت تسيطر على تلك المنطقة .

شهدت الامبراطورية الحثية في العقود التالية صراعاً على السلطة أدى بالنتيجة إلى ضعف السياسة الخارجية وتقلص مناطق النفوذ الحثية . أما حلب فقد استقلت من جديد ، وانفصلت منطقة كيزوواتنا Kizzuwatra (كيليكية) أيضاً عن الامبراطورية الحثية .

وبينما كانت هذه الأحداث تتعاقب في آسية الصغرى وشمال سورية حدثت في وادي النيل تطورات هامة . ففي مصر استطاعت أسرة حاكمة في طيبة طرد الهكسوس وتوحيد مصر في دولة واحدة . وبعد فترة قصيرة من الاستقرار تابع فراعنة الدولة الحديثة جهودهم للسيطرة على البلاد الواقعة إلى الشمال لمراقبة الطرق التجارية والحصول على المنتجات المختلفة .

قام تحوتموس الأول Thutmosis I (١٤٩٧ — ١٤٨٢) باحتلال فلسطين . واصطدم في حملات لاحقة مع عدو يسكن في أرض سماها المصريون فيما بعد بالكلمة السامية « نهارينا Naharina » ، في العهد القديم أرام نَهارَيم Aram Naharayim ، وتعني أرض النهرين ، أي الأرض الواقعة عند قوس الفرات في شمال سورية . وربما كانت تمتد إلى العاصي وتذكر لأول مرة وثيقة تعود على الأغلب إلى عهد تحوتموس الأول الاسم الذي كان يستعمله السكان المحليون وهو مايتاني Maittani ، وفيما بعد ميتاني Mittani . معنى هذا الاسم ما يزال حتى الآن غير معروف .

كانت ميتاني تشمل على الأقل طور عابدين وربما السهول الواقعة حول ديار بكر ، وتمتد في الشمال حتى بلاد إشووا Išuwa (حالياً منطقة بحيرة كيبان في تركيا) وألشي Alše شمال نهر دجلة . إلى جانب التسميات السابقة (حوريين ، ميتاني) تذكر وثائق عديدة من نوزي وألالاخ وحاتوشا وأوجاريت وبلاد الرافدين ومراسلات تل العمارنة « خانيجالبات Hannigalbat » للدلالة على ميتاني بعد أن تقلصت وأضحت مملكة صغيرة .

وهذا يدل على أن التعبيرين كانا يستعملان بمعنى مترادف ، ولكن خانيجالبات قد تكون هي التسمية الأقدم للأرض والدولة .

٣ ــ دور الميتانيين وسياستهم في سورية

في عام ١٤٧٠ وسعت مملكة ميتاني منطقة نفوذها نحو الغرب باتجاه سواحل البحر المتوسط واحتلت مملكة حلب التي كانت قد استعادت استقلالها بعد احتلال الملك الحثي مورشيلي الأول لها ، وحُكمت من قبل ملوكها شارا ــ إلى Šarra-el وأبّا ــ إل Abba-el وإليم ــ إلمّا Ilimilimma ، وبسطت نفوذها على الدويلات الصغيرة الواقعة إلى الغرب منها مثل نِيا Niya وأماؤ Ama'u وموكيش Mukiš . وقد حدث تمرد في حلب ، كان بالتأكيد بدعم من ميتاني ، أجبر **إدريمي** Idrimi بن إليم ــ إليمّا آخر ملوك حلب المستقلين على الفرار مع إخوته إلى مدينة إيمار Emar (مسكنة حالياً) على الفرات .

وهكذا استطاع الملك الحوري باراتارنا Parrattarna من نفوذ مملكته حتى سواحل البحر المتوسط .

فيما بعد حدثت مصالحة بين باراتارنا وإدريمي ونُصِّبَ إدريمي ملكاً على ألالاخ . وشملت منطقة نفوذه عدا موكيش نِيا وأماؤ بينما بقيت حلب خاضعة لملك ميتاني .

يصف إدريمي كل هذه الأحداث في سيرته الذاتية[٢] التي كتبها على تمثال له اكتشف في مدينة ألالاخ عاصمته . ويذكر إدريمي باراتارنا في هذه السيرة كملك للحوريين ويصفه بالملك القوي . وهذا يدل على أن مملكة ميتاني كانت تتمتع بقوة كبيرة في ذلك الوقت .

كان أدريمي خاضعاً لملك ميتاني وعليه دفع جزية له ، ولكنه احتفظ بحق عقد معاهدات مع الملوك الآخرين ، وذلك في إطار خضوعه لملك ميتاني وبما يتناسب مع مصلحة امبراطورية ميتاني . وهذا يتضح من خلال معاهدة عقدها إدريمي مع ملك كيزوواتنا ، وذلك بعد أن خاض ضده حرباً مظفرة .

تغير الوضع في سورية فيما بعد نتيجة سياسة التوسع التي اتبعها الفراعنة المصريون في سورية . ففي عام ١٤٥٨ ق . م حقق تحوتموس الثالث نصراً عند مجدّو (موقع تل المتسلم في شمال فلسطين) ضد تحالف سوري تحت قيادة ملك قادش . ومن المحتمل أن تكون امبراطورية ميتاني قد دعمت هذا التحالف لايقاف التوسع المصري في سورية .

(٢) انظر حول نقش إدريمي عيد مرعي ، دراسات تاريخية ، العددان ٢٩ و ٣٠ ١٩٨٨ ص١٠٣ ــ ١٢٦ .

وفي حملةٍ تالية استطاع تحوتموس الثالث احتلال قلعة قادش ووجه حملاته التالية ضد منطقة نفوذ ميتاني غرب الفرات .

وفي عام ١٤٤٧ وصل تحوتموس الثالث إلى منطقة كركميش وعبر الفرات دون أن نسمع عن أية إجراءات ميتانية ضده . ولكن على الرغم من انتصاراته العسكرية لم يستطع الفرعون المصري أن يحول سورية إلى جزء مستقر من امبراطوريته . وكانت حملته الأخيرة عام ١٤٣٨ موجهة ضد تمرد مدن تونيب Tunip وقادش والذي دُعِمَ من قبل مملكة ميتاني .

يعد ترتيب ملوك ميتاني وتحديد سنوات حكمهم عملية صعبة . ولكن أهم هؤلاء الملوك كان على الأرجح ساوشتَتار Saušatar الذي حكم بعد حملات تحوتموس الثالث ضد سورية . وقد تمكن هذا الملك من تقوية مملكة ميتاني إلى درجة كبيرة . احتل أشور التي كانت قد دخلت مسبقاً في تحالف مع مصر ، وراقب موكيش وأوجاريت المدينة التجارية المهمة على ساحل البحر المتوسط .

واعترفت مملكة كيزوواتنا الواقعة في كيليكية بسيادته ، ودخلت حلب تحت سلطته . وفي الشرق كان ملك أرابخا تابعاً له . وهكذا فإن منطقة نفوذ مملكة ميتاني امتد في عهده من جبال زاغروس في الشرق وحتى سواحل البحر المتوسط في الغرب .

وكان مركز ساوشتَتار مدينة واشوكاني Waššukkani التي كانت عاصمة (امبراطورية) ميتاني .

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الآثار فإنهم لم يوفقوا حتى الآن في تحديد موقع هذه المدينة بدقة . ولكن من المعتقد أن واشوكاني ترقد تحت (تل الفخيرية) بالقرب من رأس العين . لذلك فإن معظم معلوماتنا عن تاريخ مملكة ميتاني نستقيه من مراسلات تل العمارنة ومن مصادر حثية .

من الجدير بالذكر أنه كان للعناصر الهندو أوربية دور بارز في تاريخ امبراطورية ميتاني . وقد احتلت هذه الجماعات الهندو أوربية بالحوريين منذ عصر مبكر وأسهمت فيما بعد في إنشاء دولة ميتاني وجعلهم مقدرتهم العسكرية ، وبخاصة استخدام المركبات الحربية التي تجرها الخيول ، يصلون إلى مراكز قيادية هامة . لذلك فإن تأثيرهم يبدو واضحاً في مجالات مختلفة .

كان ملوك امبراطورية ميتاني يحملون جميعاً أسماءً غير حورية ، وكان بعضهم يحمل أسماءً هندو أوربية . كذلك فإن اللغة الحورية تتضمن العديد من الكلمات الهندو أوربية .

توجد في نصوص نوزي اشارات عديدة إلى الخيول، وهي بالتأكيد هندو أوربية. كان لدى الآريين خبرة كبيرة في تربية الخيول وتدريبها، وكان الحصول على الخيول والعربات الحربية واقتناؤها عملية مكلفة جداً، لذلك اقتصر ذلك على طبقة غنية كانت تعرف من خلال ذلك في أرابخا. وكان أتباعها يُسَمون هناك (بالأكادية) راكب نَركبتي rakib narkabti (سائق المركبة الحربية أو راكبها)، وكانوا يشكلون النخبة العسكرية. وكان يطلق عليهم في ميتاني وسورية وفلسطين اسم مارياني/نا mariyanni/na، وهو تعبير يتصل على ما يبدو بالكلمة الهندية القديمة ماريا marya: شاب وتحولت هذه النخبة العسكرية عبر تاريخ ميتاني إلى طبقة من النبلاء بالوراثة.

استمر الصراع ما بين مملكة ميتاني ومصر من أجل السيطرة على سورية حتى عهد تحوتموس الرابع (١٤٠٠ ــ ١٣٩٠) الذي خلف لنا خبراً عن حملة له ضد نَهارينا أي ميتاني. بيد أن تغييراً جذرياً طرأ على العلاقات ما بين القوتين الكبيرتين في عهد هذا الفرعون. بعد أن كانت هناك اتصالات دبلوماسية منذ عهد أمنحوتب الثاني. (١٤٢٨ ــ ١٤٠٠) عُـقِـدَ اتفاق للسلام خُتم بزواج ربط بين العائلتين الحاكمتين. فملك ميتاني أرتاتاما الأول Artatama I، ربما ابن ساوشتّتار، أرسل إلى الفرعون المصري ابنته لتكون زوجة له.

وضع الاتفاق بين القوتين أسساً للعلاقات بينهما وحدد مناطق نفوذهما. وصل النفوذ المصري على الساحل السوري إلى أُجاريت، بينما كانت الحدود في الداخل تمر في سهول حمص. وكانت مدينتا تونيب وقطْنة (المشرفة حالياً) تابعتين لمملكة ميتاني، أمّا أمورو وقادش فكانتا تحت النفوذ المصري.

استمرت العلاقات الطيبة ما بين الامبراطوريتين حتى عهد شوتارنا الثاني Ŝuttarna II، ابن أرتاتاما الأول وخليفته الذي دخل أيضاً في علاقة مصاهرة مع الفرعون المصري أمنحوتب الثالث.

شهدت مملكة ميتاني بعد موت شوتارنا الثاني صراعاً مريراً على السلطة. تسلسل الأحداث بتفاصيلها غير واضح ولكن هناك بعض الحقائق الثابتة. اغتيل وريث العرش أرتاشومارا Artaŝumara.

ونصب القاتل الذي على ما يبدو لم يكن ينتسب للعائلة المالكة ابن شوتارنا الثاني المسمى توشراتا Tuŝratta ملكاً شرعياً.

وانقطعت العلاقات مع مصر خلال هذه الفترة ولم تعد هذه العلاقات إلا بعد أن استطاع توشراتا أن يقتل قاتل أخيه ويؤكد شرعية حكمه.

لدينا معلومات عن حكم توشراتا من مراسلات تل العمارنة ومن تقرير عن أعمال الملك الحثي شوبيلوليوما Šuppiluliuma .

يصف توشراتا أولى رسائله إلى الفرعون المصري ليس فقط الظروف التي مر بها حتى استلامه السلطة ، ولكنه يتحدث أيضاً عن هجوم حثي على مقاطعة ميتانية . ولتأكيد صدق ما يقول أرسل إلى الفرعون المصري جزءاً من الغنيمة التي غنمها من الحثيين .

حدث هذا الهجوم الحثي على الامبراطورية الميتانية في العقد السادس من القرن الرابع عشر قبل الميلاد في عهد الملك شوبيلوليوما ، الذي كان منهمكاً بتوطيد أركان حكمه ضد الهجمات الخارجية من الشمال (الكاشكيون) .

يبين لنا حادث آخر مهم على الحدود مع الامبراطورية الحثية أن ميتاني وصلت إلى درجة كبيرة من القوة . وكانت مملكة كيزوواتنا في كيليكية في النصف الثاني . يظهر ساوشتّار ملك ميتاني القوي في إحدى الوثائق حَكماً في خلاف ما بين نيقميبا Niqmepa ملك ألالاخ وشونا شّورا Šunaššura ملك كيزوواتنا .

في النصف الأول من القرن الرابع عشر تخلص ملك كيزوواتنا من تبعيته لمملكة ميتاني وعقد اتفاقية مع الحثيين . سيطر الحثيون فيما بعد على كيزوواتنا وضموها إلى امبراطوريتهم . ولكن هذا الضم لم يؤد إلى نتائج أساسية تؤثر في وجود امبراطورية ميتاني .

تتحدث المراسلات ما بين توشراتا ملك ميتاني والفرعون المصري أمنحوتب الثالث عن مشروع زواج الفرعون المصري من إحدى بنات توشراتا . واستمرت المحادثات حول هذا الموضوع ، وبشكل خاص حول المهر ، عدة سنوات .

أمكن من رسالة من توشراتا إلى الفرعون والتي تعد من أهم الوثائق الحورية المسماة « رسالة ميتاني » معرفة الكثير عن **اللغة الحورية** .

ربما أرسلت هذه الرسالة مع الأميرة تاتو خيبا Tatu-hepa (نفرتيتي) في رحلتها إلى الفرعون المصري . وفيما يلي مقاطع من الرسالة التي تمثل نموذجاً من المراسلات الدبلوماسية في ذلك العصر :
« إلى نيموريًا Nimmuriya » (المقصود أمنحوتب الثالث) ملك مصر ، أخي ، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول : هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني ، عمك الذي يحبك ، أخوك . حالي

جيدة . أرجو أن تكون حالك جيدة ، أرجو أن تكون أحوال زوج ابنتي ، وأحوال نسائك ، أولادك ، أعيانك ، خيولك ، عربات قتالك ، قواتك ، بلادك وممتلكاتك بخير .

أخي تمنى زوجة له وها أنذا أرسلها إليه . وهي قد ذهبت إلى أخي . عندما تأتي سيراها أخي وسيرى مهرها . عندما تصل زوجة أخي سيراها وأرجو أن يجمع كل بلده والبلدان الأخرى وأن يكون النبلاء السفراء حاضرين .

أرجو أن يجعلني أخي غنياً في عيون سكان دولتي . وأرجو ألا يُحزن أخي قلبي . لقد تمنيت من أخي تمثالاً من الذهب لابنتي . أنا أعرف بأن أخي يحبني كثيراً وأعرف أيضاً بأن الذهب موجود بكثرة في بلد أخي . كما أريد من أخي تمثالاً من العاج .

في بلادنا يسود السلاح . الآن لا يوجد عدو لأخي . ولكن إذا هاجم عدو أخي ودخل بلاده فعلى أخي أن يعلمني وستكون بلاد الحوريين (حورو) بأسلحتها وجيوشها تحت تصرفه . من ناحية أخرى إذا وجد عدو ضدي فسأخبر أخي وستكون مصر وجيوشها وأسلحتها إلى جانبي .... » .

هذه الرسالة تبين لنا بوضوح العلاقات القوية التي كانت قائمة ما بين مملكة ميتاني من جهة ومصر من جهة أخرى في أيام الأسرة الثامنة عشرة .

وبعد بضع سنوات من زواج تاتو خيبا توفي الفرعون المصري أمنحوتب الثالث وخلفه على العرش أمنحوتب الرابع (إخناتون) . وفي عهد هذا الفرعون ساءت العلاقات ما بين ميتاني ومصر . وربما كان السبب في ذلك هو ضعف موقف الحوريين أمام الحثيين الذين كانت قوتهم في تصاعد مستمر . يضاف إلى ذلك أن أمنحوتب الرابع كان منشغلاً بالاصلاح الديني في مصر وبفكرة الإلّه الواحد .

٤ ــ ضعف امبراطورية ميتاني وانهيارها : العلاقات الميتانية ــ الحثية

طرأت بعد ذلك مستجدات جديدة على مسرح الأحداث في الامبراطورية الحثية . ففي بلاد حاتي استطاع شوبيلوليوما تثبيت دعائم السلطة لصالحه وحاول الاستفادة من الصراع القائم على السلطة في مملكة ميتاني .

وتمكنت أشور من الخلاص من التبعية لمملكة ميتاني . يتضح ذلك من رسالة الملك الأشوري أشور أباليط Aŝŝur Uballit إلى الفرعون المصري امنحوتب الرابع وفيها يضع نفسه في مرتبة

مساوية لملك ميتاني . وقد رّحب امنحوتب الرابع بخلاص أشور من التبعية لميتاني ، ربما لأن علاقاته مع ميتاني أصابها بعض البرود .

وقد حاول ملك بابل الاستفادة من ضعف مملكة ميتاني وطالب ببعض المكتسبات له في أشور وفي أرابخا . وفي عام ١٣٤٠ زحف البابليون على أرابخا وخربوا الأراضي حتى الزاب الأسفل واحتلوا مقاطعات من أشور . ثم شكلت أشور مع منطقة ألشي الواقعة في شمال ميتاني جبهة شمالية ــــ شرقية ضد مملكة ميتاني وملكها توشراتا ، وتحالفت هذه الجبهة مع الملك الحثي شوبيلوليوما . وقد أدت هذه التحالفات في النهاية إلى ضرب ميتاني وانهيارها بشكل سريع .

ثم عبر شوبيلوليوما بجيشه الفرات واحتل إشووا Išuwa حتى حدود ألشي ، ومن ثم توجه نحو الجنوب ضد قلب امبراطورية ميتاني .

تهرب توشراتا ملك ميتاني من الاصطدام مع شوبيلوليوما ، لذلك توجه شوبيلوليوما نحو الغرب وعبر الفرات واحتل جميع المناطق التابعة لميتاني ما بين الفرات والبحر المتوسط عدا مدينة كركميش . بعد ذلك تابع زحفه نحو الجنوب حتى لبنان . وبسبب القوة الكبيرة التي مثلها شوبيلوليوما وعدم اهتمام الفرعون المصري بما يجري اعترف ملك أمورو بسلطة شوبيلوليوما .

ترك شوبيلوليوما مهمة إخضاع بقية المناطق السورية لأحد قادته العسكريين المسمى لوباكي Lupakki ولابنه تيليبينو Telipinu . ولكن هجوماً مضاداً للحوريين والمصريين جعل شوبيلوليوما يعود مرة أخرى إلى سورية . وبينما كان هو يحاصر كركميش تغلب قائده لوباكي على فرق مصرية حاولت استعادة قادش من الحثيين . أمّا كركميش التي كانت تمثل موقعاً استراتيجياً مهماً على الفرات فسقطت فيما بعد بأيدي الفرق الحثية ، ونصب شوبيلوليوما ابنه بياشيلي Piyaššili ملكاً عليها ، بينما وضع ابنه الآخر تيليبينو ملكاً على حلب .

بعد خسارة الأجزاء الواقعة غرب الفرات من مملكة ميتاني اغتيل الملك توشراتا من قبل أحد أولاده ، الذي لم يكن في موقع يمكنه من اعادة استقلال ميتاني . على العكس توصل شخص آخر يدعى شوتارنا الثالث ، بمساعدة من أشور وألشي ، إلى أن يستولي على ميتاني وعاصمتها واشوكاني فذهبت كنوز القصر إلى أشور وسلم عدد كبير من مقاتلي العربات الحربية إلى ألشي حيث قُتلوا .

جاء رد الفعل الحثي على تلك الأحداث بعد أن قضى شوبيلوليوما على حركة تمرد في شمال الأناضول . وحيث أن النفوذ الأشوري امتد حتى قوس الفرات فلم يتباطأ الملك الحثي في أول فرصة مناسبة من تبديل التحالف ليخرج ميتاني من دائرة النفوذ الأشوري وليدخلها ضمن النفوذ الحثي .

هذه الفرصة سنحت له عندما حدث تمرد في ميتاني لابن آخر من أبناء توشراتا يدعى شاتي وازا Šattiwaza الذي لجأ إلى شوبيلوليوما الذي شده إليه بتزويجه من إحدى بناته وباعطائه مساعدة عسكرية من قبل ابنه الحاكم في كركميش . وبهذه المساعدة استطاع شاتي وازا إعادة فتح المدن الهامة من ميتاني فيها العاصمة واشوكاني .

ثبت هذا الوضع الجديد بعقد اتفاقية ما بين شوبيلوليوما وشاتي وازا والتي تعترف بامبراطورية ميتاني وعلى رأسها شاتي وازا ولكنها خاضعة للسيادة الحثية .

ولكن هذا الوضع تغير بعد انتشار وباء في الأناضول وقيام حركات تمرد وموت شوبيلوليوما وخليفته أرنوواندا Arnuwanda .

أصبحت ميتاني في بداية عهد الملك الحثي مورشيلي الثاني Murŝili II (١٣٢٥) دولة مستقلة عن الحثيين . وهنا لا يمكن الاعتماد على المصادر الحثية لمعرفة تاريخ ميتاني في الفترات اللاحقة ونكتسب بعض المعلومات عن المصادر الأشورية لاهتمام الديوان الأشوري بما كان يجري في الدولة المجاورة .

٥ ــ الميتانيـون والأشوريـون

من خلال إحدى وثائق أدد نيراري الأول Adad-nérâri I (١٢٩٥ ــ ١٢٦٤) نعرف أن ملكاً يدعى شاتو أرا Šattuara I حكم في **خانيجالبات** (ميتاني) في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ومن المحتمل أنه كان خليفة شاتي وازا .

خلف شاتو أرا الأول ابنه واساشاتا Wasaŝatta الذي حاول الاستعانة بالحثيين ضد تهديدات الأشوريين . لكن الحثيين لم يتمكنوا من مساعدته بسبب صراعهم مع مصر الذي وصل ذروته في معركة قادش عام ١٢٧٥ . وقد استطاع الأشوريون مد نفوذهم على حساب مملكة ميتاني إلى ما بعد الخابور وسيطروا على أجزاء من منطقة طور عابدين .

ويصف لنا نص من عهد أدد نيراري الأول أحداث تلك الفترة ما بين أشور وميتاني . أما واساشاتا فقد استطاع إعادة نفوذه وخاصة بعد أن عقد الحثيون اتفاقاً للسلام مع مصر عام ١٢٦٧ وكرسوا جهودهم للحد من التوسع الأشوري . ولكن على الرغم من ذلك بقيت المناطق الخصبة الواقعة شرقي مثلث الخابور ، والتي كانت سابقاً المركز الحضاري والاقتصادي لامبراطورية ميتاني ، تحت النفوذ الأشوري . ووجب على الملك الحثي الاعتراف بالقوة الجديدة لأشور .

وكان سقوط ما تبقى من مملكة ميتاني في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد حين انهارت الامبراطورية الحثية نتيجة غزوات شعوب البحر وبدأت تحركات كبيرة لشعوب عديدة في الأناضول.

وتذكر وثائق ملوك الدولة الأشورية الحديثة خانيجالبات فقط كاسم لمنطقة جغرافية تشمل طور عابدين وتمتد حتى منطقة حران، حيث كانت تسود قبائل آرامية بشرياً وسياسياً(٣).

٣ ــ الكاشيــون فــي بــابــل

لم يكن لبابل من الطابع الكاشي سوى الاسم. وقد امتد العصر الكاشي قرابة أربعة قرون (١٥٧٠ــ١١٥٨). وكان الكاشيون من شعوب الشرق الجبلية ويبدو من دراسة أسماء الأعلام وأسماء الآلهة أنهم كانوا ذوي ثقافة لغوية آرية (هندو ــ أوربية). وقد عاش الكاشيون من قبل في بابل زمناً طويلاً بعد أن تغلغلوا سلمياً في المجتمع البابلي. ولكنهم اقتنصوا فرصة الهجوم الحثي (نحو ١٥٣٠) فاستولوا على السلطة الملكية واحتفظوا بها بعد أن أسسوا أسرة مالكة حتى أواسط القرن الثاني عشر. ولئن تغلب الكاشيون على بابل فإن حضارتهم كانت أدنى كثيراً من حضارة بلاد الرافدين التي فرضوا سيطرتهم عليها ولكنهم كانوا على درجة من التبصر والحكمة مما جعلهم يتبنون الحضارة الرافدية بمصدريها السومري ــ الأكّدي. فعُنوا كثيراً بالتراث الثقافي وتبنوا اللغة البابلية التي بقيت لغة الادارة والدواوين واحتفظوا بالآلهة والطقوس والاحتفالات الدينية البابلية. وقام الكتاب والنسّاخون بنقل أعمال الأجيال السابقة ونسخها واختاروا منها مجموعات ومصنفات أضحت منذ ذلك الوقت المرجع المعتمد عند دراسة الأدب البابلي. وتتألف هذه الأعمال من نصوص طقسية وتنبؤات وتعاويذ ومقالات في الطب وجداول معجمية اتخذت صيغاً مقننة ومعتمدة من هيئات الكتّاب والكهّان المتفرغين للنسخ والتصنيف والتأليف، وكأنهم كانوا يشكلون أولى الأكاديميات والمجامع اللغوية في التاريخ. وإننا لنتلمس في الأوساط البابلية في تلك الفترة موقفاً وجدانياً يدل على انتماء فكري ثقافي في خضم الصدام البشري والسكاني والحضاري الذي كانت تعاني منه المنطقة آنذاك. وقد كانت الرغبة واضحة في العودة إلى الأصول ولكن كانت هناك بالوقت نفسه حركة تطور واضحة. فقد أعيد النظر تعديلاً وصياغة في أهم عملين من الأعمال الأدبية الميثولوجية

(٣) بعض المصادر والمراجع عن الحوريين:

Edzard, D.O. - A.Kammenhüber, Hurriter, Hurritisch in Reallexikon der Assyriologie IV (1972-1975) S. 507-514;

Weiher, E. von, Hanigalbat in Reallck. der Assyr. IV, (1972-1975) S. 105-107;

Wilhelm, G, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter, Darmstadt, 1982.

أنتجتهما الحضارة الرافدية وهما : ملحمة الخلق ، وملحمة جلجامش . واستطاعت اللغة البابلية تأدية دور أكبر بقيامها بدور الوسيط الثقافي والحضاري وانتقل كثير من مفرداتها إلى لغات الشعوب الأخرى .

أما في الميدان الاقتصادي ــ الاجتماعي فإن الطابع العام للدولة البابلية في العصر الكاشي هو الطابع الإقطاعي . وهو طابع العصر آنذاك وكان واضحاً في الدولتين الحثية والميتانية . والمهم هو أن التحول نحو هذا الاتجاه بدأ منذ عصر الأسرة البابلية الأولى فالإقطاعات الشخصية غير القابلة للتوريث أصلاً بدأت تتحول إلى إقطاعات موروثة ولكن بقي حملة الألقاب المستفيدون من النظام مسؤولين عن تنفيذ الالتزامات والخدمات المفروضة تجاه الملك . وكانت العلاقات الاجتماعية والمالية بين المستفيدين قوية ومغرية بالعمل لتكوين الثروات الكبيرة . وكان من الممكن الحصول على إعفاءات تزيد من تراكم الثروات . وبالتالي أن يحل المالك محل الدولة في التصرف وجمع الأرباح لحسابه . وهكذا ارتبط المزارع الصغير بسيّد كبير وتكونت إلى جانب الدولة طبقة من الأغنياء الأقوياء المالكين أخذت تنافس الدولة وتقاسمها على مواردها . والنتيجة هي تصاعد نفوذ أسرات كبيرة أرستقراطية أخذت تستمد قوتها من وضعها الاقتصادي الجديد . وقد بلغ هذا التغيير أقصى درجة من الحدّة في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة الهجمات والغزوات الخارجية على المنطقة ، وحين كانت السلطة المركزية القوية والقادرة ضرورية جداً . وهكذا حين اجتاحت المنطقة حركات الشعوب في شرقي البحر المتوسط وفي كل الشرق الأدنى القديم لم تكن بابل هي التي تلقت النتائج الأولى للغزو . فقد تلقت البلاد المجاورة أشد الضربات فانهارت الامبراطورية الحثية واجتاحت شعوب البحر الساحل السوري ــ الفلسطيني ودلتا النيل وبرقة في ليبية بينما عمّ الانتشار الآرامي كل سورية وبلاد الرافدين .

وهكذا يتضح أن بلاد الرافدين التي كانت مركز الثقل السياسي قروناً طويلة في عصور أكد وأور الثالثة وحمورابي لم يكن بقدرتها أن تكون العامل المركزي المؤثر في سياسة المشرق العربي القديم بعد ظهور القوى الدولية الأخرى خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق . م . ولقد بقي دورها ولا شك مرعياً إلّا أنه حدث اختلال في التوازن بين دور بابل الدولي السابق ودورها الحضاري الذي بقي متفوقاً حتى العصر الهلنستي .

٤ ــ الحثيون والامبراطورية الحثية

ترجع أصول الحثيين إلى شعوب هندو أوربية كانت انطلقت منذ أواخر الألف الثالث ق . م من السواحل الشمالية للبحر الأسود نحو البلقان والأناضول . وقد استقرت بعض هذه القبائل ما بين

٢٣٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق . م في وسط الهضبة الأناضولية شرقي نهر الهاليس (قيزيل إرمق حالياً) . وقد أطلق اسم الحثيين على هذه الشعوب وهو الاسم الذي كان يطلق أصلاً على الشعوب والقبائل المحلية المقيمة في الأناضول قبل قدوم الأوربيين وكانوا يدعون بالحاتيين وبلادهم ببلاد حاتي . ولا يعرف شيء عن لغتهم التي بقي بعض شواهد قليلة منها في اللغة الحثية التي تكلمها القادمون . وينبغي البحث عن حضارة الحاتيين في آثار عصر البرونز القديم في مواقع ألجة هويوك وكانيش وغيرهما . ويظن أن الحثيين الذين قدموا إلى الأناضول قد اكتسبوا كثيراً من خبرات السكان الأصليين في التعدين وتبنوا بعض معتقداتهم الدينية .

إننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن هذه المراحل الأولى من تاريخ الحثيين . ولكن تاريخ هذا الشعب بدأ يتضح بصورة أفضل بعد أن أخذ يحتل موقعه بين القوى الجديدة منذ القرن السابع عشر ق . م عند تأسيس المملكة الحثية القديمة وبخاصة في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م. ويمكن تتبع بدايات الدولة القديمة من النصوص الأكدية والأشورية القديمة ثم من الوثائق الحثية نفسها بعد الكشف عنها في العاصمة حاتوشا وبعد تفسيرها على يدي العالم اللغوي التشيكي هروزني (١٩١٧) . وكان الحثيون يدعون لغتهم « ناشيلي » أي لغة نيشا (Nesa) ، وهي مدينة لمّا يتم التعرف عليها بعد . ويظن بعضهم أنها ربما كانت مدينة كانيش . وهناك احتمال بأن تكون في موقع قريب من نيسه على نهر قيزيل إرمق . ويستنتج من الشواهد المتوافرة أن أسرة حاكمة بدأت تتكون نحو القرن العشرين ق . م في كوسار . ومن المؤكد أن أول اسم معروف تاريخياً من ملوك هذه الأسرة هولابارنا . وقد وسع ابنه حاتوشيلي مملكته إلى شمال سورية . وقاد الابن المتبنّى لهذا الأخير وهو مورشيليش (مورسيل) حملة صاعقة على سورية وبلاد الرافدين وصل فيها إلى بابل نحو ١٥٩٥ . ويعد دخول الجيش الحثي إلى بابل في نحو ذلك العام بداية عصر من القلاقل والاضطرابات زعزعت أركان بلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم وأدت إلى تغييرات جذرية فيه .

كانت الامبراطورية الحثية التي تكونت بعد ذلك دولة إقطاعية تسودها روح كهنوتية وعسكرية ، وللنبلاء فيها مكانة محترمة جداً إلى جانب الملك وأسرته الحاكمة . ورغم محاولة الملك تلبينو الحد من سيطرة هذه الطبقة باستصدار مرسوم نظم فيه وراثة العرش (نحو ١٥٢٥) ، فإن سلطتها بقيت مع ذلك كبيرة ومؤثرة .

وكان النبلاء هم الذين يتولون الإدارة في الولايات ويتسلمون المسؤوليات في البلاد المفتوحة كإقطاعات مثل حلب وكركميش . أما الملك فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيوش وبترؤس الاحتفالات الدينية . ومن الصعب التعرف على أحوال الطبقات الدنيا ، لأن الوثائق التي عثر عليها في حاتوشا

هي من طبيعة سياسية ــ إدارية ودينية . ومع ذلك فإن غالبية المجتمع الحثي تتكون من الفلاحين والصنّاع وللتجار نشاط خارجي أيضاً كما توضح لنا نصوص أُجاريت . ولكن عدم توافر نصوص اقتصادية في المحفوظات الحثية لا يتيح لنا الفرصة الكافية للتعرف على التركيب الاقتصادي للبلاد . وإننا نتعرف على بعض جوانب النظام الاقتصادي والحياة الاقتصادية في الدولة الحثية مما نستطيع تكوينه من معلومات من حياة الطبقة الحاكمة ومن سياسة الملوك الحثيين والوثائق التي خلفوها وراءهم .

وبعد فترة مجهولة سادت فيها اضطرابات متصلة صعد العرش تود خاليا (تودااليا) الثاني (نحو ١٤٦٠) وهو مؤسس الامبراطورية الحثية الجديدة . وكان للإمبراطورية الحثية نشاط كبير على المسرح الدولي في المنطقة فقد تولى الحكم فيها شوبيلوليوما ، (١٣٨٥) الذي اشتهر بفعاليته وحيويته ومقدرته الفائقة في السياسة والحرب وما أن تحرك هذا العاهل في ميدان الأحداث حتى اختل ميزان القوى الذي كانت موازينه قد ضبطت بدقة بسلسلة من الاتفاقات والمعاهدات الدولية بين الامبراطورية الحثية والدول المجاورة وبخاصة سورية ومصر . وقد اتجه العاهل الحثي إلى وسط سورية واحتل قطنة (تل المشرفة) القريبة من حماه وحمص (قادش) وسيطر على معظم وادي العاصي تاركاً وراءه خطوط الدفاع الميتانية مهلهلة لا تقوى على أية حركة . أما مصر التي كان يحكمها أمنحوتب الثالث فلم تستطع بدورها القيام بأي عمل لمواجهة الموقف بينما تضعضعت مواقف حلفائها من الأمراء السوريين حيالها بصورة واضحة .

وبعد سنوات قليلة قتل ملك ميتاني توشراتا في ظروف داخلية وقعت في بلاده فاغتنم الفرصة ملك أشور (أشور أُباليط الأول ١٣٦٥ ــ ١٣٣٠) لكي يلغي ارتباطه بالتبعية لملك ميتاني وليقدم على احتلال جزء من أراضي مملكة ميتاني نفسها في منطقة الجزيرة . أما النتيجة الأخرى لهذا التصرف الأشوري فهو إقدام الامبراطورية الحثية على ضم الجزء الباقي من ميتاني إليها .

وإذا كان من غير الممكن سرد تطور الأحداث بالتفصيل (راجع الفصل السابق) ، فمن المفيد تسجيل أبرز التطورات التي وقعت بعد ذلك :

لقد جوبه التوسع الحثي بتحرك مصري كثيف . وكان على الامبراطورية الحثية أن تتصدى كذلك لأعدائها الكثيرين من شعوب الأناضول أيام مورشيلي الثاني ثم مواتاللي الذي استطاع إيقاف زحف رعمسيس الثاني الفرعون المصري عند قادش على العاصي وسط سورية .

وفي هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر بها المنطقة كانت قوة جديدة في طريقها لاحتلال موقع بارز على مسرح الأحداث هي **أشور** التي تحركت باتجاهين : نحو الفرات غرباً ونحو بابل جنوباً . وقد أضحى هذا التحرك بهذين الاتجاهين سياسة استراتيجية للدولة الأشورية طوال تاريخها .

وفي هذه الأثناء طرأ تغيير جديد على العلاقات الدولية في المشرق القديم لم يسبق له مثيل من قبل ، ذلك أنه بعد ما استنفدت قوى كل من المصريين والحثيين في الحروب الطاحنة المتواصلة طوال قرن انتهى الطرفان إلى قرار حاسم بعقد معاهدة عام (١٢٦٧ ~) تضمنت بنودها إنهاء القتال والتفاهم على بنود توازن دولي جديد يقوم على اقتسام النفوذ بين الجانبين بخط يمتد على الأرجح بين ميناء جيل على المتوسط غرباً والفرات شرقاً وتكون في المناطق الواقعة شمال هذا الخط منطقة نفوذ للامبراطورية الحثية والمنطقة الواقعة جنوبه ضمن نفوذ الفرعون المصري .

وقد جرى هذا الاتفاق الذي يعد الأول من نوعه في تاريخ العلاقات الدولية أيام الفرعون المصري رعمسيس الثاني (١٢٩٠ ـــ ١٢٢٤) ، والملك الحثي حاتوشيلي الثالث (١٢٨٥/٨٠ ـــ ١٢٦٠/٥٥) .

كان المستفيد الرئيس من هذه الظروف الدولية الجديدة هو ملك أشور شلما نصر الأول (١٢٧٤ ـــ ١٢٤٥) الذي وصلت قواته إلى كركميش ، بينما توصل ابنه توكولتي نينورتا الأول الذي حاول ضم بابل الكاشية إلى مملكته إلى بسط سيطرته موقتاً على كل بلاد الرافدين . إلّا أن هذه المحاولة لم تستمر طويلاً . فقد أعقب ذلك نهضة أدبية وفنية في بابل وثورة أدّت إلى إخراج الأشوريين منها بل تطورت حتى تمكنت بابل من وضع أشور نفسها تحت حمايتها زمن الملك البابلي أدد شوما أوصّر (١٢١٨ ـــ ١١٨٩) . ومهما يكن لم تكن في الشرق الأدنى في مطلع القرن الثاني عشر ق . م سوى قوتين رئيستين هما مصر وبابل أمّا القوى الأخرى فلم يكن يحسب لها حساب سوى المملكة الحثية التي كانت واسعة الأرجاء ولكنها كانت تعاني من أخطار شديدة بدأت تحوم في الحوض الشرقي للمتوسط بتحرك الشعوب المعروفة باسم « شعوب البحر »(٤) .

٥ ــ « غزوات شعوب البحر »

كانت سواحل أوربة الواقعة على البحر المتوسط تمور بحركات الشعوب التي عرفت في الوثائق

---

(٤) حول الحثيين وشعوب آسية الصغرى : O.R. Gurney, the Hittites, 1952/1969: in J. Bottéro, E. Cassin, J. Vercoutter in Fisder Weltgesdichte Band 3 (1966): H. Otten Hethiter-- 102-136.

المصرية باسم « شعوب البحر » إننا لا نعرف تفاصيل هذه الحركة بشكل واضح . ولكننا نعرف تحركها من آثارها في المنطقة : ففي ظروف هذه التحركات إنهارت طروادة ، ثم الامبراطورية الحثية التي دمرت عاصمتها حاتوشا . ثم جاء دور كركميش وبعدها مدن الساحل السوري وبخاصة أجاريت . ولكن الموجة الأخيرة لهذه (الغزوات) توقفت عند الحدود المصرية عندما نجح الفرعون رعمسيس الثالث في إقامة سد في وجه الغزاة نحو ١١٩٠ .

وحتى ذلك الوقت كانت المناطق الشرقية بعيدة عن الخطر المباشر . إلّا أن هذا لا يعني أنها عاشت آنذاك بسلام ، فقد عاد النزاع لينشب من جديد بين أشور وبابل . ويتناوب فيه التقدم والتراجع بين كلا الطرفين . وبعد إنهاك كل منهما قوى الآخر ، تقدم العيلاميون للإجهاز على بابل . وفي نحو ١١٦٠ سقطت الأسرة الكاشية تحت ضربات الملك العيلامي شوتروك ناخونته الأول وانتهى بذلك عصر من عصور تاريخ بلاد الرافدين ليبدأ عصر جديد آخر بزعامة أسرة حاكمة من إيسن (إيسن الثانية ١١٥٨ ــ ١٠٢٧) التي كان أبرز ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٦ ــ ١١٠٥) الذي حاول إعادة توحيد البلاد التي كانت اجتاحتها وتغلغلت في كل مناطقها القبائل الآرامية القادمة من البوادي العربية .

إن « شعوب البحر » باحتلالها مناطق من سورية وفلسطين عملت على نشر الاضطراب في المناطق التي كانت دائماً مناطق توجه حركات البدو الذين دخلوا آنذاك وعند اضطراب حبل الأمن واختلال التوازن الدولي في مرحلة جديدة من الانتشار والهياج ترك آثاره في تاريخ البلاد في أواخر القرن الثاني عشر وأدّى إلى تشكل بيوت حاكمة آرامية عديدة في سورية وبلاد الرافدين .

الفصـــل العــاشـــر

بلاد المشـرق فـي الألف الأول ق . م
الآراميـون والأشـوريـون
آرام والإمبـراطـوريـة الأشـوريـة

بينما اتجهت تحركات « شعوب البحر » من البحر المتوسط إلى شواطئ بلاد الشرق الأدنى القديم ومست كل البلاد الواقعة على الحوض الشرقي للمتوسط اتجهت حركات الشعوب والقبائل البدوية العربية ـ الآرامية ـ من أطراف الجزيرة العربية وبواديها إلى المناطق الخصبة في الشمال : حوض الرافدين وسورية . وبعد سقوط الامبراطورية الحثية بقيت مملكة **أشور** هي القوة الوحيدة في المنطقة التي كان عليها مجابهة العواصف القاسية التي تعرضت لها المنطقة كلها نتيجة لضغط الشعوب البدوية آرامية اللغة ، بعد تزايد سكاني كبير في البادية العربية وتزايد الحاجة إلى الاستيطان والاستقرار في المناطق الخصبة .

لقد نجم عن هذه التحركات التي تعرضت لها كل منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط وكل مناطق الشرق الأدنى القديم من البحر الأسود إلى وادي النيل ومن كويت وقبرص إلى الخليج تغيرات هامة على الصعيد الدولي رافقها تغيير كبير على الصعيد التقني بالتوسع في استخدام الحديد الذي حملته الشعوب الشمالية ، في السلاح والأدوات . وبذلك انتقلت المنطقة من عصر البرونز إلى عصر الحديد .

ففي الأناضول وآسية الصغرى حلت على أنقاض الدولة الحثية الشعوب الجديدة التي غيرت

مواقعها الأولى القديمة فنزل الكاشكيون من شواطئ البحر الأسود إلى الجنوب، وتوسع الفريجيون والموشكيون من الغرب إلى أواسط الأناضول وإلى جنوبه حتى طوروس.

ولقد تعرضت سورية وفلسطين لضربات هذه الغزوات الكثيفة وعم الخراب والدمار مدن الساحل السوري وفي تلك الظروف كانت نهاية مملكة أجاريت. واستطاعت مصر أن تتفادى خطراً مدمراً بانتصار رعمسيس الثالث (١١٩٠) على هجوم شعوب البحر على الدلتا ثم باحتواء هذا الخطر بتمكين بعض «شعوب البحر» وهم الذين حملوا اسم «الفلست» من الاستقرار في المناطق والمدن الكنعانية الجنوبية[١]: غزة وأسدود وعسقلان.. والذين عرفوا بعدئذ باسم (الفلسطيين) وأطلق اسمهم على أرض **كنعان** فعرفت باسم **فلسطين** منذ العصور الكلاسيكية. وقد اندمج الفلسطيون بالسكان الأصليين من الكنعانيين وتبنوا عقائدهم ثم لغتهم، واختفى دورهم العسكري والسياسي بعد أن انصهروا في المجمّعات المحلية في كنعان ــ فلسطين عند نهاية القرن العاشر ق.م.

إن أبرز ما يميز تاريخ الشرق العربي القديم بدءاً من القرن الثاني عشر هو تأسيس امبراطوريات ودول كبيرة على أنقاض تحركات الشعوب والقبائل وغزواتهم في المنطقة في القرون الأخيرة من الألف الثاني ق.م وأهمها **الآراميون**.

١ ــ التحركات الآرامية في المشرق القديم ونتائجها

تبدو بدايات التاريخ الآرامي غامضة. حتى أن اسمي «آرام» و«آرامي» ما يزالان غير واضحين تماماً ويمكن أن نجد شواهد لغوية على هذا الاسم في نصوص من عصر أور الثالثة، وحتى من عصر نرام سين (الدولة الأكدية). وعلى كل حال ليس من السهل تاريخياً التحدث عن وجود جماعات آرامية متميزة قبل عصر العمارنة كما يرى كل من إ. جلب وكوبّر[٢]. ففي نصوص العمارنة نعثر على اسم مركب أخلامو ــ أرمايا (الأخلامو الآراميون). وربما كان الأخلامو هم أسلاف الآراميين، وأن الآراميين تفرعوا بعدئذ عنهم[٣].

إننا عندما نحاول دراسة تحركات هؤلاء الآراميين في بدايات تاريخهم ينبغي ألّا يغرب عن البال أنها تشكل حلقة أو حلقات تتصل بما قبلها مت تحركات للبدو الذين انطلقوا في الماضي نحو المناطق

(١) ما تزال الآراء مختلفة حول مصدر الفلست. ومن أحدث النظريات المطروحة أن هؤلاء جاؤوا إلى جنوب فلسطين من الشواطئ الشمالية للمتوسط بل من مصر بعد أن اختلطوا بالسكان المحليين في مصر وفلسطين. انظر:

Alessandra Nibbi, the Sea Peoples and Egypt, Park Ridg (N.J) 1975.

(٢) J.R. Kupper, Nomades, p. 112-113.

(٣) محمد حرب فرزات، الآراميون عامل اقتصادي ــ سياسي.. مجلة دراسات تاريخية العددان ١٩، ٢٠ (١٩٨٥).

الخصبة . ويربط ج . بوتشلاتي بين انطلاق الآراميين من البادية العربية السورية ، وبخاصة من المناطق الواقعة بين تدمر وجبل بشري وانطلاق الأموريين قبل ذلك بأكثر من ألف عام نحو شمال سورية وحوض الفرات(٤) من المناطق نفسها .

وقد كانت حركات البدو في المشرق القديم متصلة . وهي تصبح ممكنة عادة عندما يصل الحضر إلى درجة من الضعف تشجع البدو على التحرك باتجاه ومناطق الزراعة والأرياف والمدن العامرة . ومن هنا يمكن أن نفسر استقرار القبائل الآرامية في مناطق عديدة من سورية عامة عند اجتياح سواحل البلاد من قبل البحر وعند انهيار السلطة الحثية في الشمال وانسحاب المصريين من الجنوب . ولكن عند أواخر القرن الثاني عشر وعند منعطف القرن الحادي عشر بلغت الموجات الآرامية درجة من الاتساع وصل إلى حد الهجرة الواسعة الكثيفة . ويفهم من النصوص ومن نتائج بعض الدراسات الحديثة أن العوامل المناخية كانت لها نتائج اقتصادية دفعت بالقبائل الآرامية نحو المناطق الخصبة . ومع ذلك فإن هذه العوامل الطبيعية لم تكن الوحيدة في تفسير التحرك الواسع للآراميين نحو ١٠٨٥ ــ ١٠٨٠ ولا بد من التفكير بوجود تزايد ديموغرافي كبير كان قد تم احتواؤه مدة طويلة ، لكن تفجر بعد ذلك .

وقد اتخذت ضغوط الآراميين شكلاً من الاتساع والشدة في زمن تكلات بلاصر (توكولتي ــ بل ــ ايسارا) الأول ، الذي كان عاهلاً محارباً وصل بفتوحاته إلى البحر المتوسط ، مما أرغمه في بعض الفترات على التراجع إلى جبال تدعى جبال كتموخي ربما كانت في شمال الجزيرة . ولا بد أن الهجمات الآرامية كانت كثيفة حتى اضطر الكثير من السكان المحليين في أشور إلى الفرار والالتجاء إلى معاقل يحتمون بها .

وقد بذل الملوك الأشوريون جهوداً كبيرة لاحتوائها ولكن ، فيما يبدو ، دون نجاح كبير . فالملك تكلات بلاصر الأول (١١١٥ ــ ١٠٧٧) أمضى العقود الثلاثة الأولى من حكمه في حملات متلاحقة على الآراميين ومواقعهم في غربي الفرات واضطر إلى اجتياز النهر ثماني وعشرين مرّة في محاولاته المتكررة لضرب جموع الآراميين التي كان يصعب القبض عليها ، وهو إن استطاع المضي في حركة هجوم معاكس قادته إلى شواطئ البحر المتوسط . فإن أشور غرقت بعده في خضم الهجوم الآرامي . ونزلت قبائل آرامية وقبائل بدوية أخرى كقبائل السوتو في منطقة الفرات الأوسط ودخلت جماعات آرامية مدينة بابل نفسها نحو ١٠٢٥ وقاموا بنهب المدينة . ولكن هؤلاء الغزاة لم

(٤) G. Buccellati, the Amorites of the UR III Period. Naples 1966.

يكونوا مستعدين للاستقرار بسرعة لأنهم كانوا يتحركون في مدٍ وجزر تبعاً لظروفهم ولمقاومة خصومهم .

وعلى الرغم من الأخطار الماحقة التي تعرضت لها دول بلاد الرافدين فقد توصلت بابل وأشور إلى التماسك والبقاء بصورة ما ولكنهما انحصرتا ضمن مساحة ضيقة . فلم تعد أشور تمثل أكثر من شريط من الأرض يمتد على المنطقة التي يلتقي فيها الزاب الصغير بدجلة . كما أعيد تشكيل دولة بابل في رقعة صغيرة امتدت إلى حوض نهر ديالى . ولكن مجرى الأحداث أثر في الشخصية المحلية لكلا الاقليمين ، وطبعها بطابع استمر قروناً .

لقد انهارت بابل فجأة بعد أن ظلت بمنأى عن الأخطار المحتملة من الشمال محمية بموقف أشور ومقاومتها القوية للشعوب الجبلية الشمالية . ولكنَّ الضعف الداخلي الذي أصاب بابل من جراء سياسة ملوكها الكاشيين والفوضى والخراب اللذين عما البلاد بعد اختراق خطوط الدفاع الأشورية كان من نتائجه انهيار الدولة البابلية ولكن التقاليد الثقافية البابلية في اللغة والدين والمعارف القديمة بقيت مؤثرة في كل بلاد الرافدين .

وعلى العكس من ذلك خرجت أشور من هذا الصراع المرير الدامي متغيرة تماماً فهذا المجتمع الأشوري الذي كان يتكّون من الرعاة والفلاحين والتجار أخذ يتلبس بالتدريج اللباس الذي خصه به التاريخ فأضحى شعباً محارباً عنيفاً ليس لعنفه حدود .

وهو بعدما كان يدافع عن نفسه بأقصى درجة من الطاقة ، أضحى لشدة شعوره بالخطر شديد القسوة وبدت الحرب عنده المنفذ الوحيد من الاختناق الاقتصادي والحصار . وأضحى الجيش عنده الأداة المنفذة لنظام الحرب الأشوري الذي بقى العامل المهمين على المنطقة حتى أواخر القرن السابع ق . م .

فقد كان الجيش يخرج إلى الحرب في مواسم للحصول على المواد الأولية التي تحتاج إليها البلاد . أما الشعوب المغلوبة فكانت تنقل لاستخدامها في العمل الإجباري والسخرة لسد النقص المتزايد في الأيدي العاملة . وبعد أن نجحت أشور في حملاتها الأولى تشجعت على متابعة الحرب الدورية المنظمة وأصبحت الحرب عندهم عادة لا ضرورة ، وغدت نوعاً من الفعّالية الاجتماعية المربحة آنياً ولكنها كانت ممارسة أليمة وقاهرة خلّفت نتائج مريرة على المدى الطويل . وقد بقى الوضع مضطرباً ومختلطاً طوال قرن كامل في أشور وبلاد الرافدين كلها . وفي حين أخفقت القبائل الآرامية في الحلول محل الدول القائمة في بلاد الرافدين فقد نجحت في حوض البليخ والفرات الأعلى وفي

سورية في الحلول محل الحكومات الحثية السابقة وفي تأسيس بيوتات حاكمة متعددة من أهمها : بيت عديني (تل برسيب) وبيت أجوشي (ارفاد وحلب) وبيت جباري (سمأل) وفي حماة ودمشق والبقاع والجولان . وهكذا بدأت تتضح ملامح الخارطة السياسية الجديدة في مطلع الألف الأول ق . م مملكة أشور في شمال بلاد الرافدين وبابل في جنوبها إلى جانب دويلات آرامية ــ كلدانية عديدة منتشرة حتى الخليج بمقابل الممالك الآرامية الجديدة التي أضحت القوى الدولية البارزة في غربي الفرات التي استطاعت بزعامة ملك دمشق كسر اندفاع الهجوم المعاكس الأشوري خلال القرن التاسع . وعلى الرغم مما كان بين هذه الدول من صلات القربى والثقافة (اللغة) ، ومن تطلعها إلى الاتحاد والتحالف وقت الخطر فإنه ليس من المعروف تماماً الأسباب التي منعت آرام من أن تحذو في سياستها وفي دورها المثال الميتاني أو الأشوري بإقامة اتحاد دولي كبير بين مملكة أشور ومملكة الفراعنة .

٢ ــ مملكة أشور والسياسة التوسعية الأشورية(٥)

في نهاية القرن العاشر وفي الوقت الذي خفت فيه حدة العاصفة التي كادت أن تعصف بالمملكة الأشورية ، لم تكن هذه الدولة لتمثل في المنطقة قوة تزيد على قوة مملكة دمشق الآرامية ، سواء في ساحة الأرض التي كانت تسيطر عليها أم في تنوع الموارد التي كانت تتصرف بها . وكان يبدو في بادىء الأمر أن آرام كان ينتظرها مستقبل باهر . ولكن أشور كانت تملك من أدوات القوة مؤسستين جعلتا منها قوة مرهوبة الجانب فاتحة ومدمّرة ، وهما **المَلِكية والجيش** .

الملكيــة

بقي الإيمان باستمرارية السلطة الملكية حياً خلال تاريخ أشور كله . وقد هيّأ ذلك لأشور هدوءاً داخلياً نسبياً واستقراراً في نظام الحكم . وبقي التمسك بنظام الدولة المتوارث منذ زمن بعيد حتى في الوقت الذي كانت تجري فيه مؤامرات كان يقودها مغامرون أحياناً للاستيلاء على العرش . ومع كل التغيرات التي جرت لم يخسر الملك شيئاً من سلطاته الأساسية . ولكن في الألف الأول ق . م عملت المدى الكبرى ، وجماعات الكهنة في المعابد للحصول على استقلال ذاتي أكبر مما كان يقبل به الملوك الذين كانوا يشعرون لأسباب مختلفة بأن سلطاتهم ينبغي أن تبقى مضمونة ودون

(٥) لتتبع حركة التوسع الأشوري راجع : D.D.Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylona = ARAB. 2. Vols. Chicago (1926-1927).

وفيه الحوليات الرسمية للديوان الأشوري .

تقييد . ومع ذلك يمكن أن نعدّ شروكين الثاني ، العاهل الذي قبلَ بمنح مثل هذه الامتيازات لهذه المدن والمعابد دون أن تشكل أبداً سلطة منافسة للملك . وكانت المدن تنتظر من الملك نفسه صدور القرارات والمراسيم بالإعفاء من الضرائب . وافتتح بذلك تقليداً سار عليه فيما بعد سين أخي إريبا (سنحريب) وأشور أخا إدينا (أسر حدون) . ولم تتقلص السلطة الدينية للملك بوصفه ممثلاً لسلطة الإله أشور نتيجة لهذه السياسة بل بقيت مرعية كما هي من قبل .

وفي الوقت نفسه احتفظت « الجمعية العامة للشعب » بدورها التقليدي العريق الذي يعود إلى عصور موغلة في القدم في اختيار الملك وذلك بإطلاق هتافات طقسية يشترك في أدائها الجمهور المحتشد تأييداً له . وبقي حق الوراثة في الذكر مع إعطاء الأفضلية للبكر من الأولاد مرعياً ، ولكن مع تفسيرات فضفاضة أحياناً . أما مراسم الاحتفال بتنصيب الملك فتبدأ بحفلة تلبيس الأمير المرشح للعرش علناً ، ثم يقوم الأمير بوصفه كاهناً أعلى بتقديم أضحية للإله أشور في معبد أشور . ثم تأتي مرحلة المسح بالزيت المقدس والتتويج من قبل الكاهن الكبير . ويأتي بعد ذلك المظهر السياسي في المراسم فيتقدم أمام العاهل الجديد الجالس على عرشه كبار رجال المملكة فيتخلّى كل واحد منهم عن المسؤوليات المنوطة ؛ ولكن الملك يثبت كلاً منهم في عمله فوراً . وأثناء هذه الاحتفالات كانت الجماهير تهتف « أشور هو الملك » ويوضح هذا الهتاف الاعتقاد العام بأن الإله أشور هو سيد البلاد الحقيقي .

ويعود نهوض أشور إلى الجهود التي بذلها ثلاثة من الملوك الذين تتابعوا على العرش منذ أواخر القرن العاشر وعملوا على تأسيس الامبراطورية الأشورية وهم **أشور دان الثاني** (٩٣٤ ــ ٩١١) **وأدد ــ نيراري الثاني** (٩١١ ــ ٨٩١) **وتوكولتي نينورتا الثاني** (٨٩١ ــ ٨٨٤) .

ونحن لا نعرف كثيراً من التفاصيل عن أعمالهم إلّا أنهم وجّهوا اهتمامهم إلى تخفيف الضغط الآرامي بقيادة هجمات مدمّرة ضد المواقع الآرامية . ولم تتوقف الجيوش الأشورية عن متابعة الضغط على القبائل الآرامية حتى بعدما أخذت حدة الهجمات الآرامية بالتلاشي . وكانت هذه الجيوش تتابع تحركاتها التكتيكية لإرهاق الخصم ثم كانت تقوم بمناجزته في هجوم مدمّر . وكان الملك يقود حملة بنفسه بعد أن يستعد لذلك استعداداً كاملاً . ولم يكن أمام العدو إلّا أن يختار أحد أمرين إمّا الاستسلام التام ودفع الجزية وإما قبول الحرب وما يعقبها على الأغلب من الخراب والدمار والقتل والحرق والنهب والأسر . وكانت بعض أراضي البلاد المقهورة توضع رهينة لابتزاز الفدية والغرامة المطلوبة . وكثيراً ما كانت تلحق هذه الأراضي بممتلكات أشور .

وقد عمل **أشور ناصر أبلي** الثاني (أشور ناصر بال) الذي ابتدأ سياسة توسعية نحو الغرب طوال ربع قرن وحتى ٨٦٠ على اتباع هذه السياسة بتصميم لا تردد فيه وبفظاعة أضحت تقليديّة بعدئذ. وعند نهاية حياة هذا العاهل كانت أشور قد امتدت ما بين دجلة العليا ومنطقة حوض نهر الزاب الصغير شرقاً وحرّان في الجزيرة العليا غرباً. ثم تابع ابنه **شلما نصر الثالث** (شلما نو أشاريد) (٨٥٩ــ ٨٢٤) سياسة أبيه التوسعية. ولكنه أحدث تغييراً كبيراً في إدارة المملكة عندما أوجد وظيفة (تورتان) وهي كلمة معناها (الثاني). وأضحى حامل هذا اللقب بمثابة الوزير الأول أو نائب الملك، وهو الذي كان ينوب عنه أحياناً في قيادة الجيش، حتى في ميادين العمليات الحربية الكبيرة كما في سورية مثلاً. وعندما تقدمت قوات شلما نصر الثالث نحو العاصمة الآرامية دمشق، تمكّن ملك آرام برهدد الثاني وخلفاؤه ملوك سورية وأمراؤها من إيقافها عند قرقر على نهر العاصي (نحو ٨٥٣). ولقد نجت المناطق الوسطى والجنوبية، ولكن كيليكية وسورية الشمالية كانت قد وقعت تحت نفوذ أشور. ولم يتوقف الصراع الأشوري ــ الآرامي عند هذا الحد بل استؤنف بدرجة أشد في القرنين الثامن والسابع ق. م. فالمعركة لم تكن حاسمة وبقيت الدول الآرامية محتفظة بقواها بعد ذلك ما يزيد على القرن ونصف القرن.

يبدو أن حجم التحدي الذي واجهته الدولة الأشورية كان كبيراً. ومع ذلك فإنه لم يكن ليردع وقوع أزمات داخلية كبيرة في البلاد. فقد وضعت المناطق الجديدة المفتوحة تحت إدارة حكام منحوا صلاحيات واسعة وجعلت في أيديهم عملياً كل السلطات المدنية والعسكرية. فهم الذين كانوا يتسلمون الضرائب ويجندون القوات المحاربة. وكان الحاكم يمارس سلطات مطلقة محلياً. أما ما كان يقيّد سلطاتهم فهو الحرص على تجديد العهدة إليهم بالمسؤولية عند مطلع كل حكم جديد مما كان يتطلب منهم إعلان تجديد الولاء. وقد يتبع ذلك تغيير في مساحة المنطقة أو الولاية التي كانت توكل إليهم مسؤوليات الحكم فيها.

ففي عام ٨٢٧ اندلعت في أشور ثورة بقيادة ولي العهد الذي تمتع بتأييد النبلاء الصغار لكن الثورة قمعت على يدي ابن آخر من أبناء شلما نصر الخامس وهو شمشي أدد الخامس الذي انضم إليه كبار النبلاء وأهم شخصيات المملكة. وقد كافأ الحاكم الجديد أنصاره بتثبيتهم في وظائفهم وأضحوا فيها غير قابلين للعزل. ووزعت عليهم ممتلكات الثائرين المقهورين والولايات التي كانت في عهدتهم.

وهكذا اتسعت صلاحيات الارستقراطية العسكرية القديمة وسلطاتها مما زاد في حدة الضرر الذي أصاب السلطة الملكية المركزية. وبعد تولي أدد نيراري الثالث توالت الثورات في أشور بتواتر

أسرع . وأضحت الأزمة الداخلية في البلاد أكبر وأكثر حدة بعد ٧٥٠ ق . م . وإذا ما تماسكت الامبراطورية بعد ذلك فذلك بسبب قوة طبقة النبلاء هذه ، التي كانت تمسك بزمام السلطة الحقيقية وتوصلت إلى تفادي خطر التهديد الخارجي .

لقد استطاعت الدولة على الرغم من كل الظروف المثيرة للقلق التي كانت تمر فيها أن تواصل توسعها حتى امتدت ما بين ايران شرقاً والبحر المتوسط غرباً . وفي ظروف التدهور التي كانت تمر فيها مصر الفرعونية تمكّن العاهل الأشوري أسر حدون (أشور أخا إدّينا) من إخضاع عاصمة الفراعنة طيبة (٦٧١ ق . م) محققاً بذلك أوسع امبراطورية شاملة عرفها الشرق القديم حتى ذلك العصر .

الامبراطورية الأشورية وخصائصها

احتاج **شمشي أدد الخامس** (٨٢٣ ــ ٨١١) إلى مدة سنة لكي يسترد سيطرته على العاصمة أشور . ولكن سلطته لم تكن قوية في الشمال والشرق واضطر إلى استمالة بابل بضمانات وعند موته حدث في أشور ما لم يسبق له مثيل وهو أن أرملته سامورامات (سميراميس) حكمت بعده لاكوصية وسيدة كبيرة في القصر بل بوصفها ملكة أقامت مسلّات وأنصاباً تذكارية إلى جانب مسلّات وأنصاب الملوك الذين سبقوها مذكّرة بصلاتها بالبيت المالك زوجة وأماً وكنّة . وقد استمر الحكم بعدها في الأسرة المالكة ، لكن برزت شخصية القائد العام (التورتانو) **شمشي ــ إيلو** الذي استطاع السيطرة على مقدرات الدولة وسياستها في حكم أدد نيراري الثالث (٨١٠ ــ ٧٨٣) ، ثم شلمانو ــ أشاريد (شلما نصر) الرابع (٧٨٢ ــ ٧٧٣) . لكن الثورات اندلعت في بعض أنحاء البلاد ولكنها قمعت واستطاع التورتانو شمشي إيلو المحافظة على وحدة الامبراطورية واحتفظ هو بدوره في الدولة زمن الملك أشور دان الثالث (٧٧٢ ــ ٧٥٥) .

وربما اتخذ شمشي إيلو الذي تمتع بمكانة عسكرية وادارية كبيرة مقراً له في تل برسيب (كار شلما نصر) على الفرات لمراقبة الدول الآرامية وبخاصة مملكة أرفاد (بيت أجوشي) . واستطاع التورتانو هذا التحكم بالتطورات التالية في البلاد ، فبعد موت الملك أشور دان اختار التورتانو[٦] خلفاً له وهو أشور نيراري الخامس (٧٥٤ ــ ٧٤٥) أحد أبناء أدد نيراري الثالث . وقد أدت

---

(٦) انظر حول التورتانو شمشي إيلو ودوره في الدولة الأشورية في كتاب جديد :

A. Lemaire dt J. M. Durand, les Inscriptions araméénnes de Sfiref l'Assyrie de Shamshi-Ilu(1984) p. 37-55.

ظروف النزاع على الحكم في القصر الملكي إلى اندلاع ثورة في مدينة كلخو رفعت إلى عرش أشور توكولتي ــ أبيل ــ ايسارا (تكلات بلاصر) الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧) .

توكولتي ــ إبيل ــ ايسارا والامبراطورية الأشورية

يعدّ **تكلات بلاصر الثالث** (توكولتي إبيل إيسارا) المؤسس الفعلي للامبراطورية الأشورية الحديثة . ففي ٧٤٥ نشبت ثورة حملت إلى عرش أشور أحد أبناء أدد نيراري الثالث الذي أعلن ملكاً باسم توكولتي إبيل ايسارا الذي يعد وصوله إلى الحكم مرحلة فاصلة في تاريخ الامبراطورية الأشورية . فقد عمل الملك الجديد على إعادة السلطة الملكية بخضد شوكة النبلاء الكبار . واتخذ في سبيل تحقيق هذا الهدف مجموعتين من التدابير . فقد عمل من جهة على تحاشي تركيز السلطات بيد أشخاص محدودي العدد وذلك بمضاعفة الوظائف الهامة وتوزيع مسؤولياتها ، وبتقسيم الولايات الواسعة وتقليص مساحتها . ومن جهة أخرى فرض على حكام الولايات مراقبة أشد من ذي قبل ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يغير أنظمة الإدارة الأشورية واحتفظ أكثر الحكّام بوظائفهم ولكنه أخذ يعتمد في الإدارة بدرجة أكبر على النبلاء الصغار . ولم يسمح لأحد منهم أن يرتفع إلى مرتبة رفيعة في الدولة يمكن أن تنافس سلطة الملك . ولم يعد يطلق اسم أحد من الحكام على السنة تكريماً له كما كان يحدث في السابق . ومع ذلك فإن شخصية حاكم غوزانا (حرّان) وهو (بل حرّان بل أصور) ملفتة للنظر ، فقد حصل هذا الحاكم على امتيازات شبه ملكية ثم أصبح حاجباً وفي ٧٤١ أطلق اسمه على ذلك العام وعلى العام ٧٢٧ . أمّا اصلاحاته العسكرية الجذرية فسنتحدث عنها فيما بعد . وهو بإيجاده أداة فعالة للحرب بتأسيس الجيش الدائم استطاع السيطرة بشكل أفضل على الأراضي المفتوحة التي عمل بعدئذ على تنظيمها بصورة فعالّة : فقسّمها إلى وحدات إدارية يمكن التحكم بها وأقام فيها ثكنات ومواقع عسكرية للمراقبة والحماية .

واتبع سياسة نقل السكان لكسر أي تفكير بالمقاومة وكانت النتائج مذهلة : ففي شمال بلاد الرافدين استطاع تكلات بلاصر الثالث أن يحرر أشور من الضغط الذي كان واقعاً عليها من القبائل الآرامية وتمكن من تخفيف الضغط الآرامي على بابل في الجنوب بعد أن قام بسلسلة من الهجمات أرغمت المدن البابلية على الاعتراف به . ثم التفت إلى غربي الفرات . فأبعد جيش أورارتو (أرمينية) الذي اقترب من ممرات طوروس (مرعش وعنتاب ..) نحو شمال سورية حيث كانت مملكة بيت أجوشي الآرامية ومقرها في أرفاد (تل الرفاد) ، قرب اعزاز وشمال حلب . ثم مد نفوذه إلى حوض العاصي وسهل العمق مهدداً الدويلات السورية الشمالية (حطّينا ، وسمأل) .

ثم هاجم بلاد أورارتو نفسها في الشمال الشرقي من الامبراطورية وقصد منطقة بحيرة وان مكرراً محاولات شلما نصر الثالث من قبل، ولكن جيشه لم يستطع أن يتقدم في تلك المناطق الجبلية الوعرة إلّا ببطء شديد وبصعوبة كبيرة فآثر التوقف عند هذا الحد، بحكمة، لكي لا يفسد النتائج التي توصل إليها وعاد إلى متابعة سياسته التوسعية في غربي الفرات (سورية) .

وقد حقق العاهل الأشوري في هذا الاتجاه انتصارات كبيرة فقد استطاع نحو ٧٤٠ ق . م احتلال عواصم بيت أجوشي الحصينة ودخل مدينة حلب وفيها معبد (هدد حلب) ، ثم حماة واتجه جنوباً إلى دمشق وقد حقق هنا ما لم يحققه شلما نصر الثالث قبل قرن فاحتل عاصمة آرام (٧٣٠ ق . م) ، منهياً بذلك مملكة آرام التي عاشت قرابة ثلاثة قرون . ولكن الأحداث بقيت تتلاحق بشكل مثير للقلق في بابل .

كانت القبائل الآرامية ـــ الكلدانية تتقدم في بلاد بابل في جو من الفوضى المتعاظمة وكانت كل الظروف تدعو إلى تدخل أشوري حاسم لفرض الأمن والنظام والسلام الأشوري . واتخذ تكلات بلاصر قراره في العام ٧٢٩ ولكن بطريقة خاصة وجديدة فقد خُلع ملك بابل آرامي الأصل الثائر ضد سلطة الملك الأشوري، وهو **نابو مُكين زيري**، وربما قُتل، وأعلن ملك أشور نفسه ملكاً على بابل باسم آخر (فولو) ، مؤسساً بذلك اتحاداً شخصياً بين مملكتي أشور وبابل، فأصبح هو نفسه بشخصه ملك أشور باسم تكلات بلاصر وملك بابل باسم فولو . وهو حل سياسي ـــ حقوقي [illegible] المسألة البابلية على نسق عرف من قبل في الشرق القديم بصور مختلفة في مصر عندما كان ملوكها يحملون لقب (ملك مصر العليا ومصر السفلى) ويتوجون بتاجين مختلفين ثم بتاج مزدوج . وكان الملوك الأكديون والسومريون من أسرة أور الثالثة يتباهون بلقب (ملك سومر وأكّد) . إلّا أن تكلات بلاصر الثالث لم يكن مقلّداً، بل أوجد عصراً جديداً في أشور والمشرق كله . وعندما توفي بعد سنتين في ٧٢٧ كانت أشور قد ارتبطت بسياسة لافكاك منها هي سياسة الاتحاد بين دولتي بلاد الرافدين وسياسة السيطرة العالمية . وكان على خلفائه بعدئذ أن يقتفوا أثره ويسيروا على خطاه لحماية الامبراطورية وحفظ قوتها بعد الدخول في طريق لم يعد من الممكن الخروج منه .

ـــ **الأسرة الصرغونية** : شروكين الثاني وخلفاؤه .

تعاقبت على عرش أشور بعد ذلك سلسلة من الملوك المشهورين: **شلما نصر الخامس** (٧٢٧ ـــ ٧٢٢) الذي خلف أباه بسهولة، ولم يواجه معارضة لحكمه إلّا في المدن الساحلية الفينيقية، وانتهى عهده باغتياله . واستولى بعده على عرش أشور رجل قوي مغتصب هو **شروكين**

الثاني (صرغون) في ٧٢١. وهو يتحدر من البيت المالك نفسه وبه يفتتح الدور الصرغوني من الدولة الأشورية. وقد جعل العاهل الجديد مثله الأعلى سلفه البعيد شروكين الأكدي الكبير لإنشاء الدولة العالمية المنشودة محيياً ذكريات مضت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرناً، ولتدخل أشور في تجربة استمرت إلى نهايتها.

وقد تقرب شروكين من مدينتي أشور وحرّان برفع السخرة عنهما وسحب قواته منهما وألغى الضرائب المفروضة عليهما في السابق. ولكنه كان من جهة أخرى شديد البأس ومحارباً خطراً شديد المراس بعيد المطامع، دخلت الدولة في عهده في دوّامة الحروب المتصلة بالتمادي في الفتوحات المذهلة التي دفعت الامبراطورية في خط مأساوي انساقت فيه أخيراً إلى مصرعها. وكانت كل الظروف تدفعها للمضي في هذا الطريق. فالمتطلبات الدفاعية كانت تقضي لتفادي الغزو من الخارج نقل الحرب إلى أرض العدو. والضرورات الاقتصادية كانت تقضي بنهب ثروات الولايات والبلاد المجاورة لإضعافها. وكان حب الأمجاد والتفاخر والتشبه بالأبطال الأقدمين والفاتحين السابقين يدفع الجيوش إلى أراضٍ جديدة. وكان كل نجاح في احتلال جديد يجر الظافرين إلى آفاق أبعد وهكذا دواليك.

وبالإضافة إلى ذلك لم تكن أشور لتدري شيئاً عن تحركات الشعوب البعيدة. فاختارت لتحركها أحياناً جبهات خطرة. وإذا كانت أشور قد عرفت من زمن بعيد عيلام ومصر ودول سورية، وبدرجة أقل أورارتو وآسية الصغرى، فإنها لم تكن قادرة على تقدير خطورة تحرك القبائل الكيميرية والسكيثية التي كانت تتبدّى في الأفق. فكل الجهود بذلت للتصدي للجبهتين الشرقية والغربية للامبراطورية على حساب الاهتمام بالجبهة الشمالية.

وشروكين الثاني انفرد بين سائر الملوك الأشوريين بالتوجه إلى هذه الجبهة. عندما قام بغارة صاعقة عام ٧١٤ ضد مملكة أورارتو وبلغ بحيرة وان وحصن مُصيصير بعد أن أعد للحملة إعداداً جيداً بكشف الطرق وإرسال الكشافة والكتائب الاستطلاعية.. وكان من نتائج هذه الحملة إضعاف هذه البلاد في الوقت الذي كان من الممكن المحافظة عليها لكي تبقى جبهة منيعة يمكن أن تتصدى للشعوب التي تقف في وجه الشعوب التي قد تشكل خطراً على بلاد الرافدين. ولكن ملوك أشور لم يكونوا قادرين على تصور مثل هذا الخطر وتفهم مثل هذا الوضع. وإذا ما توصلت أجهزة الاستخبارات الأشورية إلى بعض التفاصيل عن حركات الفرق الأورارتية فقد كان من الصعب عليها تقدير أهمية التحركات التي كانت تجري على سفوح القوقاز. وكانت أشور تعير انتباهاً أشد إلى مساعي مصر ومداخلاتها في فلسطين وإلى مساعي عيلام ومداخلاتها في بلاد البحر. فقد توجهت

الجيوش الأشورية في هذين الاتجاهين بينما كان الخطر مختفياً وراء الآفاق البعيدة في الجبهات الأخرى .

لم يقتصر اهتمام شروكين على الحرب والجيش فقد كان معمارياً كبيراً وترك آثاراً عظيمة تدل على عظمة أيامه ، فبنى لنفسه مقراً جديداً للحكم في دور شروكين = حصن شروكين (في خورصباد الآن) ، وقصراً ومكتبة .

وكان يساعده في أواخر أيامه ابنه **سن أخي إريبا = سنحريب** (٧٠٤ ـــ ٦٨١) ، الذي أتم بناء المكتبة التي بدأ أبوه بتأسيسها . وأمضى عشر سنوات من الحرب غير المجدية مع عيلام ، واضطر إلى تحمل أعباء تراجع مرير . وفي فورة الغضب أمر باجتياح بابل التي أصيبت بأضرار فادحة عام ٦٨٩ لثورتها على الحكم الأشوري . وبعد مصرع سنحريب خلفه ابنه **أشور أخا إدِّينا (أسر حدّون)** (٦٨٠ ـــ ٦٦٩) الذي كان عُصابياً مريضاً وكان حكمه حافلاً بالمؤامرات والدسائس والمكائد التي اشترك فيها النساء والأطباء والعرّافون .

وكان قد توصل إلى العرش بمساعدة أمه البابلية زاكوتو . وقد كوفئ المتنبئون لاشتراكهم بالمؤامرة التي أودت بحياة أبيه . وهي مؤامرة تكشف عن مدى تردي الأوضاع الداخلية في أشور التي طبع النظام الجديد فيها بطابع شبه كهنوتي ومؤيد لبابل التي أعيد بناؤها . وقد تصور الملك ، وربما أقنعه بذلك مستشاروه أنصار الملكة ، أنه يستطيع أن يحافظ على وحدة المملكة بتقسيمها بين ولديه : شمش ـــ شوم ـــ أوكين وهو الأكبر وأعطيت له بابل ، وأشور بانيبال وهو الأصغر وأعطيت له أشور ووراثة عرش أبيه . لكن هذا التصرف أدى إلى نتائج مفجعة . وزاد في حراجة الوضع الداخلي تضخم الجهاز الحاكم ووهن صحة الملوك المتأخرين وتشكل طبقة خفية هي التي كانت تدير السلطة من وراء ظهر الملك من المتنفذين ورجال القصر ونسائه . إلّا أن شخصية الملك بقيت محترمة وظلّت مراسم الاحتفالات والمناسبات مرعية . وكان يحيط بالملك حرس خاص من ألف رجل وترسخت القواعد المتّبعة في الحجابة والدخول عليه . وأصبحت الوظائف مجرّد ألقاب لم تعد تفيد معناها الأصلي ولكن أصحابها يجنون من ورائها الفوائد والعائدات . وكان الجميع يرتبطون بالملك وبالقصر وكان من الصعب التمييز فيه بين من كان في الخدمة العبودية ومن في الخدمة العامة . وكان المفروض على الموظف أن يؤدي يمين الولاء للملك عند تسلّمه الحكم . وتقدم مكافآت مجزية للمحسنين وينالون الإقطاعات والمنح . أما المسيئون من أفراد الحاشية فكانوا يعاقبون بصورة رهيبة في بعض الأحيان .

ويأتي في المرتبة الأولى بين الموظفين التورتانو (قائد الجيش) الذي يمنح عادة ولاية حرّان . أما

رجل القصر فيقطع ولاية أربيل . وللنديم أو رب شاقي (كبير السقاة) ولاية نصيبين وقد أصبح رب شاقي فيما بعد قائداً للجيش .

وهكذا نجد أن السلطة الملكية كانت هي السلطة العليا في الدولة الأشورية أما الجيش فقد كان ساعدها الأيمن ..

الجيش الأشوري

كان كثير من الوظائف في الامبراطورية الأشورية مدنياً وعسكرياً في آن واحد . فالساقي (كبير السقاة) = رب شاقي كان يتولى مهامه في الجيش تحت إمرة التورتانو . ومنذ أن انتقلت أشور من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم في القرن التاسع ، احتل الجيش مكانة ممتازة في الدولة الأشورية .

وقد تألف الجيش من سلاح المشاة الذين كانوا يسلحون بالدروع والرماح والسيوف والأقواس وسلاح الفرسان الذي تطور منذ شروكين إلى أشور بانيبال حتى أصبح قوة فعّالة متميزة . ويحمي الجنود رؤوسهم بالخوذ . وفي الجيش الأشوري قوات من الدول التابعة والحليفة بأسلحتهم من العربات والخيل والأقواس والحراب .

وهناك سلاح الهندسة الذي يعمل على شق الطرق وبناء الجسور ويساعد على تجهيز وسائل الحصار ويقوم بنقب الأسوار وتسلقها وخرق الأبواب ونصب السلالم وتعليق الحبال .. ولا يبدو أنه كان للدولة الأشورية استراتيجية حقيقية ولكنهم كانوا في عصرهم بارعين في التكتيك أي في المناورة والتحرك قصير المدى .

واتبعوا في توقيت الحرب وسائل خاصة ، فاستعانوا بالعيون وبالاستخبارات وبالتنجيم ، وبخاصة قراءة أحشاء الحيوانات المقدسة وبتفسير الأحلام . وقد لجأوا إلى سياسة الأرض المحروقة لإرغام العدو . ولكنهم كانوا يلتفون حول عدوهم عندما لا يستطيعون مجابهته . وقد قطعوا في فتوحاتهم مسافات طويلة بمعدل ٣٠ كم في المرحلة ثم يتوقف الجيش للاستراحة في مواضع معينة ومدروسة . وقامت الجيوش الأشورية في تحركها بقطع المحاور الرئيسة للطرق المؤدية إلى البلاد المهاجمة كما فعلوا في أمورو وآرام (سورية) وفي سفوح طوروس أو في طريقهم إلى أورارتو أو إلى مصر . وقد فرضت الأعباء العسكرية الضخمة على أشور تجنيد أعداد من المشاة من البلاد المغلوبة لتخفيف نتائج النقص الديموغرافي الناجم عن آثار الحروب .

ويعود الفضل إلى توكولتي أبيل إيسارا (تكلات بلاصر) الثالث (من القرن الثامن) في ايجاد الجيش الدائم ولكن خطة النفير العام ، أي استدعاء القادرين على حمل السلاح بقيت نافذة ومنذئذٍ

أضحى الجيش الأشوري مؤلفاً من العناصر الآتية : ١ ـــ الفرق الدائمة وهي تحت إمرة حكّام الولايات ٢ ـــ قوات الحدود وهي مرتبطة بالقصر . ٣ ـــ قوات النفير العام والتعبئة وقد بقيت حتّى القرن السابع ، أي إلى نهاية أيام الدولة وهي تدعى في الظروف الخطيرة .

وعندما اتسعت الامبراطورية لم يعد الجيش الأشوري مؤلفاً من الأشوريين والرافديين وحسب ، بل صار يضم شعوباً متعددة الأجناس واللغات . ولم يكن الجنود مصنفين حسب بلدانهم . وقد استخدم الأشوريون العربات على نطاق واسع وطوّروها . وخصص لجر العربة رأسان من الخيل وجعل الثالث احتياطياً (أيام أشور ناصر بال الثاني) ، ولكن هذا النظام ألغي أيام شلما نصر الثالث ليعمل على العربة رجلان كما كان الحال في الدول الحثية والسورية الشمالية وفيما بعد ثلاثة جنود أحدهم يحمل الدرع وفي أيام أشور بانيبال صار العدد أربعة أشخاص منهم السائق الذي يحمل قناة . وقد زودت العربة بجعبتين وفزّاعة وعلم .

وأوجدت على عهد تكلات بلاصّر الثالث عربات خفيفة متينة كان يمكن نقلها على ظهور الرجال في الممرات الصعبة الجبلية . وتنوعت نماذج العربات وأشكالها على عهد سنحريب ، ودعّمت العجلات على أيام أشور بانيبال . وهكذا كانت تتطور التقنية مع الزمن وتبعاً للظروف .

ويعد تقرير شروكين الثاني[٧] عن حملته على أورارتو (٧١٤) ، والذي وجهه إلى الإلّه أشور مصدراً ثميناً عن أسلوب عمليات الجيش الأشوري وتحركاته وعن أسلحته وهندسته ووسائل استخباراته وتنظيمه . ففي التقرير وصف دقيق للطرق والمعابر التي مر بها الجيش وتحديد للقمم والأماكن الهامة . وقد استخدمت المعاول البرونزية لشق الطرق . وكوّن الأشوريون فرقاً من الغواصين الذين يستطيعون عبور الأنهار على عوامات جلدية فردية .

وقد سبق الأشوريون الدول الأخرى في تنظيم البريد والاتصالات الادارية والحربية . واستخدمت الدواب وبخاصة الخيل والجمال . وتدل الوثائق المكتشفة على مبلغ نجاحهم في تنظيم الاتصال بين المناطق البعيدة والعواصم الأشورية . على أن أهم عامل في أداة الحرب الأشورية هو العامل النفسي . فالمجتمع الأشوري كان مجتمعاً محارباً مجنداً في سبيل الإلّه أشور . ولكن على الرغم من ضخامة آلة الحرب الأشورية فإن النتائج التي حققها كانت غالباً مؤقتة .

ففي الوقت الذي بلغت في الدولة أقصى درجات القوة والاتساع زمن أشور بانيبال (٦٤٨) كان الصراع على أشده بين العاصمتين أشور وبابل . وتعرضت بابل مرّة أخرى للتدمير والإحراق .

---

(٧) F. Thureau- Dangin, Une relation de la huitiéme Campagne de Sargon II (714 av.J.C) 1912 Paris.

ولكن القوات الأشورية استطاعت اجتياح أراضي عيلام ودخلت عاصمتها سوسة وجعلتها مقراً لولاية أشورية .

أما مصر فكانت تلقت الضربة الأولى أيام أسر حدّون الذي تمكن من احتلال منفيس عام ٦٧١ لكن هذا الانتصار كان مؤقتاً لأن الفرعون طهارقا (الأسرة ٢٥) استطاع بتأييد المدن الساحلية الفينيقية والفلسطينية مثل أرواد وصور وعسقلان إثارة المتاعب في طريق الجيش الأشوري . واضطر أشور بانيبال إلى القيام بحملة أخرى على مصر في ٦٦٨ وتوغل في صعيد مصر حتى طيبة ولكن لم تمض سنة واحدة حتى تحرك المصريون بقيادة بسامتيخ (الأسرة ٢٦) وهاجموا الثكنات الأشورية ومقر الحاكم الأشوري في سايس (كار بل ماتاتي) ، في الدلتا . وفي الوقت الذي كان يدور فيه هذا الصراع بين أشور ومصر كان قد تشكل تحالف كبير ضم كل معارضي أشور في الشرق اشتركت فيه عيلام وبابل وغيرهما .

وبينما كانت القوات الأشورية الرئيسة تنهك قواها في تحركاتها على الجبهة الغربية كانت الجبهة الشمالية تنذر بالخطر . فمنذ أيام سنحريب تراجع الأشوريون عن مواقع متقدمة في طابال الواقعة في جبال طوروس كما اضطروا أن يخلوا مواقع هامة في جبال زاغروس أمام القبائل الميدية . واضطر أسر حدون إلى التخلي عن آسية الصغرى التي اجتاحها الكيميريون . أما أشور بانيبال فقد فقد السيطرة على حوض دجلة الأعلى . وهكذا خسرت أشور كل عناصر تفوقها الاستراتيجي في الشمال وطرق المواصلات التجارية ومصادر المواد الأولية والمعادن الضرورية للصناعة الحربية من النحاس والحديد .

وهكذا كان على أشور أن تتوقع بعد ذلك بدء الهجوم على قلب مواقعها وأن تقضي ما تبقّى من عمرها تلفّها الشكوك والمخاوف المثيرة نصف قرن آخر وهي في قمة الغنى والثراء .

٣ ــ تدهور الامبراطورية الأشورية وسقوطها

قامت الامبراطورية الأشورية واكتسبت عناصر استمراريتها من فعّالية الإصلاحات التي نهض بها الملك تكلات بلاصر الثالث ومعاونوه ثم جاءت إصلاحات شروكين الثاني لتطبع الدولة بطابعها إلى آخر أيامها .

فقد ترك ملوك أشور بعده لكبار القادة مسؤولية قيادة الحملات العسكرية ، وكانوا يكلفون بالإضافة إلى ذلك حراسة الحدود ، ولذلك كانوا يعفون من كل مسؤولياتهم الإدارية الأخرى وكانت المسؤوليات الإدارية تناط بحكام الولايات الذين يتبعونهم . ولكن حكام الولايات كانوا يحتفظون في ولاياتهم بسلطات واسعة إدارية وعسكرية .

وإذا ما تماسكت السلطة الملكية في أشور طوال قرن منذ أيام شروكين الثاني فذلك بسبب الرقابة التي كانت تمارسها **الدواوين** التي أوجدها والتي تمكن بها من المحافظة على الخصائص المركزية للإدارة. وكان من أبرز خصائص اصلاحاته الفصل ما بين إدارة شؤون الدولة العليا وإدارة الشؤون اليومية. وهذه الأمور كانت تديرها الدواوين التي كان يشرف عليها ولي العهد. أما الملك فقد انصرف إلى الأمور الخطيرة وإلى المتطلبات الدفاعية والحربية والعلاقات الدولية. وأضحى بالتالي من الصعب الوصول إليه في قصره المنيع حيث تزايدت المؤامرات في أواخر أيام الامبراطورية الأشورية.

لقد تضخمت (الامبراطورية) وسلطاتها، بعد قطع طريق طويل وبتطور بطيء، قاد زعيم مدينة صغيرة ورئيس عشيرة إلى درجة حاكم مطلق له مطامع عالمية. وبعد الأمثلة العابرة القديمة، في العصرين الأكدي والأموري (شروكين الكبير وحمورابي) أضحت فكرة الدولة الكبرى الشاملة حقيقة راسخة.

ولئن انهارت أشور بعد عشرين عاماً من موت آخر ملوكها الأكثر عظمة وشهرة (أشور بانيبال) فإن الشرق الأدنى القديم وهو قلب العالم آنذاك، لم يعد يستطع أن ينصاع إلّا لسيد واحد ولسلطة قوية واحدة.

وهذا **العمل التوحيدي**: توحيد الأرض، المدى الجغرافي، وصيغة الحكم والسلطة السياسية هو الأثر الباقي للامبراطورية الأشورية. وهو المثال الذي سارت على منواله الدول الأخرى بعدئذ. هذا التطور الذي حدث لم يكن مقصوداً تماماً، وقد جاء أحياناً بحكم الظروف. وهناك عاملان كان لهما تأثير حاسم في هذا التطور وهما الغزوات الآرامية ونتائجها على التركيب السكاني، والإشعاع الروحي لبابل في كل الشرق الأدنى القديم.

لقد فرض ملوك أشور في النصف الأول من القرن السابع نوعاً من **السلام الأشوري** في المنطقة الممتدة من زاغروس إلى البحر المتوسط Pax Assyriaca. وصار باستطاعة الشعوب والقبائل وأفواج الناس التحرك في هذه المنطقة من العالم بسهولة. ولقد قامت ثورات ضد الحكم الأشوري في صور وأشدود وعسقلان وجنوب فلسطين. بتحريض من الفرعون المصري. أما العرب في ممالكهم الصغيرة المتعددة (دوماتو) وهي دومة الجندل و (تيماء) فقد كانوا غارقين في منازعاتهم الداخلية على وراثة العرش.

واستخدمت أشور أحياناً سياسة تتراوح بين اللين والشدة للسيطرة على الموقف حسب الظروف. واستعان الأشوريون أحياناً بالدول الحليفة القائمة للتغلب على تحركات البدو العرب

كاستعانتهم بالمؤابيين لإخضاع البدو في شرقي الأردن. وبدأت الدويلات والقبائل العربية تشكل عاملاً مهماً في السياسة الأشورية منذ أيام أشور بانيبال وهو ما سنرى أثره بعدئذ في العصر البابلي الثاني.

على أن أهم ما ينبغي ملاحظته على الصعيد السكاني في الدولة الأشورية منذ القرن الثامن، هو تدفق البدو على مناطق البلاد، وعمليات نقل السكان المنظمة مما أدّى إلى خلط السكان وتمازجهم الواسع في الامبراطورية كلها. أما في بلاد الرافدين فقد اصطبغ السكان بالصبغة الآرامية بعد أن حصل مثل ذلك من قبل في سورية. وتوصل إلى عرش بابل ملوك من أصل آرامي هم الذين أعلنوا الثورة ضد أشور كان أبرزهم نابو مُكين زيري، ومردوخ أبال إدينا. وقد رافق هذا التغيير السكاني تغيير ثقافي لغوي فمالت اللغة الآرامية إلى الحلول محل الأشورية ــ البابلية التي اقتصر استعمالها في دواوين القصر وفي المعبد.

وقد طرأت على طقوس العبادة تعديلات نتيجة لتغلغل النفوذ الثقافي البابلي في أشور وفي كل المناطق الأخرى. وأضحت آلهة بابل هي التي تعبد في كل الامبراطورية (بل/ مردوك وإشتار، ونابو وتشميتو) ونشر البابليون ميلهم للتنجيم والفلك في كل الأوساط المتعلّمة، وصار بالإمكان القول إن الامبراطورية الأشورية أضحت بمفارقة كبيرة وبعد رد فعلها العنيف ضد الهجمات الآرامية في القرنين التاسع والثامن، دولةً مزدوجة اللغة: أكدية (بابلية ــ أشورية) ــ آرامية، مزدوجة الثقافة: بابلية ــ أشورية (منذ القرن السابع). كما كانت بلاد الرافدين مزدوجة الثقافة واللغة من قبل: سومرية ــ أكّدية في **الألفين** الثالث والثاني ق.م. هذا على الصعيد الحضاري أمّا على الصعيد السياسي ــ العسكري فقد كان التدهور متسارعاً نحو الهاوية.

٤ ــ الأوضاع الدولية في الشرق الأدنى قبيل سقوط أشور

ظهرت في القرن السابع وقبيل سقوط أشور النهائي قوى دولية هامة في أرمينية وآسية الصغرى في الوقت الذي بدأت تبدو على المسرح السياسي ــ العسكري في المنطقة شعوب خطيرة جديدة. ومن هذه القوى الدولية أورارتو وليديا وفريجيا. أما ملك ليديا جيجز Gyges فقد قتل في ٦٥٢ وهو يحارب ضد الكيميريين.

كان **الكيميريون** على الأغلب فلاحين مستقرين دفعهم **السكيثيون** وهم من سكان السهوب الذين كانوا فرساناً تحركوا في المنطقة الواقعة بين بحري أرال وقزوين. وقد تحركت هذه الشعوب في عالم

الشرق القديم وتعرضت أشور نفسها لنتائج تحركاتهم ووصلت طلائعهم إلى إفسوس على بحر إيجه بينما أوقف الكيميريون بصعوبة عند كيليكية .

وفي هذه الأثناء ظهر **الميديون** أقرباء السكيثيين ، وربما كانوا حلفاءهم ، وتقدموا حتى أصبحوا على أبواب أشور . وكان هؤلاء الميديون ، الذين كانوا في السابق قبائل تعيش وراء زاغروس على هامش حدود الامبراطورية الأشورية ، قد أسسوا دولة لهم في شمال إيران وحول إقباتان (همذان) . وبدأ انهيار الأوضاع منذ أيام أشور بانيبال ولكن بعد موته (٦٣٠ ق . م) بدأت تحل الكارثة . فقد اجتاز السكيثيون مملكة أورارتو التي اختفت من خريطة المنطقة نهائياً واجتاحوا أشور وحوض الفرات وتقدموا في سورية ولم يتوقفوا إلّا عند أبواب مصر بعدما دفع لهم الفرعون بسامتيخ كميات من الذهب .

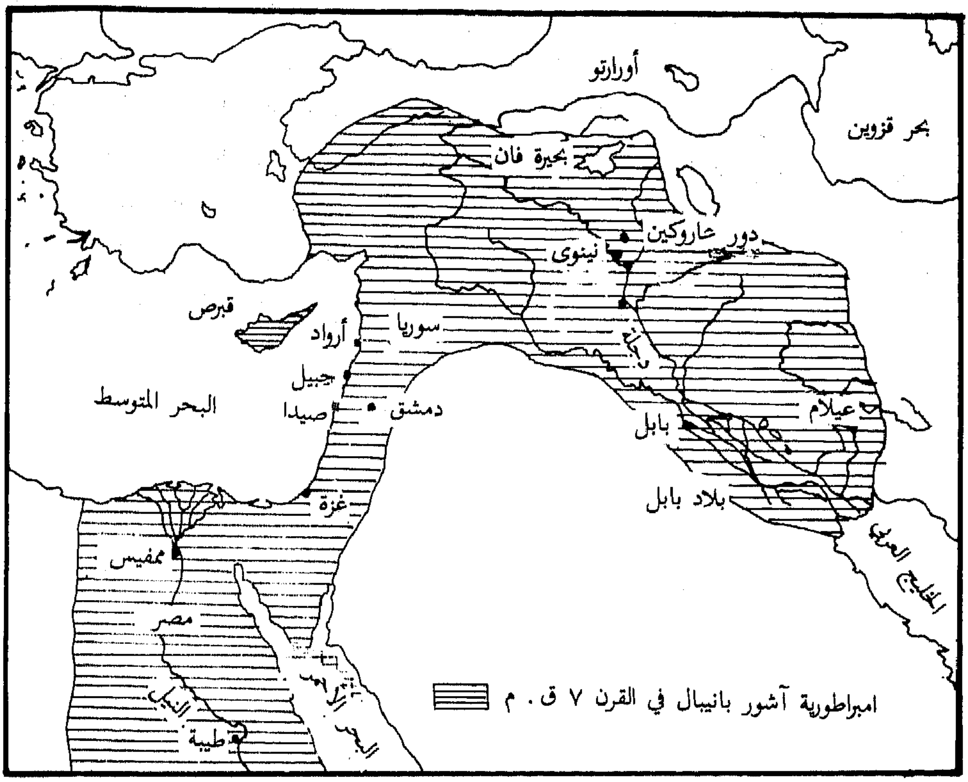
وفي ٦٢٥ توصل ملك الميديين **كيخسار** إلى توحيد كل الشعوب الايرانية القديمة بزعامته في الوقت الذي أعلن فيه ملك بلاد البحر (على الخليج العربي) نفسه ملكاً على بابل .

ومنذ ذلك الوقت أخذت تتلاحق الأحداث إلى أن طوقت نينوى العاصمة الأشورية وحوصرت . ولكن الجيش الأشوري بقي حتى اللحظة الأخيرة محتفظاً بالروح القتالية العالية وبتقاليده الحربية . إلّا أنه غُلب على أمره ودخلت الجيوش الميدية نينوى عام ٦١٢ ق . م . وأعملت فيها معاول الهدم ونيران التخريب والتدمير .

وتجمعت بقايا القوات الأشورية بقيادة آخر ملوك أشور (**أشور أُبلّط**) (٦١٢ — ٦٠٩) لحماية حرّان عاصمة ما تبقى من الامبراطورية المتداعية . وطلب الملك الأشوري مساعدة نخاو الثاني ملك مصر فأسرع إلى تلبية ندائه خلافاً لما هو منتظر ووصلت قوة مصرية إلى كركميش ولكنها اضطرت إلى الإنسحاب بعد تقدم البابليين عام ٦٠٩ وترك آخر ملوك أشور لمصيره . فانتهت دولته بسقوط حرّان وزالت من خريطة العالم القديم هذه الدولة التي شغلت تاريخ المنطقة طوال قرون في ظروف مأساوية تدعو إلى التأمل والتفكير .

ما سبب هذه الهزائم التي لحقت أخيراً بالجيش الذي بقي زماناً طويلاً لا يقهر ! ربما يمكن تفسيرها باتساع خطوط الدولة وبقلة العناصر اللازمة للدفاع أمام جحافل القوى الغازية . وباختلاف مستوى التسلح بين الخصمين فالقوات الأشورية كانت تتألف في معظمها من الرماة حملة الأقواس ، أما الكيميريون والسكيثيون والميديون فكانوا من الفرسان . وهكذا اتخذت الحرب شكل الصراع بين الفرسان والمشاة . ويبدو مع ذلك من غير الصحيح تماماً تفسير سقوط الدولة الأشورية بهذا الشكل

بعامل الغزو الخارجي . فالتحليل الدقيق للوضع في الدولة الأشورية يوضح ما كان يعاني منه القصر الملكي في نينوى من اضطراب . فقد أتاح نظام الدولة للأمراء وكبار الكهان وللنساء دوراً للتدخل في شؤون الدولة وفي تحريك الأحداث فيها . فعند البحث في نظام الدولة في تطورها الداخلي يمكن أن نلاحظ أن هذه الامبراطورية الأشورية الواسعة كانت تدار كما كانت تدار في بدايتها عندما كانت مدينة . وعندما اتسعت المشكلات الناجمة عن تشكل دولة كبرى اكتُفي بتوسيع التشكيلات التقليدية للدولة ومؤسساتها . وهكذا ربما لم تكن الدولة التي سقطت في أواخر القرن السابع ق . م سوى صورة منسوخة من الدول الرافدية التي سبقتها قبل قرون عديدة .



الامبراطورية الآشورية في القرن ٧ ق . م

الفصـــل الحـادي عشـر

العصــر البـابـلي الـثـانــي
الكـلـدانيــون (٦٠٩ ــ ٥٣٩ ق.م)

يرتبط هذا العصر بأكثر عصور تاريخ بلاد الرافدين ازدهاراً وغنىً وعمراناً وهو عصر نبوخذ نصر. ورغم زوال المدينة من الوجود منذ نحو ألفي عام فما يزال اسمها يحيي في الذاكرة أروع صفحات التاريخ في الشرق الأدنى القديم. ولا يعرف لماذا دعيت باسم (بابل)، الذي كان يقرأ بالأكّدية باب ــ إيلي = (بوابة الإله) وهي لم تكن في العصر الأكدي سوى قرية صغيرة أو محطة[1] ولم تصبح مدينة لها أهمية إلّا في الألف الثاني ق.م، وعلى الأخص في عصر حمورابي وأسرته الأمورية. وبعد أن خمدت جذوتها وضعف مركزها مدة طويلة أمام أشور ولم تسترد دورها بوصفها عاصمة منافسة لأشور إلّا عندما دخلها نابو بولاصر الكلداني وأعلنها عاصمة له في ٦٢٦. تحدث هيرودوت عن محيط أسوارها التي بلغت ما يعادل نحو ثمانية عشر كيلومتراً. وكانت المدينة تتسع لما يقرب من ربع مليون نسمة. وهي تشتهر بالجنائن المعلقة، التي عدّت من عجائب الدنيا، والتي شيدها الملك البابلي نبوخذ نصر (لزوجه الميدية أميتسن. وأقدم من ذكر هذه الجنائن الكاتب البابلي بروسوس الذي عاش في مطلع القرن الثالث ق.م وكتب باليونانية كتاباً عن تاريخ بلاده، لكنه ضاع وانتقلت فقرات منه إلى كتب عدد من المؤلفين الكلاسيكين، مثل استرابون (٦٤ ق.م ــ ١٩ م).

وأضحت بابل عاصمة بلاد الرافدين في هذا العصر الذي ندعوه بالعصر البابلي الثاني.

---

(١) ذكرت في المصادر السومرية بابيلا (بورجر، فون سودن).

١ ـ بابل الثانية : قوة دولية جديدة

بعد سقوط الامبراطورية الأشورية ، سيطر البابليون على بلاد الرافدين كلها . وبعد عام فقط من الانهيار النهائي للمقاومة الأشورية كان **نابو بولاصّر** في عام ٦٠٨ يقود عمليات عسكرية على حدود أورارتو القديمة . وفي السنة التالية ٦٠٧ كان ابنه نبوخذ نصّر يقود عمليات أخرى في مناطق جبلية يرجح أنها كانت في تلك المنطقة أيضاً . ولا يسجل بعدئذ أي ذكر لحملات نحو تلك المناطق الشمالية بعدئذ . ويبدو أن خطاً للحدود بدأ يتشكل بين منطقتي النفوذ الميدي والبابلي كان يتبع مجرى دجلة بدءاً من نهر الزاب وامتد إلى ما وراء طوروس باتجاه حرّان ، وبقيت عيلام ضمن منطقة النفوذ البابلي ، وعاد المصريون إلى سورية . وامتدت خطوطهم فيها ، كما رأينا ، إلى كركميش شمالاً . إلّا أن هذا النفوذ كان سطحياً ، واعتمد على عدد من المراكز العسكرية وعلى تأييد بعض الحكام المحليين مثل يواقيم ملك يهوذا الذي كان يحكم في منطقة محدودة في جنوب فلسطين .

وقد كان هذا النفوذ المصري ملموساً عندما تحرك نبوخذ نصر نحو كركميش فجابهه المصريون بتحركات على طول الفرات . لكن المدينة سقطت سريعاً بيد بابل ، ولاحق الجيش البابلي فلول الجيش الفرعوني المؤلف من المرتزقة المجندين من الأحباش والليبيين والليديين وهو ينسحب جنوباً نحو حماة . ولكن لا تنص السجلات على وجود الفرعون نخاو شخصياً في هذا الجيش . وتدور الشكوك حول حجم الانتصار البابلي كركميش ويرجح أنه سقوط للموقع المصري الفرعوني وليس هزيمة لجيش كبير . ولم يمض زمن طويل حتى سقط معظم سورية وفلسطين بيد قوات نبوخذ نصر الذي لم يمض إلى أبعد من ذلك واضطر إلى العودة إلى بابل لوراثة عرش أبيه على رأس المملكة البابلية الثانية وقد تمكن من تسلّم الحكم دون أية معارضة وتم الاعتراف به في كل أرجاء الامبراطورية .

كان عهد نابوبولاصر مكرساً لمحاربة أشور . ويمكن أن تكون حروبه معها من نوعية الحروب الأهلية . وما يزال كثير من تفصيلات الأحداث غير معروف بالضبط ، مثل مسألة رفع الحصار عن نيبور والظروف التي أدت إلى القطيعة بينه وبين ملك أشور ، سين شِرِ إشكون وبدء الصراع بينهما . وهناك نقص كبير في توثيق الأحداث في تلك الفترة الدقيقة . وكان نابو.بولاصر حذراً جداً في تحركاته ، وكانت أشور ما تزال تتمتع بهيبة عسكرية كبيرة ، ولذا فإن العاهل البابلي وهو يتقدم لتحطيم الامبراطورية الأشورية كان يمسك بميزان دقيق يوازن فيه بين القوة والحيلة ، مستفيداً إلى أقصى حد من تحركات حليفه الميدي .

ولا بد أن تقسيم الامبراطورية بين المنتصرين قد طرح مشكلات ولا ندري ما إذا كان وجد بهذا الصدد اتفاق مكتوب لتقاسم مناطق النفوذ بعد إسقاط أشور. وهناك إشارات إلى أبعاد مناطق النفوذ البابلي. فقد قام نبوخذ نصر بتنفيذ أعمال عمرانية في سوسة (عيلام) وكانت سلطته شمالاً تمتد إلى أرابخا (كركوك)، بين الزاب الأدنى ودجلة وفي غوتيوم في وادي الزاب الأعلى. فمناطق عيلام وزاغروس إذن كانت تابعة آنذاك لبابل ولكن لا شيء يدل على أن ذلك كان على عهد نابو بولاصر. وفي حين كان الجيش البابلي يتحرك في أطراف أورارتو بين ٦٠٨ ــ ٦٠٧ نجد ذكراً للميديين في منطقة حرّان في ٥٥٦. وقد ردّ قوروش فيما بعد لنابونيد آخر الملوك البابليين تماثيل أشور كما لو أنه يعترف بأن هذه المنطقة هي حق طبيعي لبابل. فهل تقدم هذه المؤشرات صورة للحدود التي أقيمت بين الامبراطوريتين الجديدتين.

٢ ــ نبوخذ نصر الثاني (نابو كودورّي ــ أوصّر) (٦٠٤ ــ ٥٦٢)

على الرغم مما خلّفه العاهل البابلي العظيم من آثار ونقوش فإن كثيراً من الغموض ما يزال يحيط بحكمه. وأغلب هذه النقوش الكتابية هي نقوش تذكارية لتخليد الأعمال الانشائية والعمرانية التي تمت في أيامه في بابل. ولكن هذه الوثائق لا تطلعنا على فعاليته السياسية. حتى أن ما ذكر في نقش وادي بريصا على الساحل اللبناني لا يعدو أن يكون ذكراً لبعض الإنجازات العسكرية بصورة موجزة. ويسرد أحد النصوص الإخبارية أخبار بعض الحملات العسكرية التي تمت في السنوات العشر الأولى من حكمه كلن أخبار الأحداث التي وقعت بعدئذ لم نتمكن من الاطلاع عليها إلّا من خلال بعض الوثائق الجزئية أو من مصادر غير بابلية كالمرويات والتنبوءات التي وردت في سفر إرميا. وهكذا فإن الاستيلاء على القدس في ٥٩٧ وعمليات نفي السكان بالسبي إلى بابل وغيرهما ثم ما وقع في ٥٨٧ و ٥٨٢ لا ترد إلّا في المصادر التوراتية التي تتحدث عن تلك الأحداث. ومثل هذه الأحداث التي أبرزها الكاتب التوراتي كانت من الأحداث المتكررة المعتادة في ممالك ودول الشرق الأدنى القديم.

كان نبوخذ نصر يقطع الأراضي السورية عبر الفرات طولاً وعرضاً كل عام طوال عشر سنوات (حتى العام ٥٩٤) لفرض هيبة الدولة وجمع الغنائم. وإننا لا نملك أية تفصيلات للأحداث التي وقعت بعد ذلك التاريخ. ويبدو أن سقوط كركميش لم يكن حاسماً في فرض سيطرة الدولة على كل المناطق الواقعة غربي الفرات. فقد اضطر الملك البابلي إلى تنظيم سلسلة من الحملات المتعاقبة للقضاء على النزعات الانفصالية لدى بعض الحكام المحليين وبخاصة في فلسطين بتأييد الفرعون المصري.

ففي ٦٠٤ دخل الجيش البابلي مدينة عسقلان على الساحل الفلسطيني الجنوبي وسيق ملكها أسيراً إلى بابل ، إلّا أن هذا الجيش لم يصطدم بالجيش المصري مباشرة . وقد قام نبوخذ نصرّ عام ٦٠١ بمحاولة للتقدم نحو مصر ولكنه أخفق في محاولته مما شجع بعض الحكام المؤيدين لمصر على التحرك أملاً بتغير الأوضاع الدولية .

وهكذا أعلن ملك يهوذا الذي كان يحكم مملكة صغيرة في جنوب فلسطين نقض السلم مع ملك بابل دون أن يلتفت إلى نصائح النبي إرميا فضرب نبوخذ نصر الحصار حول مملكة يهوذا يؤيده الأدوميون والمؤابيون والعمونيون . وفي العام ٥٩٨ تقدم ملك بابل إلى أوريشلم وهي القدس وضرب الحصار حولها وفيها يوياقين الذي خلف أباه إلى أن سقطت المدينة في ٢ آذار ٥٩٧ . وسيق الملك مع أفراد أسرته وكبار موظفيه ونخبة من السكان أسرى إلى بابل . وقام نبوخذ نصر بعد ذلك بتعيين متاثيا ملكاً جديداً على يهوذا ودعاه **صدقيا** . وقد أثرت هذه الأحداث على المجتمع اليهودي الذي تبلوْر فيه اتجاهان متعارضان : الأول كان يؤيده النبي **حنانيا** الذي كان يتمتع بتأييد مصر ويدعو إلى مقاومة السياسة البابلية وإلى عودة يوياقين إلى عرشه . أما الاتجاه الثاني وكان على رأسه النبي **إرميا** ، فكان ينادي بالتخلي عن الوعود المزيفة بالعودة وإلى القبول بالمصير الذي هو إرادة الرب (يهوه) الذي كان يعاقب المذنبين على يدي ملك بابل . وقد قادت هذه الظروف المجتمع اليهودي إلى التشكك في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة ، ودخلت طقوس غير يهودية المعبد اليهودي . ونهض النبي إرميا حاملاً النير في عنقه تعبيراً عن قبوله بالخضوع لملك بابل انطلاقاً من القبول بالقدر الإلّهي داعياً إلى التهيؤ لنفي طويل ، وبانتظار ساعة الخلاص يكون على المؤمنين العمل من أجل البلاد التي استقروا فيها ، بينما قام حنانيا ، تعبيراً عن موقفه المضاد ، بكسر النير الذي كان يطوّق عنق إرميا الذي سيق إلى السجن . بينما اندلعت في بابل أحداث عنيفة دفعت الملك إلى القضاء على عدد من مثيريها .

كان صدقيا رجلاً ضعيفاً وغير قادر على اتخاذ قرار محاطاً بحاشية ضعيفة وبرجال تافهين . تتجاذبه التيارات المتضاربة . كان خاضعاً لتعاليم النبي إرميا بينما كان يضطهده . ودون روية أو حساب للعواقب تقدم خطوة مدمّرة بالانصياع إلى نصحائه والانضمام إلى التحالف الذي تكوّن بتأييد الفرعون المصري مع عمون والمدن الفينيقية بينما وقف الأدوميون والمؤابيون والفلسطيون في غزة والساحل الجنوبي على الحياد . وكان رد نبوخذ نصر سريعاً . فجاء بقواته إلى الساحل فأخضع مدن فينيقية وحاصر صور ، ثم دخل أراضي مملكة يهوذا مدمراً الحصون والقلاع وضرب حصاراً على أوريشلم (القدس) عام ٥٨٩ . ونجح في الخروج من الحصار أحد قادة الجيش كبار ياهو وتوجه إلى

مصر يطلب النجدة وبعد عامين (في ٥٨٧) سقطت المدينة، وقبض على صدقيا في أريحا وهو يحاول الفرار. وسيق إلى مقر قيادة الملك في ربلة على العاصي[٢]. وهي تقع على مقربة من بحيرة قطينة على الطريق بين حمص وبعلبك ليشهد مصرع ابنه أمام ناظريه قبل أن تفقأ عيناه. ثم اقتيد أسيراً مقيداً إلى بابل مع فوج آخر من السبي. وفي هذه الاثناء قتل حاكم القدس الذي كان عينه البابليون، وهو **جدلياهو** (جدولياس) ويتحدث سفر إرميا عن هذه الأحداث بالتفصيل (إرميا ٥٢ : ٣٠). ويبدو أن هذا الحادث لم يكن فريداً فالمناطق الأخرى في سورية وفلسطين قاومت الحكم البابلي بقوة، كما حدث أيام التوسع الأشوري. إلّا أننا لا نملك دائماً الوثائق الكافية لمعرفة التفاصيل. فلا يعرف مثلاً كيف كان مصير مملكة يهوذا في تلك الظروف الحاسمة التي تتحدث عنها الكتب الدينية. بينما لا نجد أية مصادر أولية عن مصير دول أخرى في سورية وفلسطين.

لقد عانت الدويلات السورية ــ الفلسطينية، وهي غالباً دويلات ــ المدن الساحلية، كثيراً من مطامع الملوك المستبدين في وادي النيل ووادي الرافدين، ولم يكن أمام هذه الدويلات في فترة التوسع البابلي إلّا التحالف والثورة وانتظار تأييد موهوم من الفرعون المصري.

لقد كان الوضع الدولي في الشرق العربي القديم بعد سقوط الامبراطورية الأشورية يقوم على التوازن بين أكبر قوتين وهما بابل ومصر بينما امتد نفوذ الميديين على ايران وشرقي الأناضول. وعلى الرغم من تفوق بابل في سورية وفلسطين فإن مصر كانت ما تزال تمثل قوة هامة في المنطقة. وقد أخفقت محاولتا نبوخذ نصّر في ٦٠١ و ٥٦٨ لدخول مصر. ولم يتمكن الفراعنة من استرداد مواقعهم المفقودة في فلسطين. ولئن تمكن الفرعون نخاو من التقدم في فلسطين عن طريق غزة، فإن الفرعون أحمس الثاني بعده حاول التدخل أثناء حصار أوريشلم وأرغم نبوخذ نصر على نشر قواته لكنه لم يتمكن من منع تحقيق انتصار حاسم في المدينة المقدسة التاريخية. وكان الفرعون المصري أكثر نجاحاً في صور التي امتد حصارها ثلاثة عشر عاماً. وكانت تتلقى المعونة والمؤونة عن طريق البحر. ويمكن القول إن توازناً دولياً جديداً قد أقيم بعد المحاولات الفاشلة من كلا الطرفين لقهر الطرف الآخر.

لم تحل هذه السياسة الخارجية الحربية للعاهل البابلي نبوخذ نصر دون متابعة سياسته الداخلية العمرانية والإصلاحية التي سار عليها ابنه بعده. فقد حشدت الجهود لكري الأقنية المهملة وترميمها ولإعادة تعمير المدن والمعابد المخرّبة. وأخذت الحياة في بابل وبلاد الرافدين عامة تعود إلى فعاليتها

(٢) ر. دوسو: R. Dussaud, la topographie historique de la Syrie antiqne et Medievale Paris 1927 p.108.

السابقة، وفق تقاليدها العريقة المعهودة. وأخذت تعود إلى الدولة مكانتها بجانب المعابد التي احتفظت بدورها الريادي في تنظيم الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية إبّان الاضطرابات السابقة. وتدل النقوش والنصوص المكتشفة على أن الملك قدّم منحاً سخية لإعادة العمران إلى المدن القديمة: أور، أوروك، لارسا، دلبات، كيش، كوثى، بورسيبا، سيبار.. ولكن بابل هي التي حظيت بالنصيب الأوفى من الرعاية الملكية.

مدينة بابل

كانت بابل مدينة رباعية الأضلاع تمتد على ما يقارب عشرين كيلومتراً محاطة بسور مزدوج، تحميها قناة مائية. ولها ثمانية أبواب: الباب الشمالي وهو باب إشتار (عشتار)، ويفتح على طريق الموكب الديني الاحتفالي الذي يمتد من مزار الأكيتو (رأس السنة) إلى معبد مردوك الواقع في وسط المدينة. وكان الباب مغطّى بالآجر الخزفي الملّون اللماع الموشى بأشكال بارزة تمثل الثيران والتنين، وهي ملونة بالأصفر والأزرق. وليس بعيداً من هنا نجد القصر الملكي القائم على جدار السور والذي يشكل بتداخل قاعاته وغرفه وممراته متاهة حقيقية. ولم يمكن بعد معرفة وظائف أقسام القصر ما عدا قاعة العرش الكبرى التي يبدو في وسط الجدار الرئيس فيها محراب العرش. بينما تمتد في الجهة الجنوبية كتلة معبد معبد الإساجيل = معبد مردوك المبني على النسق المعروف على ضفتي الفرات في بابل وماري وأمورو.. وهو يضم غرفة قدس الأقداس يتقدمها مدخل ينفتح على بهو محاط بالمزارات الثانوية وبالمخازن والمستودعات والمشاغل. وإلى جانب المعبد برج بابل المدرج الذي يظن أنه كان يرتفع إلى ما يقرب من مائة متر. وفي بابل ما يزيد على خمسين معبداً كرس كل منها لرب من أرباب مجمع الأرباب البابلي ومنها: نابو، وإشتار، وتشميتوم، ونين مخ، ونينورتا وأدد ونرجال، وإلى الشمال الشرقي امتدت الحدائق المعلقة التي عدت بين عجائب الدنيا.

٣ ـ بابل من الأوج إلى الإنهيار

كانت تختفي وراء مظاهر القوة التي تمتعت بها بابل، حقائق الوضع المهدّد في بلاد الرافدين كلها. وتشير دلائل عديدة إلى ما كانت تعاني منه بابل من اضطراب داخلي عميق، وعلى وجود حركات معارضة قوية ضد الملك قمعت بالسلاح. وقد نشر فيدنر دراسة قيمة لمحاكمة، جرت في عام ٥٩٤، لأحد المعارضين بتهمة الخيانة العظمى وللحكم الذي صدر عليه بالموت من مجلس الأعيان[٣].

---

(٣) حول المحاكمة انظر:

E. Weidner, Hochverrat gegen Nabukadnezer II, Afo, 17, 1954-1956, p.1-5.

وربما كان هناك أكثر من حادث من هذا النوع لأن بعض الوثائق تشير إلى نقض العهود (آدي = Adé) مع الملك ، وهي مسألة بالغة الخطورة ، لأن توثيق العهود بين الملك والأطراف المتعاقدة معه من الأمراء والقادة وكبار رجال الدولة ، بقي في العصر البابلي الثاني ، كما كان الوضع في العصر الأشوري هو الأساس المعتمد في بناء الحكم في الدولة البابلية الثانية .

خلف نبوخذ نصّر ابنه **أويل مردوك** الذي حكم مدة قصيرة قرابة سنتين (٥٦١ ــ ٥٦٠) . وقد اختلفت الآراء حول سياسته إلّا أنه أعْفَى عن الملك اليهودي الأسير يوياقين وأطلق سراحه . إلّا أن ابن حميّه **نريجليسار = نرجال شر أوصّر** أبعده عن العرش واحتل مكانه مدة أربع سنوات أنجز خلالها بعض الأعمال العمرانية وقام بحملة على كيليكية الواقعة شمال خليج الاسكندرونة . ولم يستطع ابنه لاباشي مردوك أن يحتفظ بالحكم أكثر من شهرين فقد قتل على أيدي متآمرين رفعوا إلى العرش نابونائيد الذي لم يواجه في بادىء الأمر معارضة شديدة لسلطته في حين كانت تتطور قوة الميديين على الحدود الشرقية .

وبعد أن عزّز الميديون مواقعهم على الحدود الشرقية للمملكة البابلية أخذوا يوسعون نفوذهم على الحدود الشمالية لبلاد الرافدين . فقد سيطروا على معظم أراضي أورارتو القديمة وتوسعوا في آسية الصغرى حتى بلغوا غرباً حدود مملكة ليديا الواقعة على بحر إيجة . ولم تتوقف الحرب إلّا بعد خمس سنوات بعد أن اتفق على عدّ نهر الهاليس في وسط الأناضول حداً فاصلاً بين ميديا وليديا .

وبعد موت الملك الميدي كي أخسار خلفه ابنه أستياجس (أشتو ميغو) . وقد تطور وضع الميديين على الحدود الرافدية ، فبينما انصرفوا أيام نبوخذ نصر إلى بسط نفوذهم ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ظهروا على حدود الامبراطورية البابلية أيام نابونائيد .

٤ ــ آخر ملوك بابل : نابونائيد (نابونيد) ٥٥٦ ــ ٥٣٩

نابونائيد هو آخر ملوك بابل في العصور القديمة وآخر الشخصيات الكبيرة في تاريخ بلاد الرافدين القديم(٤) . كان شخصية متميزة وغريبة . حكم بابل في ظروف دقيقة تهددتها فيها الأخطار

(٤) حول نابونائيد انظر :

Garelli, P. le Proche-Orient Asiatique

II, Paris 1974. p. 154-156; Garelli, P. D. B. S. V, 275.

Lambert, (W. G.) Nabonidus in Arabia, Seminar for Arabien Studies, London, 1972,

من داخلها ومما حولها. وفي الظروف التي حكم فيها بلاده كانت له مواقف ما تزال غير مفهومة بصورة تامة. ولم تتضح بعد الأهداف السياسية التي كان يرمي إليها.

كان والده حاكماً (شاكا ناكو) على إحدى المقاطعات، وكانت أمه كاهنة في معبد إلّه القمر سين (شَهَر) في حرّان (الواقعة في الجزيرة العليا). وربما كان من أصل آرامي على الرغم من صيغة اسمه البابلية. وهو يعترف، كما ورد في نصّين منقوشين على نصبين تذكاريين في الحلة (في العراق)، وفي حرّان (في سورية) بأنه لا ينحدر من أصل ملكي.

صعد نابونائيد العرش بمؤامرة. وكان يطمح إلى أن يكون حكمه مكملاً لحكم من سبقه من العواهل الكبار: نريجليسار ونبوخذ نصر، وغيرهما من ملوك بابل وأشور الأقوياء. ومن الملفت للنظر أنه في كتاباته تجاهل الملوك الضعاف الذين مرّوا بتاريخ بابل وأشور. ويبدو أن دوافع امبراطورية كانت تحركه وتدفعه إلى العمل على إحياء بابل القوية كما يتضح من ترجمة حياة أمه التي كتبت بإشرافه. وكان تأثير هذه المرأة كبيراً عليه في تربيته تربية عالية في القصر الملكي أيام نبوخذ نصر ونريجليسار. وعملت على تنمية ولائه للإلّه سين، وعلى حثه على اتخاذ قرارات هامة بعد وصوله إلى الحكم.

فعند صعوده العرش في ٥٥٦ تلقى نابونائيد في حلمه أمراً من الإلّه مردوك كما تزعم النصوص بأن يبنى معبد (أُهُلْهُل) لعبادة الإلّه سين (الهلال ـــ القمر ـــ شهر) في حرّان الذي بقي خراباً منذ سقوط آخر معاقل المقاومة الأشورية في ٦١٠. وكان الملك شديد الاضطراب من تقدم الميديين لولا أن هذا الإلّه هدّأ من روعه وبشره بزوال الميديين. انتقل الملك إلى لارسا عام ٥٥٥ حيث أشرف هناك على إنجاز بعض الأعمال الادارية. ومنها توجه في سلسلة من الحملات استمرت ثلاث سنوات في سورية ووصل جنوباً حتى أدوم وأطراف مدين على خليج العقبة وعلى مقربة من سيناء والحجاز.

وفي العام الثالث من حكمه (٥٥٣) تحققت النبوءة الإلّهية بانسحاب الميديين من حرّان عندما نهض قوروش الفارسي ملك أنزان ثائراً ضد استياجس فأسرع نابونائيد إلى بناء معبد أُهُلْهُل في حرّان مثيراً حفيظة معبد مردوك في بابل. واندلعت اضطرابات كبيرة في بابل وبورسيبا ونيبور واور وأوروك ولارسا. لكن الملك لم يتخاذل وأوكل مهام إدارة بابل إلى ابنه بلشاصر (بل شر أوصّر) وتوجه هو بنفسه إلى واحة **تيماء** التي كان احتلها في ٥٥٢ مع عدد من مدن الحجاز دادانو (ددان)، باداكو (فدك) وخبرا (خيبر) ويدع ويثرب. وأقام عشر سنوات في بلاد العرب بعيداً

عن قاعدة ملكة في بابل وحرّان ، معطلاً بذلك احتفالات أكيتو التقليدية التي كانت تقام في رأس كل عام جديد وتبلغ ذروتها في بابل .

وقد تطور الوضع الدولي في أثناء ذلك بسرعة إذ تمكن **قوروش** الفارسي من ايقاع هزيمة ماحقة بخصمه استياجنس الميدي واحتل عاصمته إقباتان (همذان) وتمكن من توحيد القبائل الميدية الشمالية والفارسية الجنوبية بزعامته وبعد ثلاث سنوات وجه قوروش أنظاره نحو الغرب أي إلى ما وراء زاغروس باتجاه بلاد الرافدين . وأمام هذا الخطر الجديد على التوازن الدولي قام تحالف ضم ملوك بابل ومصر وليدية حسب رواية هيرودوتس . على أن قوروش كان يتصرف بسرعة مذهلة . فقد اندحر ملك ليدية وانسحب ليلتجئ إلى عاصمته **سارديس** على بحر إيجة دون أن يتمكن من طلب النجدة من حليفيه . فعاجله قوروش بمحاصرته إلى أن سقطت سارديس بعد أربعة عشر يوماً .

وهكذا قامت على الحدود الشرقية والشمالية لبابل وبلاد الرافدين قوة دولية هائلة تمتد خطوطها من فارس إلى بحر إيجة . وعلى الرغم من هذه التطورات المقلقه لم تبدر من نابونائيد أية بادرة ، ولم يحمله ابتعاد قوروش إلى ما وراء النهر على تعديل برنامج إقامته في جزيرة العرب .

وما تزال مسألة إقامة الملك البابلي في تيماء سراً . وأكثر الدوافع قبولاً لتحركه في الواحة العربية وفي الحجاز ربما كان الدافع الديني . فتيماء كانت مركزاً دينياً كبيراً لعبادة القمر الذي انتشرت عبادته في أنحاء المشرق العربي القديم في أشكال مختلفة : في أور في جنوب الرافدين وفي حرّان وفي النيرب ، جنوبي حلب وفي تيماء وسيناء وفي اليمن .. وليس من المقبول عزو تصرفه إلى هذا العامل الديني وحده . ولا يجوز نفي العوامل الأخرى الدافعة . وربما كان أهمها آنذاك دافعاً مركّباً ، دينياً ـــ سياسياً ـــ استراتيجياً .

ففي تيماء تتصالب الطرق القادمة من الغرب ومن الجنوب متجهةً إلى الخليج ، والمؤدية إلى دمشق شمالاً وإلى الحجاز واليمن جنوباً . وقد ذكرت في النصوص الأشورية (من زمن توكولتي إبيل إيّسارا) بوصفها مدينة تجارية على طرق القوافل .. فهل كان الملك البابلي نانونائيد مؤيداً لتوجه يرمي إلى توحيد العالم البابلي ـــ الأشوري ـــ الآرامي ـــ العربي بقوة متحالفة برعاية عبادة الإله سين ومراكزها الكبرى في أور وحرّان وتيماء لحشد التأييد لدولة كبرى في الشرق العربي يمكن لها أن تقف في وجه التحرك الهندو ـــ أوربي المتنامي والمتقدم نحو بلاد العرب ومراكز الحضارة في المشرق القديم .

لقد طرح هذه الفرضيات عدد من الباحثين ومنهم ت . باور ، و ب . لاندسبرجر وعرضها

ب. غاريلي[٥]. وربما كان الملك البابلي يحاول أن يعزز خطوطه الخلفية في جزيرة العرب بين اليمن والشام بعد ظهور قوة دولية مجاورة كبيرة وراء زاغروس دون أن يهمل قاعدة ملكه في بابل؟!

ومهما يكن فإن نابونائيد غادر تيماء نحو ٥٤٢، وافتتح معبد القمر (أهلْهُل) في حرّان باحتفال كبير، ولا تعرف حتى الآن التدابير التي اتخذها لتفادي تدهور الموقف مع الملك الفارسي. لكن الأمور توالت بسرعة كبيرة خلال خريف ٥٣٩، وفي شهر تشرين الأول تحرك قوروش يؤيده جوبرياس حاكم غوتيوم (منطقة ديالى) الذي انضم إليه فاحتل سيبار ودخل بابل فجأة حيث قتل بلشاصر بن نابونائيد في قصره بينما قبض على الملك البابلي نفسه في ٢٩ تشرين الأول ودخل قوروش بابل دخول الظافرين. هكذا سقطت بابل الثانية آخر دول بلاد الرافدين القديمة. ولا يُدرى مصير آخر ملوكها إذ لا توجد نصوص حول هذا الموضوع، وتتضارب آراء المؤرخين الكلاسيكيين (كزينوفون وبروسوس ويوسفوس) بهذا الصدد. واتخذ قوروش لنفسه لقب ملك بابل، ملك البلاد، وسمى جوبرياس حاكماً على البلاد التي أضحت ولاية في الامبراطورية الفارسية الأخمينية التي كانت حتى ذلك العصر أوسع امبراطورية شاملة في تاريخ الشرق الأدنى القديم امتدت من السند وأفغانستان شرقاً إلى بحر إيجة والمتوسط وبرقة غرباً.

وقد استأنفت الحياة مسيرتها في ظل الحكم الجديد الذي كان من أول قراراته السماح لمن تبقى من اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر إلى بابل قبل خمسين عاماً، بالعودة إلى فلسطين وأن يحملوا معهم أمتعتهم الثمينة. وغدا قوروش ذلك العاهل الذي وحّد بشخصه العقائد المتنافرة في الشرق القديم: آمن بأهورا مزدا وسمّاه مردوك وصياً على العالم ويهوه راعياً مسيحاً.

هكذا سقطت الامبراطورية البابلية الثانية (الكلدانية) وهي في ذروة قوتها سقوطاً سريعاً مأساوياً. ولا يعرف مدى شعور المعاصرين بما حدث من تغيير. وربما بدا وكأن ما جرى كان من التقلبات العادية في الدول. فقد حلّ قوروش محل نابونائيد كما حلّ هذا محل لاباشي مردوك من قبل. ولكن مهما يكن فإن ما حدث في ٥٣٩ كان هائلاً بنظر المؤرخ الذي يراقب تطور الأحداث على المدى الطويل. فهو مؤشر على تغيير كبير وعلى نهاية عصر وبداية عصر جديد. لكنه لم يكن حدثاً فريداً ومفاجئاً، فقد كان بصورة ما تكراراً لسقوط الامبراطورية الأشورية ومصرعها الفاجع الذي هزّ في حينه، قبل سقوط بابل بسبعين عاماً، الشرق القديم كله وقلب موازين القوى مؤذناً ببداية عصر جديد.

---

(٥) P.Garelli, le Proche-Orient-Asiatiqne II, P. 248.

٥ ـــ عصر جديد في تاريخ الشرق القديم

ربما كانت التطورات التي أدت إلى سقوط أشور في أواخر القرن السابع ق.م أسرع مما تصوره الناس في تلك الأيام. لكن التطورات التي أدت إلى انهيار بابل في أواخر القرن السادس كانت أكثر تسارعاً. فلم يكن حكّام بابل بعد نبوخذ نصر قادرين على استيعاب ما جرى في المنطقة من تغيرات بشرية وعسكرية ـــ سياسية. فقد شغلت مشكلات وراثة العرش في بابل اهتمام الحكّام بينما كان يحدث في المنطقة انتقال سريع لمراكز القوى المحركة لمجرى التاريخ.

وبانتصار الكلدانيين كانت بابل قد عادت إلى مسرح الأحداث بعد خمود دام ما يقرب من ألف عام لتحتل مكانة دولية مرموقة خلال القرن السادس. وكان هذا العمل من إنجاز نابو بولاصر الذي لم يكن بابلياً بل من أصول آرامية كلدانية، لكنه لم يكن مع ذلك إلّا ممثلاً للتقاليد السياسية البابلية كما صار ابنه وخلفه نبوخذ نصر فيما بعد. فبعد توطيد أركان الدولة كان عمل ذلك العاهل سلمياً بالدرجة الأولى فقامت نهضة بابلية في الفنون المعمارية والتشكيلية والآداب والحياة الاجتماعية والاقتصادية. وبدا وكأن بابل تحيي تراثاً يتصل بماض بعيد كانت فيه شخصية حمورابي وشريعته المثل الأعلى.

إلّا أن مطامع الكهنة الذين يمثلون المعابد المختلفة هي التي أدت إلى تقويض هذا البناء الجديد. والسبب في ذلك هو في النزعة المحافظة لدى هؤلاء الكهنة المرتبطين بمصالح متوارثة والذين كانوا يخشون من تصدع البنيات الاقتصادية القديمة لمجتمع المدينة الدولة مع قيام الامبراطوريات الكبرى والشاملة والأسواق الواسعة. فالقصر والمعبد كانا قد احتفظا بدور كبير في بنية المجتمع حتى ذلك الوقت وبخاصة بدور اقتصادي متفوق.

ويلاحظ أنه منذ القرن السابع بدأت تظهر في الحياة الاقتصادية للشرق القديم بودار تطورات نوعية هامة تمثلت في تكون ملامح رأسمالية خاصة ونشاط مصرفي كانت تتولاه أسرات وبيوتات حصّلت ثراء فاحشاً كأسرة موراشو[٦] مثلاً؛ ولكي نتفهم هذه التطورات الاقتصادية الهامة التي طبعت العصر سنلقي نظرة عجلى على الحياة الاقتصادية والتجارة في بلاد الرافدين في الألف الأول ق.م.

(٦) G. Cardascia, les Archives des. Murašu, Paris 1951.
أسرة موراشو البابلية مارست التجارة والأعمال المصرفية في العصر الفارسي في القرن الخامس ق.م.

٦ ـ الحياة الاقتصادية : التجارة في بلاد الرافدين في أشور وبابل في الألف الأول ق . م(٧)

من التطورات البارزة في الألف الأول قبل الميلاد في مجال التجارة والمواصلات التجارية شيوع استخدام **الجمل** كوسيلةً للنقل وخاصة من أجل عبور الصحراء .

ويتميز الجمل بصفات عديدة . فهو يستطيع أن يشرب ١٣٠ ليتراً من الماء مرة واحدة وبعدها يمكنه البقاء بدون ماء سبعة عشر يوماً في جو تبلغ حرارته ٥٧ درجة مئوية . وبالمقارنة مع الحمار يستطيع الجمل أن يحمل أحمالاً أكثر ، وأن يسير بسرعة أكبر وبالتالي يختصر وقت السفر . هذه الصفات أهَّلت الجمل لأن يحل محل الحمار كوسيلة نقل ، ولأن يسمى سفينة الصحراء .

١ ـ العصر الأشوري الحديث

على الرغم من كثرة الوثائق الكتابية العائدة إلى هذا العصر والتي تعطينا معلومات جمة عن الأحداث العسكرية والتطورات السياسية فإن الإشارة إلى التجارة والنشاط الاقتصادي فيها معدوم تقريباً . وما تزال الدراسات قليلة حول هذا الموضوع .

ولكن يمكن أن يكون أ . ل . أوبينهايم A.L.Oppenheim قد أصاب عندما قال إن التجارة قد ازدهرت في منتصف الألف الأول قبل الميلاد . هذه الحقيقة يمكن استخلاصها أنه قد ظهرت في الفن في آخر عهد الامبراطورية الأشورية الحديثة تأثيرات أجنبية عديدة . ففي سورية يجب أن تكون صناعة العاج قد تطورت بشكل بارز حيث أنها شهدت في هذا الوقت ازدهارها الكبير . ومن المؤكد أن العاج اللازم لذلك استورد من مصر إذ أن التأثير المصري واضح في هذه الصناعة .

وأصبح القطن معروفاً في هذا العصر ، وسنحريب الملك الأشوري (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق . م) هو الذي حاول إدخال زراعته إلى بلاد أشور .

٢ ـ العصر البابلي الحديث والمتأخر

كذلك بالنسبة لهذه الفترة فإن المعلومات المتعلقة بالتجارة قليلة . فالمؤرخ اليوناني هيرودوت Herodot يذكر في وصفه لبلاد بابل أن معظم السفن المتجهة نحو الجنوب كانت تُحمَّل بالخمر .

يمكن من عدة عوامل الاستنتاج أن التجارة كانت مزدهرة جداً في هذه الفترة . وكانت السفن تقوم برحلات عديدة عبر الفرات . تنقل التمور خاصة والمنتجات الزراعية الأخرى .

(٧) للدكتور عيد مرعي .

كانت تجارة التمور في أور مزدهرة في هذا الوقت . وتبين عدة نصوص من إدارة المعبد في أوروك من عهد آخر ملوك بابل نابونيد Nabonid أن بضائع مختلفة كانت تستورد بكميات كبيرة ، وبشكل خاص النحاس والحديد واستوردت الشبّة من مصر ، والأرجوان من فينيقية والخمور من سورية عن طريق تجار بابليين . وكان يقيم أجانب عديدون في بابل ، من ضمنهم فينيقيون ويونان . من الواضح أنهم كانوا وكلاء تجاريين يأتون إلى بابل لعقد الصفقات التجارية . أما وسيلة الدفع في التجارة فبقيت الفضة ، ولم يعرف البابليون في هذه الفترة العملة المسكوكة كما في ليديا في آسية الصغرى ولدى الأخمينيين .

عيلام

كانت عيلام بعاصمتها سوسة شريكاً تجارياً مهماً لجنوب بلاد الرافدين . وفي عهد سلالة أور الثالثة كان العديد من السعاة يسافرون من عيلام إلى لكش وأور . وفي أيام حكم ريم سين ملك لارسا كانت سوسة مرتبطة بشبكة تجارة لارسا عبر طريق بري .

ومورست التجارة في عيلام في العهد البابلي القديم بشكل مشابه لما كان عليه الوضع في بلاد بابل . أما عن تجارة عيلام في الفترات اللاحقة فلا توجد أية معلومات .

بعد هذا العرض الشامل عن تجارة بلاد الرافدين (انظر الفصلين ٩ ، ١٠) لا بد من التطرق إلى سؤال مهم وهو : هل كانت توجد أسواق تجارية في مدن الشرق القديم ؟

أجاب عدد من الباحثين عن هذا السؤال بالنفي ، إذ لم يعثر حتى الآن على آثار تدل على ذلك . ولكن هذا غير مقبول فالأسواق كانت موجودة في كل مدن الشرق القديم . نستدل على ذلك من التسميات المختلفة التي تدل على (السوق) في اللغة الأكادية ، مثل : سوقوم Sūqum ، ماخيروم mahirum ، كاروم Karum .

كذلك فإن الأسواق التجارية العامة لا تحتاج لأن تترك دلائل أثرية ، والعمليات التجارية يمكن أن تتم في الشوارع والساحات .

وهكذا نجد أنه بينما كانت كل مظاهر الحياة في الدين والآداب والفنون وفي كثير من المؤسسات تلتفت إلى الماضي البعيد كان الاقتصاد يتجه نحو المستقبل وكان التطور كبيراً من السوق المحلية الضيقة إلى الأسواق الكبرى في الدول الامبراطورية .

إلّا أن كل الجهود التي بذلت لإحياء الماضي اصطدمت بالتغيرات الدولية التي تمثلت بظهور الدول الإيرانية : الميدية ثم الفارسية التي حملت إلى الشرق القديم تيارات جديدة للتغيير .

٧ ــ خاتمــة

إن الرفض العضوي للظروف الدولية الجديدة أي عدم المقدرة على التلاؤم معها عند البابليين يقابله دخول القوى الجديدة التي كانت حتى ذلك الوقت تحتل مواقع ثانوية في مسرح التاريخ إلى ميدان التاريخ الواسع وهي على استعداد لتقبل التطورات الجديدة والتعامل معها . وكان باستطاعة هذه القوى أن تفيد من التقاليد الشرقية القديمة ولكن على أسس اقتصادية وروحية جديدة : ثروات هائلة ، أقوام وشعوب عديدة ، جيوش كثيفة وتسامح ديني يتسع لكل العقائد المعروفة . وحوار ثقافي يقبل الخطاب بكل اللغات : البابلية والآرامية والفارسية والعيلامية ...

إلّا أن التغيير البارز هو أنه انتقل مع قوروش مركز الثقل السياسي في الشرق لأول مرّة في التاريخ إلى عاصمة تقع خارج بلاد الرافدين أو وادي النيل إلى العاصمة الجديدة بازار جاديس ، وبعد مردوك وسين أضحت الديانة الزرادشتية المزدكية هي المحرك الأساسي للقيم الجديدة في الدولة .

وهكذا ينتهي في خضم هذه التغيرات تاريخ دول بلاد الرافدين القديم ليدخل تاريخ هذه البلاد بعدئذ في إطار الدول الكبرى التي تعاقبت على أرض الشرق الأدنى القديم منذ أواخر القرن السادس ق . م .

المصادر و المراجع

آ ـ المراجع العربية والمترجمة إلى العربية

١ ـ اندره إيمار ، جانين أوبويه ، الشرق واليونان القديمة من سلسلة تاريخ الحضارات العام ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٤ .
٢ ـ أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ .
٣ ـ توفيق سليمان ، اسطورة النظرية السامية ، دمشق ١٩٨١ .
٤ ـ جورج حدّاد ، المدخل إلى تاريخ الحضارة ، الجامعة السورية ، دمشق ١٩٥١ .
٥ ـ جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب ق . الاسلام بيروت ١٩٦٨ .
٦ ـ حتي . ف ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ترجمة ج . حداد و ع . رافق بيروت ، ١٩٥٨ .
٧ ـ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ٢ بغداد ١٩٥٦ .
٨ ـ عبد اللطيف أحمد علي ، حضارة الشرق الأدنى القديم ، بيروت ، ١٩٧٤ .
٩ ـ قاسم طوير ، إبلا (دراسات مترجمة عن ماتييه ، أركي . بتنانو ، إذزارد) ، ١٩٨٤ .
١٠ ـ لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة ، بيروت ١٩٧٩ .
١١ ـ محمد حرب فرزات ، مصر القديمة وحضارتها ، جامعة دمشق ١٩٨١ .
محمد حرب فرزات ، موجز تاريخ سورية القديم ، جامعة دمشق ١٩٨٣ .
١٢ ـ موسكاتي . س . الحضارات السامية القديمة ، روما ١٩٥٧ .

١٣ ـــ نجيب مخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ستة أجزاء ، ١٩٦٦ ـــ ١٩٦٧ .
١٤ ـــ هنري فرانكفورت فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة مخائيل خوري ، بيروت ١٩٥٩ .
١٥ ـــ بارو ، أ. ماري ترجمة رباح نفاح. دمشق ١٩٧٥ .

ب ـــ المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

١ ـــ أرنو ، د .

Arnaud, Le Proche- Orient ancien, Bordas, 1970.

٢ ـــ أبو عساف ، علي

Abou Assaf, P.Bordreuil, A.R.Millard,La Statue de Tell Fekheryé.. Paris 1982.

٣ ـــ بوتشلاتي ، ج

Buccellati, G, Cities and Nations of Ancient Syria, 1967.

٤ ـــ برنكمان ،

Brinkman, J.A, A Political History of Post Kassite Babylonia, Rome 1968.

٥ ـــ (موسوعة) كمبردج للتاريخ القديم

Cambridge Ancient History.. 1970..

إعداد عدد كبير من الباحثين المختصين (روش ، جاد ، سولبرجر) ..

٦ ـــ كونتنو . ج .

Conteneau. G. Lavie quotidienne à Babylone,.. Hachette, Paris, 1950.

٧ ـــ دونر ورولیج ،

Donner (H.), Röllig (W.) Kanaanäische u. Aramäische Inschriften, Wiesbaden, 1973.

٨ ـــ دوبون ـــ سومر

Dupont- Sommer, les Arameéns, 1949.

٩ ـــ دورم

Dhorme, E., les Religions de Babylonie et d'Assyrie, 1949.

١٠ ـــ ديهيه

Deshayes, J. les civilisations de L'Orient Ancien, Arthaud, 1969.

١ ــ إدزارد

Edzard, D. O. Kammenhuber, A. Hurriter,.. in Reallexikon der Assyriologie IV (1972-75), S. 507-517.

١ ــ فرزات

Farzat, H. Le royaume araméen d'Arpad, Paris 1972.

١ ــ فورر

Forrer, E. Die Provinzeinteilung des assyrischen Reiches Leipzig 1920.

١ ــ (موسوعة) فيشر لتاريخ العالم ،

Fischer Welt geschichte II, 3, 4 1966-1967.

١ ــ غرولو

Grelot, P. Documents Arameens d'Egypte, Paris, 1972.

١ ــ غوسنس

Goossens, G., Asie Occidentale ancienne, Gallimard Paris, 1956.

١ ــ غاريلي ، ب

Garelli, P. le Proche-Orient Asiatique I. II, 1969-1974.

١ ــ غاريلي . ب

Garelli, P. l'Assyriologie, Puf. 1964.

١ ــ غيرشمان .

Girshman, R. l'Iran des Origines à l'Islam, A. Michel 1951-1976.

٢ ــ هالو

Hallo, W. and Simpson W.K. The Ancient Near East, New York 1971.

٢ ــ جستان ، ر .

Jestin R. Abrégé de Grammaire Sumerienne 1951.

٢ ــ كنيون

Kenyon, K. The Bible and Recent Archaeology 1978.

٢ ــ كلنجل هـ .

Klengel, H. Handel u. Händler im Alten-Orient, Wien, Köln-Graz, 1979.

٢ ــ كلنجل . هـ .

Klengel, H., Hammurapi von Babylon, Berlin, 1978.

٢٤ ــ كلنجل هـ .

Klengel, H. Geschichte Syriens im 2. Jahrthausend Teil 1. 2. 1965-1969.

٢٥ ــ كوبر . ج . ر

Kupper. J. R. Les Nomades en Mesopotamie au Temps des rois de Mari, Paris 1957.

٢٦ ــ كنودسن ج . أ

Knudtzen. Die El-Amarua Tafeln 1-11. 1915-1964.

٢٧ ــ كريمر س .

Kramer. S.N. The Sumerians, Chicago. 1963.

٢٨ ــ لابات . ر .

Labat, R. Manuel d'Epigraphie Akkadienne, Paris 1963.

٢٩ ــ لامبرت ، ج

Lambert, W. G. Nebuehadnezzer King of Justiee, Iraq 27, (1965).

٣٠ ــ لامبرت . ج

Lambert, W.G.A New source of The reign of Nabunidus Afo 22, 1968-1969.1-9.

٣١ ــ ليفي س . ج

Levy. S. J. Tow Cylinders of Nebuchadnezzer, Sumer, 3, 1947, 4-18.

٣٢ ــ لومير ودوران

Lemaire et Durand, les inscriptons Arméennes de Sefiré et l'Assyrie de Ŝamŝi-ilu-Paris, 1984.

٣٣ ــ ليمانس . ف

Leemans, W. F. Foreign Trade in the O.B. Period, Leiden 1960.

٣٤ ــ ليمانس

Leeman W.F. Handel (Mésopotamien) in R. L. A. Band IV, 1972. S. 76-95.

٣٥ ــ مورتغات . أ

Moortgat, A. the Art of Acient Mesopotamia London, 1969.

٣٤ ــ مرعي ــ عيد

Mari, A. Der Handel Zwischen ,Syrien u. Babylonien in 18. Jahrhundert v. c. Würzburg. 1985.

٣٦ ــ ماتيه . ب

Mattliae. P. Ebla. An Empire Rediscovered London 1980.

٣٧ ــ أوبنهايم ل .

Oppenheim, L. La Mésopotamie, Gallimard,
1970 (Eng. 1964, الطبعة الانكليزية في ١٩٦٤)

٣٨ ــ أوتس . ج

Oates J. Babylon, Lonolon 1979.

٣٩ ــ بريتشارد ج . ب

Pritchard, J. B. Ancient Near Eastern Texts relating to the O.T. 1955.

٤٠ ــ بتناتو ج

Pettinato G. Ebla, Rusconim, Roma, 1986.

٤١ ــ ساكس . هـ . ف . ف

Saggs H. W. F. Asyria, London 1984.

٤٢ ــ (فون) سودن

Soden W. Von, Grundriss der Akk. Gram. 1952.

٤٣ ــ سولبرجر ، وكوبر :

Sollberger E, Kupper J. R. Insriptions royales sum. et Akk. Paris 1971.

٤٤ ــ تدمر هـ .

Tadmor, the Campaigns of Sargon II of Assur J.C.S. XII p.p. 22-40, 77-100.

٤٥ ــ فيهر إ .

Weiher, E. Von, Hanigalbat in R.L.A. der Assyriologie IV, 1972-1975 S. 105-107.

٤٦ ــ فيلهلم ج

Wilhelm, G. Grundzüge der Geschiehte u Kultur der Hurrier, Darmstadt, 1982.

الفهـرس

ANCIENT ARAB EAST:

STATES AND CIVILIZATIONS

Sumer & Akkad
Babel & Assur
Amurru & Aram

M.H. FARZAT (Dr.)
Prof. of Ancient History
Univ. of Damascus

A. Mar'i (Dr.)
Lecturer in Ancient History
Univ. of Damascus

دول وحضارات في الشرق العربي القديم : سومر واكساد ـــ بابل واشور ... / محمد حرب فرزات ، عيد مرعي . ـــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٠ . ـــ ٢٢٤ ص : موضح ؛ ٢٤ سم .

١ ـــ ٩٣٥ ف ر ز د ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ فرزات ٤ ـــ مرعي
مكتبة الأسد

ع ـــ ١٩٩٠/٨/٦٧٨

رقم الإصدار ـــ ٤٩٤

أُعِدَّ هذا الكتاب في «تاريخ الشرق العربي القديم» تلبية لحاجة ملحّة للطالب والمدرّس والباحث والقارئ المثقف المهتم بتاريخ الوطن العربي وبدراسة حضاراته القديمة ودوله المتعاقبة.

وعني المؤلفان بتوضيح موضوع البحث ومناهجه وأدواته، وماله من صلات بعلمي الآثار واللغات لتعميق الفكر العلمي وتنمية روح النقد والمحاكمة السليمة.

وطرح المؤلفان دون إفراط أو تفريط، جملة من المسائل التي ماتزال محل دراسة في الأوساط العلمية المختصة، مما يتصل بالناس الذين عاشوا على هذه الأرض وأقاموا فيها وشقوا ترابها بأذرعهم وبذروا فيه الحب بسواعدهم وجبلوه بالدم ونسغ الحياة، وكتبوا وفسروا ونحتوا، لكي يتصل إرث الأجيال الماضية بالأجيال القادمة، ضمن رؤية شاملة للتاريخ العربي في كل عصوره ومنهج علمي رصين. إنه كتاب يرصد التحركات البشرية والصراعات السياسية والتحولات الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ الثقافية للمجتمعات القديمة على أرض الوطن العربي بشكل يمكّن من تفهّم حركة التاريخ القديم في مشرقنا العربي في مسيرته الطويلة خلال أكثر من أربعة آلاف عام.

الناشر